OPEN UNIVERSITY PRESS

تأليف
روبرت جي

ترجمة
بسمة ياسين

الإعلام والسياسة ومجتمع الشبكات

مجموعة النيل العربية

الإعلام والسياسة
ومجتمع الشبكات

الإعلام والسياسة
ومجتمع الشبكات

تأليف

روبرت حسن

ترجمة

بسمة ياسين

مجموعة النيل العربية

English Edition Copyrights:

حقوق الطبعة الإنجليزية:

McGraw-Hill Higher Education

Media, Politics and the Network Society, First edition

By/ Robert Hassan, 2004

© Original edition copyright 2007 **Open University Press UK Limited.**

All Rights Reserved.

© Arabic Language 1st edition copyright of Media, Politics and the Network Society by Robert Hassan, First edition, 2010 by **Arab Nile Group.**

All Rights Reserved.

I.S.B.N. McGraw-Hill: 0-335-21315-4

I.S.B.N. Arab Nile Group: 978 – 977- 377- 121 - 6

حقوق الطبعة العربية:

عنوان الكتاب: الإعلام والسياسة ومجتمع الشبكات

تأليف: روبرت حسن

ترجمة: بسمة ياسين

رقم الإيداع: 3194

الترقيم الدولي: 6 - 121 -377 -977 – 978

الطبعة: الأولى

سنة النشر: 2010

الناشر: **مجموعة النيل العربية**

العنوان: ص.ب: 4051 الحي السابع

مدينة نصر 11727 القاهرة – ج.م.ع

التليفون: 26717134 – 00202/26717135

الفاكس: 00202/26717135

بريد إلكتروني: info@arabnilegroup.com

sales@arabnilegroup.com

arab_nile_group@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: www.arabnilegroup.com

حقوق النشر:

حقوق الطبع والنشر بكافة صوره محفوظة للناشر "**مجموعة النيل العربية**" ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بعد الرجوع للناشر والحصول على موافقة كتابية، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية مع حفظ كافة حقوقنا المدنية والجنائية.

حسن، روبرت

الإعلام والسياسة ومجتمع الشبكات/ تأليف روبرت حسن؛ ترجمة بسمة ياسين.— ط1. — القاهرة: مجموعة النيل العربية، 2010.

248 ص؛ 24 سم.

تدمك 6- 121 -377 -977 -978

1 – شبكات الاتصالات

أ- ياسين، بسمة (مترجم)

ب- العنوان

621.38215

تنويه 1 :

لقد تم بذل أقصى جهد ممكن لضمان احتواء المادة المترجمة لهذا الكتاب على معلومات دقيقة ومحدّثة. ومع هذا، لا يتحمل الناشر "**مجموعة النيل العربية**" أية مسئولية قانونية فيما يخص محتوى الكتاب أو عدم وفائه باحتياجات القارئ كما أنه لا يتحمل أية مسئولية أو خسائر أو مطالبات متعلقة بالنتائج المترتبة على قراءة أو استخدام هذا الكتاب.

تنويه 2 :

إن مادة هذا الكتاب والأفكار المطروحة به تعبر فقط عن رأي الكاتب أو المؤلف لهذا الكتاب، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

الإهداء

إلى كيت، وثيو، وكاميل

المحتويات

الموضوع	صفحة
كلمة افتتاحية بقلم محرر السلسلة	11
شكر وتقدير	13
الاختصارات	15
مقدمة	17
الفصل الأول: ما هو مجتمع الشبكات؟	27
الثورة أصبحت شيئًا طبيعيًا	27
ملاحظة 1: نهوض مجتمع الشبكات	33
حقائق قليلة حول تاريخ الإنترنت ومجتمع الشبكات	33
ملاحظة 2: طريقة للتفكير في شبكات المعلومات والاتصال (ليس فقط الإنترنت)	39
التكنولوجيا الرقمية	39
الرأسمالية الرقمية	43
العولمة الرقمية	50
التسارع الرقمي	58
التشاؤم أم النقد؟	62
قراءات أخرى	64
الفصل الثاني: معلوماتية الثقافة والإعلام	65
إذن ما هو «الإعلام» وما هي «الثقافة» على أية حال؟	66
الإعلام	67
الثقافة	69
أشكال الجدل حول الإعلام ـ الثقافة	75

قنوات الثقافة 76
الإعلام الضخم = الثقافة الضخمة؟ 78
الهيمنة والإعلام الضخم 81
الإعلام الشبكي، والثقافة الشبكية: غياب الحوار 86
الاستمرار، وليس الانتهاء 94
قراءات أخرى 96

الفصل الثالث: الاتجاه إلى الرقمية: العالم السلكي 97
الاتصال 97
آسيا الحاسوبية 103
التواصل مع مجتمع الشبكات 106
اختر (أسلوبًا) للحياة 109
عالم سلكي يسبب الخطر؟ 111
الفجوة الرقمية ... المُلغاة 115
الحروب العالمية السلكية 121
مجتمع المراقبة: التعايش مع «الديكتاتور» الرقمي 127
قراءات أخرى 135

الفصل الرابع: الحياة دوت كوم 137
«جاء المستقبل، وهو غير موزع بالتساوي التام» 137
يوم في الحياة السلكية 140
البيتا والذرة 154
الإنسان الميكانيكي الكهربائي «R» في الولايات المتحدة 162
قراءات أخرى 168

الفصل الخامس: المجتمع المدني ومجتمع الشبكات 169
استعمار المجتمع المدني 169
حركة سياسية عالمية بسبب عصر العولمة 177

أساليب السياسة التقنية 188
قراءات أخرى 192

الفصل السادس: الإعلام التكتيكي 193
تفعيل الإعلام التكتيكي 197
التشوش الثقافي 199
مشفر الرموز 201
الأداء الرقمي المباشر 204
قراءات أخرى 207

الفصل السابع: مجتمع مدني شبكي؟ 209
العولمة الليبرالية الجديدة اليوم 210
الاتجاهات المتعارضة المنبثقة من المجتمع المدني الشبكي 216
خاتمة 220
قراءات أخرى 228

مسرد المصطلحات 229

المراجع 241

كلمة افتتاحية بقلم محرر السلسلة

بدأ العالم الجديد يتشكل أمام أعيننا، وبدأ عالم «مجتمع الشبكات» في استخدام عبارة «مانويل كاستيلز» Manuel Castells المؤثرة. ويرى المنظرون الاجتماعيون مثل «كاستيلز» أن مجتمع الشبكات يعد هو الهيكل الاجتماعي لعصر المعلومات، باعتباره ممثلًا لشبكات الإنتاج، والقوة، والخبرة. ومنطقه السائد، هو أنه رغم مواجهته لتحديات من قِبل الصراعات الاجتماعية بشكل مستمر، فإنه يقدم وبشكل متزايد معلومات للأداء الاجتماعي والمؤسسات عبر ما يسمى بالعالم التكافلي الموجود بتزايد. ويشير إلى أن الإنترنت «يعد الأداة التكنولوجية والشكل التنظيمي الذي يقوم بتوزيع قوة المعلومات، وتوليد المعرفة، وطاقة العمل داخل الشبكات في جميع مملكات النشاط». ويضيف أنه نتيجة لذلك، فإن «انقطاع الاتصال، أو الاتصال السطحي بالإنترنت يعادل التهميش في النظام الشبكي العالمي. وسوف يصبح التطوير دون الإنترنت مشابهًا للتصنيع دون كهرباء في العصر الصناعي». وبالتالي فإن استخدام المعلومات من قِبل مراكز النفوذ كوسيلة لتعزيز وزيادة هيمنتها الهيكلية يؤثر على الشأن السياسي. وتنشأ المطالب المتعلقة بـ «القرية الكونية» global village من سيطرة التكنولوجيات الجديدة للإعلام، خاصة عند الاعتراف بأن غالبية سكان العالم لا يجرون مكالمات هاتفية مطلقًا دون أن يتم إدخالها في شبكة المعلومات عن طريق الحاسب الإلكتروني. ولا بد من تكريس الاهتمام الشديد لعمليات التهميش الاجتماعي - الفجوة الرقمية الحادة - في قلب مجتمع الشبكات.

يتناول كتاب «روبرت حسن» Robert Hassan «الإعلام، والسياسة، ومجتمع الشبكات» **Media, Politics and the Network Society** هذا التحدي بدقة. ويشير إلى أن مجتمع الشبكات أكثر شمولًا من الإنترنت، فهو يشمل كل شيء يتصل به، ليخلق بذلك علم بيئة المعلومات حيث يشكل منطق المذهب السلعي جوهر وجوده. ويستمر في الإشارة إلى أن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال The information and communication technology (ICT) التي شكلت هذه العملية من البداية لم تنبثق من فراغ سياسي أو اقتصادي أو ثقافي. وبمعنى أكثر دقة، فإنها مرتبطة بالقوى المحركة الثقافية لـ «العولمة الليبرالية الجديدة» neoliberal globalization بشكل لا يمكن التخلص منه كقوة أيديولوجية، القوة التي تغير من دور

وطبيعة الإعلام في المجتمعات الحديثة. ووفقًا لذلك، فإنه تتم دراسة عدد من الصراعات حول من يمتلك ويتحكم في مدخل البنية الأساسية لمجتمع الشبكات. ويرى «هاسان» أن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال تقدم خدمات تمثل أسلحة لاختيار جيل جديد من أهداف الناشطين حول إعادة تزويد مجتمع الشبكات بشبكات أسلاك من خلال المزيد من العلاقات السياسية المتبادلة الآخذة في التقدم. ومن خلال أشكال جديدة من «السياسة التكنولوجية» technopolitics، تولدت أفكار متجددة وتم التفاوض حولها بشكل جماعي مع الحرص على انطلاق المحتجين والمعارضين عبر العالم، الذين من خلالهم يكون التأثير على الحياة اليومية في بعض الأحيان عميقًا للغاية. ومن خلال تقييم قضايا الدراسات الثقافية والإعلامية، يرى «هاسان» أن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين يشهد بدايات مقاومة «معلوماتية» شديدة في مواجهة هيمنة الرأسمالية الليبرالية الجديدة ليست أقل - كما سوف يعرض - من تلك الموجودة داخل مجتمع الشبكات نفسه.

وتهدف سلسلة قضايا في الدراسات الثقافية والإعلامية **Issues in Cultural and Media Studies** إلى توفير نطاق متنوع من التحقيقات الحاسمة عبر أسئلة ضاغطة وتعد جوهرية بالنسبة للأفكار والأبحاث الحالية. وفي ضوء السرعة الملحوظة التي عندها تتغير جداول أعمال تصورية حول الدراسات الثقافية والإعلامية، يكون الاهتمام بفهم هذه السلسلة من أجل المساهمة في عملية متواصلة من النقد وإعادة التقييم. ويهدف كل كتاب إلى طرح مقدمة قوية ومبتكرة وشاملة عن قضية خاصة ومحورية من منظور متجدد. ويقدم للقارئ خلفية كاملة عن أكثر الندوات بروزًا فيما يتعلق بموضوع الكتاب، وكذلك وجهات نظر مهمة حول كيف أن الأنماط الجديدة للتحقيقات قد تترسخ من أجل أبحاث المستقبل. وبشكل عام، فقد تم تصميم السلسلة لتغطية العناصر الجوهرية في المحاضرات الخاصة بالدراسات الثقافية والإعلامية بطريقة مميزة ومترابطة بشكل تصوري.

ستيوارت آلان
Stuart Allan

شكر وتقدير

هذا الكتاب، مثل كتابي الأول، قد تم تأليفه مبدئيًا من خلال المكان والزمان (والراتب) الذي وفرهم «معهد الأبحاث الاجتماعية» Institute for Social Research في «جامعة سوينبرن» Swinburne University في «ميلبورن» Melbourne، بأستراليا. لا بد أن يوجه الشكر مرة أخرى إلى مدير المعهد «ديفيد هيوارد» David Hayward، لثقته، وإيمانه، وصبره - ولأنه جعلني أواصل العمل في المعهد. والشكر أيضًا إلى «دينيس ميريدايث» Denise Meredyth لأنه جعلني على اتصال مع محرر السلسلة في «الجامعة المفتوحة» Press Open University، «ستيوارت آلان». وامتنان خاص إلى «ستيوارت» لحماسه الكامل ومساعدته في تطوير الكتاب. فلم أكن أتمه بدونه.

الاختصارات

BBS	Bulletin Board Systems	أنظمة لوحة النشرات
BSE	Bovine Spongiform Encephalopathy	مرض جنون البقر
CCP	Chinese Communist Party	الحزب الشيوعي الصيني
CERN	European Organization for Nuclear Research	المنظمة الأوروبية لأبحاث الطاقة النووية
COMINT	communications intelligence	دائرة الاستخبارات
CSAE	Committee for the Study of the American Electorate	لجنة دراسة الناخبين الأمريكيين
DEC	Digital Equipment Corporation	شركة ديجيتال إكويبمنت
EU	European Union	الاتحاد الأوروبي
FLAG	Fibre Optic Link Around the Globe	وصلة الألياف الضوئية حول العالم
GM	genetic modification	التعديل الوراثي
GPL	General public licence	الرخصة العامة
GPS	Global Positioning Satellite	نظام التموضع العالمي
GUI	Graphical User Interface	واجهة المستخدم الرسومية (الجرافيكية)
IFJ	International Federation of Journalists	الاتحاد الدولي للصحفيين
IMF	Monetary Fund International	صندوق النقد الدولي
IP	Internet Protocol	بروتوكول الإنترنت
ISP	Internet Service Provider	مقدِّم خدمة الإنترنت
LAN	Local Area Network	شبكة محلية
MSC	Multimedia Super Corridor	المسار الضخم للوسائط المتعددة
NAFTA	North American Free Trade Agreement	اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية
NGO	Non-governmental organization	منظمة غير حكومية
NSA	National Security Agency	وكالة الأمن القومي
NTIA	National Telecommunications and Information Administration	الإدارة القومية للمعلومات والاتصالات السلكية واللاسلكية
OS	Operating system	نظام التشغيل
PET	Personal Electronic Transactor	وسيط الإلكترونيات الشخصي
R & D	research and development	البحث والتطوير

TCP	Transmission Control Protocol	بروتوكول التحكم في النقل
UNDP	United Nations Development Programme	برنامج التطوير بالأمم المتحدة
UNEP	United Nations Environmental Programme	البرنامج البيئي للأمم المتحدة
WEF	World Economic Forum	المنتدى الاقتصادي العالمي
WHO	World Health Organization	منظمة الصحة العالمية
WTO	World Trade Organization	منظمة التجارة العالمية

مقدمة

نحن نعيش في عصر المعلومات، وفي مجتمع مليء بالشبكات. ما هي طبيعة هذا الشيء؟ كيف أدى إلى التطوير وما الذي يعززه؟ وعلاوة على ذلك، ما هي تأثيراته على الإعلام، وعلى الإنتاج الثقافي، وعلى السياسة؟ تلك هي الأسئلة الرئيسية التي سوف يتناولها هذا الكتاب. وفي الرد على هذا النوع من الأسئلة فقد توقع الكثيرون قدوم عصور مذهلة في الحياة داخل مجتمع الشبكات. ويتوقع آخرون، أقل عددًا، الخراب والظلام فقط. وتعد هذه أيضًا أسوأ العصور أو أفضل العصور، طبقًا للأقطاب المختلفة للتوقع مع الأخذ في الاعتبار العالم المليء بالشبكات. ويعد هؤلاء أيضًا مؤيدين. وبشكل اختياري يمكن للشخص أن يتجاهل الادعاءات المتنافسة تمامًا ويواصل حياته الخاصة. وهذا ما يفعله معظم الناس. وهذا يمكن ملاحظته. وتمثلت إحدى سمات نهوض مجتمع الشبكات في سرعته. وقد تقدمت الحياة بسرعة نحو النقطة التي عندها يكون قد حان وقت أخذ مثل هذه الأسئلة في الاعتبار، القليل جدًا لديه إجابة مباشرة عليها، أو رأي انعكاسي عليها. إن الحياة سريعة، لذلك فقد تكون صعبة. فلا بد من إيجاد وظائف والحفاظ عليها، ولا بد من دفع الإيجارات، ولا بد من إطعام الأطفال. فليس هناك وقت للتفكير في الأسباب الجوهرية والنتائج المتشعبة. علاوة على ذلك، يمكن أن يكون لدى الحياة في مجتمع الشبكات تأثيرات تحسينية لا جدال فيها على المخ المرهق والبدن المتعب. فعلى سبيل المثال، يمكننا الحصول على قسط من الراحة في المنزل بعد العمل أو المدرسة وتشغيل فيلم من خلال «قرص الفيديو الرقمي» DVD ، أو إدخال لعبة «بلاي ستيشان» Playstation وإطلاق النار على شيء خيالي. ويمكننا كتابة رسالة إلى صديق، والدخول إلى شبكة الإنترنت، وشراء وجبة الغداء، والتوصل إلى شخص ما يقوم بإعدادها وتسليمها. ومن خلال الفضاء الإلكتروني يمكننا إرسال بريد إلكتروني لصديق، أو التخفي والترصد، أو المشاركة في غرف الدردشة، أو مشاهدة الصور الخليعة، أو محاولة الحصول على ذلك الإنسان الآلي الياباني الرديء الذي ظهر في خمسينيات القرن العشرين من خلال غرفة إلكترونية، أو تحميل أحدث فيلم رائج في «هوليوود» (تم تهريبه) من خلال تقنية الاتصال واسعة النطاق بينما ننتظر وصول البيتزا. بمعنى آخر، يمكننا أن ندع عالم الشبكات يسيطر

علينا. ويمكننا أن نتذوق ثماره بينما نستطيع ونحاول أن نتعامل مع مفاجآته السيئة إذا حدثت وأثناء حدوثها. هذا هو الوضع المحايد.

يقدم هذا الكتاب تحليلًا عن مجتمع الشبكات ويضع في الاعتبار الأسئلة السابق طرحها. إنه يفترض أن قراءه قد اجتازوا مرحلة المواقف المؤيدة والمحايدة ويؤمنون بأن هناك المزيد فيما يتعلق بمجتمع الشبكات ومن ثم قدرتهم على التصويت لـ «چوش»، أو «چامي»، أو «چاني»، أو «چوزي» من سلسلة البرنامج التليفزيوني الواقعي «بيج براذر» Big Brother بالضغط على زر في الهاتف المحمول، أو قدرتهم على الاستفادة من عجائب الإنترنت ـ بداية من الحصول على شهادة علمية، حتى تكوين مكتبة موسيقية كبيرة عن طريق «إم پي ثري» MP3. يعتمد هذا الكتاب على فكرة أن هذه الأنشطة المتعلقة بالشبكات لا تعد في ذاتها جيدة أو سيئة، لكنها تعني شيئًا ما، وتقول شيئًا ما عن نوع المجتمع الذي نعيش فيه. إنها تعد جزءًا من جزء أكبر، وتعتبر أيضًا قوى محركة متصلة ومتبادلة، ومن المهم أن نفهم ما هي هذه الأنشطة، والطرق التي تؤثر علينا من خلالها. ولماذا يعد هذا مهمًا؟

وليس من المبالغة القول إن نمو مجتمع الشبكات يعد تطورًا تاريخيًا عالميًا. وهذا لم يحدث في المجتمع الرأسمالي خلال «الثورة الصناعية» Industrial Revolution في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذي مر بمثل هذا التغير الاقتصادي والتكنولوجي. فهذا التغير لم يحدث أبدًا بشكل سريع للغاية. وكانت «الثورة الصناعية» سريعة بالنسبة لمعايير ذلك الوقت. سريعة بشكل مذهل، لكن استغرقت تلك الثورة عقودًا، بل أجيالًا، حتى تتغلغل في الاقتصاديات، والصناعات، والثقافات، والسياسة، والمجتمعات. ورغم ذلك، فمن الصعب الآن إيجاد نقاط تشابه حقيقي في مجتمع الشبكات اليومي الحالي مع ذلك في العالم كما كان في السبعينيات أو الثمانينيات من القرن العشرين، لذلك فقد تغير ذلك بشكل كامل. نحن نعمل ونتعلم ونفكر بشكل مختلف. لذلك فنحن نقوم بأشياء كثيرة لم يكن من الممكن تصورها في العشرين سنة الماضية. ويزيد على ذلك، أننا نتخذ كل هذا كأمر مسلَّم به. الآن، لا بد أن تدرك أن هذا النوع من الحديث يدور بشكل خطير حول الاصطلاح المكرر ـ مجتمع الشبكات، لكنه لا بد أن يقال مرة بعد مرة للتأكيد ولتذكيرنا بحداثة العالم الذي نعيش فيه. ولا بد أن أبناء وبنات الأجيال السابقة يدركون الكثير من السمات التي كانت تميز عالم آبائهم. وكان إعلامهم، وثقافاتهم،

والسياسة التي سادت عصرهم متشابهة بشكل واسع ويمكن تمييزها بسهولة. وبالمقارنة، فإن الصغار الذين ولدوا في تسعينيات القرن العشرين ويمرون بالمراهقة والبلوغ سوف يواجهون صعوبات كبرى فيما يتعلق بما قبل العالم الرقمي تمامًا. كان هذا يعد عالمًا تسيطر عليه المبادئ التنظيمية الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بمذهب الفوردية Fordism إلى المدى الذي يصبح ما أسماه «ديفيد هارفي» David Harvey (1989) «الأسلوب الكامل للحياة». فعلى سبيل المثال، كان ذلك عالمًا لا بد أن يبدو فيه «الاقتصاد الحر» شكلًا من أشكال الهمجية، عالمًا كانت فيه الحواسب الإلكترونية بطيئة ومشكلاتها كثيرة وكانت تستخدم اختياريًا في الصناعة والأبحاث، وعالمًا كنا نقوم فيه بالاتصال عن طريق «الهاتف» (كلمة في طريقها إلى الاندثار بسبب التجاهل) الذي ظهر بألوان متنوعة من الأزرق أو الأسود أو الأبيض أو البيج والذي يوضع ـ ثمينًا وثابتًا ـ في المدخل بجوار آنية الزرع.

ومن هنا لماذا التركيز على الإعلام، والثقافة، والسياسة عند محاولة فهم مجتمع الشبكات، عندما يكون مجتمع الشبكات، كما سأعرض فيما بعد، ظاهرة اقتصادية وتكنولوچية في الأساس؟ اسمحوا لي أن أضع الآن صورة تخطيطية لهذه الأسباب ثم أتناولها ببعض التفصيل في الفصول التالية. إنني أقوم بالتركيز على هذه العناصر لأنها تعد في الأصل مجالات متعددة، في تكوين معقد، يصنع الإمكانية الاقتصادية والتكنولوچية. علاوة على ذلك، فإن هذه المجالات قد تحولت جذريًا بسبب ظهور مجتمع الشبكات. وتعد الاقتصاديات والتطور التكنولوچي عمليات مترابطة بشكل كبير ولديها بالطبع قواعدها القوية الخاصة بها. ورغم ذلك، فقد نشأت فقط من أجل التدعيم وأصبحت شرعية في المجتمع عبر التفاعل بين الإعلام، والثقافة، والسياسة.

ويتناول دور الإعلام. فإنه في المجتمعات الحديثة، تنتقل الأفكار التي تضع الأساس الذي من خلاله يتشكل ويتطور المجتمع عبر الإعلام الضخم (بشكل أساسي). ويعد هذا مجالًا لا نهائيًا للمنافسة، لكنه يعد أيضًا واحدًا من المجالات التي تمتلك قوى محركة جديرة بالاهتمام وأغلبية من السهل ملاحظتها. وهنا توجد أشكال التفاعل المعقدة بشكل متزايد فيما أسماه «أنتونيو جرامسكي» Antonio Gramsci «المفكرون العضويون» بما يمتلكونه من تأثير. وبالنسبة لـ «جرامسكي»، فإن المفكرين العضويين يبرزون فجأة مثل منظمي الأغلبية الأيديولوچية،

أو الهيمنة، بالنسبة لطبقة الرأسماليين ـ التي تتمثل في أصحاب رأس المال والمتحكمين فيه. وعبر دخولهم إلى الأشكال المختلفة للإعلام الضخم، فإن هؤلاء هم القادرون على ـ كما يقول «زايجمونت باومان» Zygmunt Bauman (1992 :1):

... توضيح وجهة النظر العالمية، والمصالح، والاهتمامات التي حددت تاريخيًّا إمكانية نشوء طبقة خاصة، شكلت وأحكمت القيم المطلوبة ليتم تدعيمها من أجل هذه القوة حتى تتطور بشكل كامل، والتي تجعل من الدور التاريخي للطبقة المفترضة دورًا شرعيًّا، مطالبتها للقوة ولإدارة العملية الاجتماعية فيما يتناسب مع هذه القيم.

يتمثل هؤلاء في الصحفيين، والفنانين، والمصممين، والمديرين، ومذيعي الراديو، وأصحاب الصحف، والأكاديميين، إلخ، الذين يساهمون في تشكيل الأفكار المهيمنة التي تغذي بشكل مباشر أشكال المنظومة الاقتصادية ومستويات التطوير التكنولوجي السائدة داخل المجتمع.

ومن ناحية الثقافة، يرى «ريموند ويليامز» Raymond Williams ـ المُنظِّر الاجتماعي والثقافي والتكنولوجي الذي كان له تأثير جوهري على الدراسات الثقافية، والذي سوف تتناسج أفكاره مع هذا الموضوع ـ أن «الثقافة تعد شيئًا عاديًّا» culture is ordinary (6: 1958b). وقد أكد أن الثقافة يتم إنتاجها، عبر القوى المحركة اليومية التي تغمر الحياة الاجتماعية بأكملها. وهذا يعمل على توليد الرموز وأشكال التمثيل التي تشكل الهوية وتساعدنا على الانتماء إلى معنى في العالم وإلى مكانتنا داخله. وقد تحول الإنتاج الثقافي ـ باعتباره «عاديًّا» ordinary وحيويًّا بالنسبة لتكوين وتشكيل المجتمع، عبر شبكات العمل داخل المجتمع. وسوف يتضح بشكل مباشر أن أشكال الإعلام، والممارسات الإعلامية، والمؤسسات الإعلامية، تلعب دورًا حيويًّا في الإنتاج الثقافي. ومن خلال ذلك تنتقل تلك الأفكار، وتورث التقاليد، وتنتشر الأيديولوجيات بشكل واسع، وتتوطد أشكال الهيمنة، وتبدأ الرموز، والأعراف، والمعايير، والقيم في إتمام «الثقافة» المبتكرة والمتعارضة والمؤثرة.

وأخيرًا، فقد أصبحت العملية السياسية ـ السياسات المؤسسية بشكل مبدئي وعمليات المجتمع المدني بشكل أكثر عمومية ـ هي القوة الديناميكية بين هذه القوى التفاعلية للإعلام

والثقافة داخل المجتمع. ويكون ذلك عبر السياسات التي تلائم الأفكار الرئيسية وأشكال الثقافات التي تشكل المجتمع، حيث تصبح شرعية ويمكن أن تكون مهيمنة ـ أو تصبح محرمة أو مهمشة (غير شرعية أو جزءًا ثانويًا من الثقافة). وتعد هذه العملية المربكة ـ كما أراها ـ جدلية بشكل عميق.

باختصار، فإن التعريف الشائع للعملية الجدلية ربما يكون مفيدًا عند هذه النقطة لأنه يبرز الكثير الذي يأتي فيما بعد في هذا الكتاب. وتُستخدم أحيانًا هنا كلمة **تفاعل** كمرادف للجدل وهذا يحكم السيطرة على القوى المحركة للعملية ـ لكن هناك المزيد. وتشتق كلمة **الجدل** من الكلمة اليونانية لعملية الاستجواب المتواصل عبر حوار أو مناقشة مفتوحة. تبدأ المناقشة باقتراح (فرضية) thesis، ثم فحص الرأي المخالف (المضاد) antithesis، ثم التوصل إلى رأي جديد يقوم بدمج العناصر لكلا الجانبين (التركيب) synthesis. وقد تم تطوير الإطار الفلسفي الرئيسي في التقليد الماركسي، مرورًا بمدلول «هيجل» Hegel الأكثر روحانية، إلى ما كان يسمى «المادية الجدلية» dialectical materialism (تطبيق هذه النظرية بمعيار العالم الواقعي). بالنسبة لـ «ماركس» كان هذا في جدل التاريخ الذي انتهى بالصراع بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال الذي كان يجب حله في النهاية بـ «تركيب» الشيوعية. وفي الدراسات الثقافية، أصبح الجدل يغلب عليه فكرة العنصر النقدي، أو التوصل إلى التركيب عبر التفكير النقدي، أو ما أسماه «فريدريك چيمسون» Fredric Jameson «التفكير المجسم ثلاثي الأبعاد» stereoscopic thinking ـ أو القدرة على التفكير عبر كل من جانبي المناقشة وخلق وجهة نظر جديدة (1992: 28).

ولا يركز موضوع هذا الكتاب على الصراع الطبقي التاريخي بشكل واضح، لكنه يهتم بالتفسير النقدي للتفاعلات الجدلية بين الإعلام، والثقافة، والسياسة في إطار مجتمع الشبكات. ويرى «چين بودريلارد» Jean Baudrillard أن هذا يحدث فيما أسماه «التوتر الجدلي أو الحركة النقدية» dialectical tension or critical movement (2003 :2). تعد هذه التوترات أو الحركات هي تفاعل «المجالات» شبه المستقلة حيث يتطور الجدل بشكل ثابت، وحيث تتفاعل وتؤثر في بعضها البعض. وبشكل جدير بالاهتمام، توجد هناك مساحة للاختلاف في أشكال الإعلام، والأيديولوچيا، والثقافة، والسياسة حيث تعد عملية الجدل تمهيدًا لنظرية الدينامية (تفسير الكون بلغة تفاعل القوى)، والتنوع، والتغيير.

إلى هذا الحد يمكن أن يفكر الإنسان، وبالتالي يمكن الوصول إلى المعرفة تمامًا. وبالتالي يعد ذلك، بالتأكيد، أساسًا للدراسات الإعلامية، والدراسات الثقافية، والسياسة. لكن نهوض مجتمع الشبكات أدى إلى تغيير هذه القوى المحركة ووضع تفاعلات الإعلام، والثقافة، والسياسة عند مستوى جديد، وهو مستوى الرقمية والمعلوماتية، وهذا «الجدل الرقمي» digital dialectic ـ المصطلح المقتبس من «بيتر لونينفيد» Peter Lunenfeld (2000) ـ له تأثير عميق على هذه القوى المحركة. وإدراك كل ذلك يمثل الهدف الرئيسي لهذا الكتاب. وفي كتاب عنوانه «نقد المعلومات» Critique of information (2002) يرى «سكوت لاش» Scott Lash أن المعلوماتية قد اقتحمت هذه المجالات، ووازنت بين أقطاب الاختلاف، ومحت مجالات التجاوز والتأصل اللذين كونا الآليات المرنة للجدل ولإمكانية إيجاد طرق أخرى للوجود والرؤية. ويؤكد «لاش» أنه عبر عمليات الإمداد بالمعلومات يوجد الآن الإعلام، والثقافة، والسياسة كمعلومات رقمية عند سطح «وسيط آلي» machinically (2000 :9)، حيث لا يوجد هناك «خارج بعد الآن» no outside anymore (2000 :10)، ولا توجد مساحات للجدل كما كان ذلك يحدث من وقت قريب. وتخلق المعلوماتية مجتمع شبكات ونظام معلومات حيث تختفي «الاختلافات» داخل الإعلام، وداخل الإنتاج الثقافي، وداخل السياسة. ومن المحتمل أن تكون النتائج غير عادية، إلى جانب التأثيرات بعيدة المدى وأهميتها التاريخية عبر العالم. إن هذه المزاعم وهذا المنطق هو ما سوف يقوم هذا الكتاب بالكشف عنه.

يتناول الفصل الأول السؤال الرئيسي، «ما هو مجتمع الشبكات؟» سمع معظمنا عن هذا المصطلح، لكن ماذا تشكل القوى المحركة له بالضبط؟ كيف ولماذا يتطور؟ بعد تاريخ وجيز من تطور الإنترنت، تنتقل المناقشة إلى ما أعتبره سمات رئيسية منظِمة لمجتمع الشبكات. أرى أن كل هذا يعد اقتصاديًا، تكنولوجيًا وأيديولوجيًا ويتطور عبر مجالات اتصال متبادل أو «الأعمدة» التي توجد في نفس السطح الرقمي. وقد نوقش هذا في فصول فرعية منفصلة وكان عنوانها: «التكنولوجيا الرقمية» Digital Technology، و«الرأسمالية الرقمية» Digital Capitalism، و«العولمة الرقمية» Digital Globalization، و«التسارع الرقمي» Digital Acceleration. إن شرح هذه الأعمدة يقدم شكل ووظيفة القوى المحركة لنظام المعلومات ويضع إطارًا لبقية محتويات الكتاب.

ويركز الفصل الثاني على معلوماتية الإعلام والثقافة. ويبدأ بمناقشة مبدئية حول معاني مصطلح «الإعلام» ومصطلح «الثقافة». وينتقل من ذلك إلى تحليل لـ «أشكال الجدل حول الإعلام - الثقافة» وكيف أن أعمدتها التي يعملان من خلالها تستعمرها وتقيدها عملية المعلوماتية. وينتهي الفصل ببعض الاعتبارات التي تعد مقدمة للفصول التالية والتي تتناول السياسة والمجتمع المدني داخل مجتمع الشبكات. وفي هذا الجزء الأخير يُرى أنه رغم أن كلًّا من الاختلاف وأعمدة التفاعل الجدلي تختفي وتستعمر من قِبل نظام العولمة الليبرالية الجديدة والمعلوماتية، سوف توجد هناك دائمًا مساحات للاختلاف، حيث سوف تتم مقاومة الهيمنة والاستعمار من حيث يمكن أن تنبثق الطرق الأخرى للتواجد.

يبدأ الفصل الثالث بنظرة تجريبية على تطور «شبكة الأسلاك» في العالم داخل مجتمع الشبكات. ويمثل امتداد العملية تشوشًا للعقل، مع حوالي 39 مليون ميل من أسلاك بيانات بصريات الألياف في الولايات المتحدة وحدها. وأرى أن جزءًا من النجاح المذهل لشبكة الأسلاك هذه يتمثل في احتياجنا الفطري للاتصال مع بعضنا البعض، وهي الوظيفة التي أسماها «ماركس» Marx «وجودنا النوعي» التي تعد وظيفة اجتماعية بشكل عميق. بمعنى آخر، يعد البشر كائنات اجتماعية في الأساس تنساق إلى الاتصال. وهكذا تكون الفرصة لفعل هذا بصورة أكثر فاعلية، وأكثر سرعة، مع المزيد من الناس حافزًا لا يقاوم. وبشكل واضح، يبدو الاتصال المتبادل السريع في العالم كشيء خيالي، ومثير، و«تقدمي». يستمر الفصل في المناقشة، ورغم ذلك، فإن ذلك المنطق الخاص لمجتمع شبكات الليبرالية الجديدة يعني، بصورة ساخرة، أنه كلما قمنا بالمزيد من «الاتصال» في شبكة العمل الفعلية تعرضنا للمزيد من خطر «عدم الاتصال» من المزيد من العلاقات المباشرة. ينتهي الفصل بتحليل لكل هذه الجوانب السلبية بصورة ملموسة بشكل أكبر في الحياة داخل (أو «خارج» بالنسبة للكثيرين) مجتمع الشبكات، مثل «الفجوة الرقمية»، والطبيعة المتحولة للصراع من خلال المعلوماتية ونهوض «مجتمع المراقبة» الملازم والمليء بالمشكلات جنبًا إلى جنب مع مجتمع الشبكات.

يبدأ الفصل الرابع بمدخل مختلف إلى حد ما في محاولة لتوضيح تأثيرات «لايف دوت كوم» Life.com، أو انتشار تكنولوجيات المعلومات والاتصال ICTs في كل مكان بالنسبة للثقافة والمجتمع. يحدث هذا عبر كتابة اثنين من نصين لأحداث خيالية واللذين يصفان «يوم من

الحياة السلكية» في قالب روائي لشخصيتين تتشكل حياتهما بشكل عميق عن طريق تفاعلهما اليومي مع تكنولوچيا المعلومات والاتصال. والهدف هنا هو الشرح الواضح حول ماذا تشبه «الحياة» في مجتمع الشبكات بقدر الإمكان، والقيام بذلك بطريقة يمكن أن تكون أكثر نجاحًا من أن تكون عن طريق الرواية التي يغلب عليها الطابع الأكاديمي. يتحول الفصل بعد ذلك إلى التركيز مرة أخرى على النمط الأكثر تقليدية ويتضمن تحليلًا للنتائج (الواقعية والممكنة) لتفاعلنا العميق بشكل متزايد مع تكنولوچيا المعلومات والاتصال في مجتمع الشبكات. وأنا أرى أن ثورة تكنولوچيا المعلومات ونهوض مجتمع الشبكات أكبر بكثير من مجرد علاقة اجتماعية جديدة مع التكنولوچيا. ويعد ذلك بداية لعلم وجود جديد - أي طريقة جديدة للوجود - في كل من العالم المادي وفي شبكة الشبكات. وقد تم أخذ ذلك في الاعتبار من خلال تقييم نقدي لنظريات وأعمال «نيكولاس نيجروبونتي» Nicholas Negroponte ومشروعاته «الجزيئات والذرات» بمختبر الإعلام في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» Massachusetts Institute for Technology (MIT). ويتمثل الهدف المباشر لأبحاث المختبر (ومركز الجزيئات والذرات Center for Bits and Atoms الذي افتتح في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» عام 2001) في «التوصل إلى كيف أن محتوى المعلومات يرتبط بتمثيلها المادي، من النواة الذرية إلى الشبكات العالمية» (أخبار 2001 MIT News). ويتوسع موضوع علاقة الإنسان بشبكة المعلومات والاتصال عبر تحليل نظريات «دونا هاراواي» Donna Haraway حول الإنسان **ميكانيكي أو كهربائي الوظائف** cyborg. في ضوء هذا العمل في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» وفي كل مكان والانتشار العميق لتكنولوچيا المعلومات والاتصال في الحياة اليومية، يأخذ التحليل في الاعتبار ما إذا كان ذلك ملائمًا للحديث عن التشابك المتبادل والمعقد بين جسد الإنسان والتكنولوچيا كوجود واقعي في عالمنا المعاصر، أو ما إذا كانت لا تزال مادة للخيال العلمي من نوعية أفلام Terminator.

تنتقل الفصول الأخيرة (من الخامس إلى السابع) إلى التركيز على دور السياسة وكيف تغيرت قواها المحركة التقليدية (وهي الآن في حالة عميقة من التغير المتواصل) بسبب تأثير المعلوماتية. يبدأ ذلك بالإقرار بأن «المجتمع المدني» - العالم الذي انبثقت منه القوى السياسية - قد احتلته القوى الثنائية للعولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات. ويعد هذا إعادة تشكيل

لمجتمعنا المدني إلى مجتمع فقد الكثير من قواه المتحولة والمنشئة للتنوع. إن كلًّا من المذهب السلعي والمذهب الاستهلاكي وتأثيرات «التسريع الرقمي» في الاقتصاد والثقافة والمجتمع قد أصاب قلب ما يطلق عليه «روبرت بوتنام» Robert Putnam «رأس المال الاجتماعي» social capital. وقد أضعف هذا «القتل الرقمي للرباط الاجتماعي» ـ كما يسميه «بوتنام» ـ المجتمع المدني، حيث يوجهه نحو السوق، ويغرس الخمول في الذهن بالتركيز على قدرات الناس العاديين لتغيير الأشياء. ووفقًا لذلك، فإن المشاركة السياسية و«الرباط الاجتماعي» اللتان تكونان المجتمع المدني التقليدي من جميع الأنواع نادرًا ما تشيران إلى اتجاه. إن المجتمع المدني القديم ـ الذي اتخذ شكله وتكوينه في القرنين التاسع عشر والعشرين ـ يعد قريبًا إلى الخمول وغير قادر على تقبل الإعلام والديمقراطية الفعلية والتنوع الثقافي والسياسي في أي مكان في العالم، وبالتالي أضعفته ثورة الليبرالية الجديدة/ تكنولوجيا المعلومات والاتصال. ينتهي الكتاب بتحديد مساحات مقاومة داخل المجتمع المدني في نظام المعلومات. إنه يركز على القوى المحركة المعقدة التي تدفع ما يسمى بـ «حركة المجتمع المدني العالمي». يعد هذا ائتلافًا لمجموعات يائسة متباينة من جماعات الطبقة المتوسطة في الكنيسة، وعلماء البيئة في كل طبقة، وأعضاء نقابة العمال، إلى الناس العاديين من كل مسارات الحياة الذين يشعرون بتآكل وتراجع المجتمع المدني، وعدم العدالة أو «الضرر» بطريقة أو أخرى. وما يوحد كل هؤلاء هو الكراهية المترسخة تجاه منطق مذهب الليبرالية الجديدة والسوق الحر. وما يمكنهم من تنظيمهم معًا هو إدراكهم المشترك بأن مجتمع الشبكات هنا لكي يستقر، وأن تكنولوجيا المعلومات والاتصال ـ ليست السياسة البرلمانية أو الطرق القديمة للمجتمع المدني الفاسد الآن ـ يمكن أن تكون أدوات التغيير. إنهم يشتركون في الفكرة التي ـ إذا استخدمت بشكل ديمقراطي ـ تستخدم من أجل الناس وليس من أجل الربح ـ ثم يمكن أن يبدأ كل من الأفكار الجديدة والمعرفة الجديدة والطرق الجديدة للتواجد والطرق الجديدة لرؤية الأشياء في الرسوخ، وسوف يتحول مجتمع الشبكات الليبرالي الجديد والعقلاني إلى مجتمع أكثر عدلًا وقوة.

يعد تقسيم «ديكينز» Dickens المشار إليه في بداية هذه المقدمة خاطئًا. وما كنت أحاول أن أعرضه فيما يلي هو أن كل هذا ليس الأفضل وليس الأسوأ بالنسبة للعصور. وما يؤكد ذلك أننا نعيش في عصر المتناقضات في العاطفة وفي الرأي. وكما يصف «ديكينز» «الثورة الفرنسية»

French Revolution، يعد العصر الذي نعيشه «... عصر الحكمة، وعصر الظلام، وعهد اليقين، وعهد الشك». من ناحية أخرى - والأهم من كل ذلك - فنحن في غمرة فترة التحول الهائل مفتوح النهاية، ومن الثورة الثنائية للعولمة الليبرالية الجديدة وتكنولوجيا المعلومات. لقد تغير كل من الإعلام، والثقافة، والسياسة - لكن - خلال استمرار حالات التغير، برزت أشكال التواصل الديمقراطي وكشفت عن نفسها. ويحدث التجديد. وتعد هذه المساحات من التجديد - في نفس الوقت - مساحات خاصة بشبكة المعلومات والاتصال للإعلام، والإنتاج الثقافي، والصراع السياسي في خلق مجتمع مدني جديد. من ناحية أخرى، يعد التجديد عنصرًا ناشئًا، ويعد المستقبل غير مؤكد، ومع ذلك فالحقيقة أن الليبرالية الجديدة وتكنولوجيا المعلومات قائمتان على أرض غير ثابتة. ورغم ذلك - في غياب الرؤية البديلة واسعة الانتشار والجديرة بالثقة لتركيب مجتمع أفضل - فإن مذهب الليبرالية الجديدة وقواعده التكنولوجية سوف يستمر ليترنح من أزمة إلى أخرى. والمؤكد هو أن التبني المستمر للموقف المحايد من قِبل أغلبية سكان مجتمع الشبكات سوف يؤكد القاعدة الأيديولوجية الثابتة لليبرالية الجديدة وتشكيلها المستمر والاقتصادي والتكنولوجي لمجتمع الشبكات في صورته الخاصة. يعد فهم مجتمع الشبكات، واقتصاده السياسي، وتاريخه، وأشكال تواصله من العصر ما قبل الرقمي، وعوامل قوته المسببة للتغير، هو الخطوة الأولى من الحيادية والسلبية والمستقبل الرقمي (لكنه موحش بالتأكيد) غير المؤكد. ويعد فهم مجتمع الشبكات أيضًا الخطوة الأولى نحو الاستقلال ونحو تفويض السلطة ومذهب الفعالية التقدمي داخله. وفي هذا الصدد أود أن يمعن القارئ التفكير فيما يأتي في هذا الكتاب.

الفصل الأول ما هو مجتمع الشبكات؟

> ما كنا نحلم به هو التحول العالمي العميق. لقد أردنا أن نسرد قصة الشركات، والأفكار، والناس الذين أوجدوا «الثورة الرقمية» Digital Revolution بشكل خاص. لم يكن أبطالنا سياسيين ولواءات أو قساوسة وعلماء، لكن هؤلاء الذين ابتكروا واستخدموا التكنولوچيا وشبكات المعلومات والاتصال في حياتهم المهنية والخاصة ... هم أنتم.
>
> (لويس روسيتو Louis Rossetto، وايرد 6.01، Wired[1]، يناير 1998)

الثورة أصبحت شيئًا طبيعيًا

عند الكتابة قبل عامين من الانهيار الشديد وغير المتوقع لشركات التجارة الإلكترونية عام 2001، كان «روسيتو» ـ المشار إليه في الجملة المقتبسة السابقة ـ يمعن التفكير حول ما أدى بشكل موسع إلى تدعيم الثقة بعد ذلك في الإمكانيات المذهلة التي أدخلتها تكنولوچيا المعلومات والاتصالات في كل شيء تقريبًا. وبإلقاء نظرة على الأحداث التي شهدتها السنوات القليلة بعد هذا الانهيار، نجد أنه ربما يكون نظام التسعير الآلي التابع للجمعية الوطنية للمتعاملين بالسندات المالية» (الناسداك) NASDAQ الذي يقوم بقياس مدى ازدهار صناعات تكنولوچيا المعلومات والاتصال أصبح أقل قوة إلى حد ما، لكن تظل الثقة كبيرة في الانتصار المطلق لـ «الثورة الرقمية» في معظم الجهات الحكومية، والأعمال، والمجتمع بشكل عام. رغم ذلك، فإن الأكثر ضعفًا يتمثل في المبالغة الهائلة لـ «أبطال» مذهب الفردية في الأعمال التي تزامنت بشكل متكرر مع الحديث

---

(1) وايرد: مجلة أمريكية عن الحوسبة أسسها «چين ميتكالف» و«لويس روستو» و«كيڤين كيلي» لتكون صوتًا لـ «الثورة الرقمية»، ومقرها «سان فرانسيسكو».

حول تطور مجتمع الشبكات بصورة سريعة. وفي معظم فترة التسعينيات من القرن العشرين - في مجلات مثل «وايرد» - كان يمكن للقارئ في كل مكان تقريبًا بصحافة الأعمال وفي المقالات المطولة بكل صحيفة تقريبًا في أنحاء العالم، وأسبوعيًّا تقريبًا - أن يجد المقالات التي مجدت أبطال «الثورة الرقمية» الوليدة. وكان «بيل جيتس» Bill Gates صاحب شركة «مايكروسوفت» Microsoft هو المعبود الرئيسي. وتدور الروايات حول كيف أنه قام بشراء «نظام تشغيل الأقراص الخاص بشركة مايكروسوفت» MS–DOS - عام 1980 - بمبلغ 50 000 دولار أمريكي فقط من مبرمج مغمور يدعى «تيم باترسون» Tim Patterson لصالح شركة الحواسب الآلية الشخصية «آي بي إم» IBM وكيف أنه قرر بحكمة أن يحتفظ بحقوق الترخيص لنفسه بدلًا من بيعها إلى «آي بي إم»، وبالتالي حقق ثروة طائلة مع انتهاء ثورة الحواسب الآلية الشخصية، وأصبح بذلك أسطورة. وقد ذهل كل من رجال الأعمال النشطاء والحالمون الكسالى على حد سواء من بصيرة «جيتس» النافذة، وسال لعابهم من حجم رصيده البنكي الفعلي (والذي يتنامى بسرعة). وكان الثاني مباشرة - كما يعتقد - فيما يتعلق بتمجيد البطل هو «ستيف جوبس» Steve Jobs صاحب شركة «آبل» Apple Corporation، مع «آندي جروف» Andy Grove صاحب شركة «إنتيل» Intel الذي يعد البطل الثالث. ورغم ذلك، فقد نشأت معركة «جروف» بشأن ثورة التكنولوچيا بشكل أكبر بسبب أسلوب عمله العنيف الذي بدا ملائمًا لروح فترة التسعينيات من القرن العشرين، حيث تعارض مع الأعمال الأكثر مللًا نوعًا ما التي تميز بها معالجي الحاسب الآلي. ولا بد من القول أنه من أجل المزيد من الفهم فإن هؤلاء الذين شهدوا ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال في ظروف أكثر استقرارًا، كان المرشد الروحي/ البطل هو «نيكولاس نيجروبونت» الذي تم اختياره في «**مختبر الإعلام بمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا**» MIT Media Lab. وقد قام «نيجروبونت» بتمويل مجلة «وايرد» وقام أيضًا بكتابة مقالات بها، وقد أصبحت هذه المجلة تمثل صحافة **الضالعين** في عالم الأرقام. ويعد «نيجروبونت» شخصية مهمة ومؤثرة في هذه القصة الخاصة المتعلقة بعصر الشبكات وسوف يتم الحديث عنه بشكل أكثر تفصيلًا في الفصل الرابع.

رغم ذلك، كان هذا هو «جيتس»، الذي رد على التملق العام بشكل أكثر وضوحًا من خلال نشر كتابين: **في مقدمة الطريق** The Road Ahead (1995) **والأعمال في سرعة التفكير** Business @ The Speed of Thought (إلى جانب - تماشيًا مع الروح الجديدة للعصر - سي دي لكتاب في

مقدمة الطريق) (1999). وقد تم تصميم هذه الدعاية لتقديم حكمته إلى الجماهير، أي نقلها، بطريقة «موسيز» Moses، في نظرياته القوية حول طبيعة تكنولوچيا المعلومات والاتصال وعلاقتها بما يسمى الآن بـ «الاقتصاد الجديد» New Economy. كان هذا شكلًا جديدًا ومرنًا بدرجة كبيرة من التنظيم الاقتصادي الذي نشأ في نهاية السبعينيات من القرن العشرين من ضمن آثار «مذهب الفوردية» Fordism (هارڤي Harvey 1989). وقد عملت تكنولوچيا المعلومات والاتصال على تحفيز هذا «الاقتصاد الجديد الرائع» وتمت المطالبة بتطبيقه بعد مائتي عام من التجربة والخطأ، فيما أسماه «جيتس» «الرأسمالية الحرة الاحتكاكية» (1995). وقد راج كلا الكتابين بشكل مذهل. ورغم ذلك، فإنه فور نشرهما وبعد حدوث ضجة من قِبل بعض مؤلفي كتب موجهة بشكل مماثل لكنها أقل نجاحًا، بدا أن هناك حماسًا أقل لأبطال «الثورة الرقمية». وقد شعرنا بتحفيز أو إلهام بصورة أقل من خلال رجال الأعمال الرقميين، وما كان يجب أن يقولوه، وأصبح الإعلام أقل ميلًا إلى تقديم الاستحسان الذي كان يقدم لهم بشكل معتاد. فلماذا هذا التغيير المفاجئ؟

ربما لا بد أن يرتبط جزء من الإجابة بشكل عام بطبيعة شبكات المعلومات والاتصال وبهيمنة الحاسب الآلي. وفي البيئة المتنافسة للعولمة الليبرالية الجديدة، أصبح التسريع ـ أو الحاجة إلى المزيد من قدرة تشغيل الحاسب الآلي ـ يمثل كل شيء. وإذا كان يمكنك القيام بذلك بصورة أسرع في عالم حيث «الوقت يمثل المال»، و«المال يمثل الوقت»، فإنه يمكنك بالتالي القيام بذلك بتكلفة أقل ويمكنك الامتلاك المربح على التطبيق القاتل الذي يمكن أن يفوز في المنافسة. وفي الواقع ـ كما يرى «نيل پوستمان» Neil Postman ـ فإن سرعة الحاسب الآلي المتزايدة في كل حركة في الاقتصاد وفي مؤسسات المجتمع تقريبًا قد أصبحت الآن عنصرًا فعالًا في التسارع. كما يرى «پوستمان» ذلك، فقد أدى هذا إلى أن يعرض المجتمع تكنولوچيا الحاسب الآلي «كوسائل وكنهاية للابتكار الإنساني» (61 : 1993). ونتيجة لهذا التغير في الأجهزة المتعددة للتسريع، حدثت المرحلة التصورية الأولى لـ «الثورة الرقمية» في فترة وجيزة للغاية. وفي الواقع، قمنا بتسجيل حدوثها بسرعة شديدة. ورغم ذلك، فقد استوعبناها، والآن تبدأ تكنولوچيا المعلومات والاتصال في الانتشار في كل مكان تقريبًا بالحياة الثقافية والاقتصادية. واستخدمت مشغلات «قرص الڤيديو الرقمي» DVD players، والجيل الثالث

من الهاتف المحمول الملحق بشاشة ڤيديو videophones 3G، وبلاي ستيشن سوني Sony Playstation، والطرق العامة والطرق الفرعية للإنترنت نفسه لتثير مهاراتها المذهلة وإمكانياتها غير المحدودة. وهي الآن تمثل أشياء تستخدم يوميًا ـ بسبب تغلغلها العميق في حياتنا اليومية. واستمرت مشاعر الدهشة التي سيطرت على الأجيال السابقة من ظهور التليفزيون والمذياع لسنوات كثيرة، وذهولنا جميعًا بعد ذلك بالتطبيق القاتل، خلافًا لذلك، يمكن أن يقاس في أيام، أو ساعات، أو حتى ثوان ـ وتعرض فترة الإعلانات «الثابتة» لـ «آي بي إم» ما الذي يمكن أن تقوم حواسبها الآلية الجديدة بعمله في المطعم أو محل الزهور الخاص بك. وقد أضيفت السرعة البالغة لإنتاجها وانتشارها إلى السرعة التي تعودنا عليها وتشبعنا بها.

وفي أقل من عشر سنوات ذهلنا بالإنترنت، والبريد الإلكتروني، والهواتف المحمولة، وأجهزة المساعدات الرقمية الشخصية personal digital assistants (PDAs)، والماسحات الضوئية، وكاميرات الڤيديو الرقمية، والحواسب الشخصية المستخدمة في المنازل والمدارس وأماكن العمل،إلخ. وتمثل هذه العمليات والتطبيقات المتعلقة بالربط بالشبكات قفزة إلكترونية مدهشة فيما يتعلق بالأبعاد الكمية والبنية الرقمية الشائعة في حياتنا اليومية. وأصبح موضوع الثورة عاديًا. ونحن نتلهف على الجديد، لكننا نبدي توقًا متناقضًا إليه لأنه ينبع بشكل مستمر من ثقافتنا الشعبية. فعلى سبيل المثال، كانت الهواتف المحمولة منذ فترة طويلة تعد كماليات أنيقة ورائعة بالنسبة للمثقفين. أما الآن، كما يصفها «إيرڤاين ويلش» Irvine Welsh في روايته «الغراء» Glue عام 2001، بأنها «دمى غير مجدية (لدى سكان المدينة)» بغيضة، وغير جميلة، وموجودة في كل مكان. رغم ذلك، يعد «مانويل كاستيلز» Manuel Castells أكثر حيادية من الناحية المنطقية ـ رغم أنه أقل تقيدًا ـ في تقديره لعمق واتساع وأهمية الثورة. وقال في الفقرات الافتتاحية لكتابه **مجرة الإنترنت** The Internet Galaxy (2001):

> **يعد الإنترنت هو أساس حياتنا. فإذا كانت تكنولوجيا المعلومات في الوقت الحالي تماثل الكهرباء في عصر الصناعة، ففي عصرنا يمكن أن يرتبط الإنترنت بكل من شبكة الكهرباء والمحرك الكهربائي بسبب قدرة الإنترنت على توزيع قوة المعلومات عبر العالم النشاط الإنساني بأكمله.**

ويستخدم «كاستيلز» مصطلح «الإنترنت» ليرمز إلى «مجتمع الشبكات» ويعد هذا تمييزًا

سوف أتناوله فيما بعد. والنقطة التي أود الإشارة إليها هنا هي أن التطبيقات والأدوات التي تتصل بالإنترنت وتصلنا به تتزايد طوال الوقت في العدد وفي التعقيد. ويمثل هذا عمقًا واتساعًا في عالم الشبكات وتزايدًا في عدد الناس المتصلين به والذين جعلوا منه «مجتمعًا».

ويتمثل الاختلاف بين اليوم والمرحلة الأولى «البطولية» للثورة في أن عهد رائد الفردية المنسوب إلى «جيتس» يتلاشى بصورة سريعة، مثل الرجوع بالذاكرة لآخر إعلان لـ «إكس بي أو إكس» XBOX. وبشكل متناقض ـ خلال عصر الفردية ـ يركز مجتمع الشبكات بشكل أكبر على دمج جماهير الناس، وعلى الأنظمة الموزعة، والشبكات المتصلة بشكل متداخل، والعمليات، وعلاقات الأعمال، والعلاقات بين الناس. وباختصار، أصبحت الشبكات الرقمية جزءًا متكاملًا (سلبيًا، مركزيًا) من الرأسمالية الحديثة. وخلال فترة ما يسمى «مرحلة واحد من الثورات الرقمية» القصيرة للغاية، يبدو الآن أنه من غير المتصور تقريبًا تخيل شكل للرأسمالية، والعولمة الاقتصادية، والحياة الاجتماعية والثقافية التي ليست لديها شبكات معلومات واتصال رقمية في مركزها غير المحوري. بمعنى آخر، أصبحت الثورة شيئًا طبيعيًا.

وفي الوقت الحالي، استغرق الثوريون لدينا ـ في الأساس ـ في خمول طبيعي عام، مع اهتمام الإعلام فقط من خلال صدور مجلة «فوربيز» Forbes الغنية بالموضوعات. ولم يصب «تيم باترسون» بالخمول السابق، على الأقل داخل صفحات «فوربيز».. رغم ذلك، فقد أصبح الرواد المعروفون، ورائدو الأرقام في الصناعة من الطباعة إلى الإخراج بقناة المعلومات الرئيسية ـ كما كان يطلق على الإنترنت بشكل موجز ـ رأسماليين فيما يتعلق بالقضايا النوعية أمثال «روبرت موردوخ» Rupert Murdoch أو «وارين بوفيت» Warren Buffett. ورغم ذلك، لا يزال «بيل جيتس» صانعًا للأخبار، لكن لأسباب مختلفة. وفي الواقع، فإن الوقار الذي تمتع به «جيتس» تحول إلى سمعة سيئة محققة، وربما يكون قد فقد الثقة الأخلاقية والسلوكية ليكتب بشكل قاطع أن تكنولوجيات المعلومات والاتصال تعبر عن الرأسمالية وعن الناس بشكل عام. بدأت «مايكروسوفت» ـ حيث أصبحت ناجحة بصورة مفرطة ـ في الاستبداد بشكل متعجرف فعارضت جوهر «الطريقة الأمريكية» American Way، فأصبحت المشاكس والخانق للابتكار وأصبحت المشتري الجشع لأفكار المنافسين. وتسخر سلسلة «سيمبسونز» Simpsons ـ على سبيل المثال ـ من «جيتس» كسفاح ناهب للأموال والذي يتعامل مع المنافسة

بنفس الطريقة التي تتبعها «المافيا». ولسوء حظ «جيتس» و«مايكروسوفت» ـ في العالم الواقعي خارج «سبرينج فيلد» Springfield ـ فإنه لا تزال هناك وفرة من الاحتكاك في «رأسماليته الحرة الاحتكاكية»، وأصبح هو وشركته يعوقهما جزء كبير منها. وفي عام 2001، أمرت «وزارة العدل» بالولايات المتحدة بحل «شركة مايكروسوفت» لكي تخفف من ممارساتها الاحتكارية المزعومة في سوق البرامج الإلكترونية للحاسبات الشخصية. وفي وقت كتابة هذا العمل، يستمر الجدال المفصل والمطول في أمريكا الشمالية وفي أوروبا. وقد أدى ذلك إلى انتصارات جزئية لكل من «مايكروسوفت» وتلك الولايات والدول التي قدمت الشكاوي المضادة للتروستات (التجميعات الضخمة لرؤوس الأموال). ورغم ذلك، اقترحت «مايكروسوفت» ـ بينما تنكر أنها محتكرة ـ أداءً نوعيًّا يبلغ حوالي بليون دولار نقدي وتقدم منتجات الحاسب الآلي إلى 12000 مدرسة محرومة في الولايات المتحدة. رغم ذلك، لم يكن واضحًا بشكل مباشر كيفية النهوض بالتدريب والبرامج الإلكترونية والأجهزة في «مايكروسوفت» من أجل الوصول إلى السلسلة الغذائية لمجتمع الشبكات التي لا بد أن تقوم بتحسين تصورات الممارسات الاحتكارية. وكانت تلك نقطة لم تشغل بال المحامين الذين كانوا طرفًا في القضية. ويرى «جين كريو» Gene Crew ـ المحامي المناهض للتروستات الممثل للمدعين من «كاليفورنيا» أنها «أداة تسويقية بارعة جدًا» التي بها «يمكن لمايكروسوفت أن تستخدم برامجها الإلكترونية من أجل ترسيخ نفسها بشكل أقوى في سوق التعليم، الذي يعد السوق الوحيد الذي تتنافس فيه شركة «آبل» Apple فعليًّا». (خدمات الإذاعة العامة 2001 Public Broadcasting Services).

رغم ذلك، لا يعد النقد القاسي والمؤلم الذي عانى منه «جيتس» و«مايكروسوفت» هو القضية الفعلية. والنقطة التي أود الإشارة إليها هنا هي أن ثوريينا الرقميين لم يعودوا أبطالًا. ولم يعد الأغلب يبدون كرواد يأخذوننا إلى عالم جريء وجديد ورقمي وغير احتكاكي بدرجة كبيرة، وهو العالم الذي يجب فهمه ـ وهذه النقطة لن يكون من الضروري أن تشهدها الأجيال القادمة ـ وهو أن تكنولوجيا المعلومات والاتصال أصبحت جزءًا من الرأسمالية، وجزءًا من العولمة الاقتصادية، وجزءًا من عمليات الحياة اليومية لمئات وملايين الناس في أنحاء العالم. لقد حدث شيء ضخم. لقد حدث (وسوف يستمر في الحدوث) مع تلك السرعة والشمولية التي بالكاد يلاحظها معظمنا أو يدرك نتائجها.

ملاحظة 1: نهوض مجتمع الشبكات

منذ بداية تسعينيات القرن العشرين على الأقل، أصبح هناك الكثير من الكتب حول ظهور مجتمع الشبكات ومفاهيمه بالنسبة للاقتصاد، والثقافة، والمجتمع. وأصبحت بعض هذه المفاهيم والتحليلات، مثلما في كتاب «ديفيد هارفي» «الحال ما بعد الحداثة» Condition of Postmodernity (1989)، مفهومة ضمنًا، حيث لم تكن طبيعة وشكل الشبكات الرقمية واضحة بشكل كافٍ في وقت تأليف هذا الكتاب للتمكين من صياغة استنتاجات محددة. وتعد كتب أخرى أكثر وضوحًا واستفادة من مرحلة ما بعد الحدث عند وصف وتحليل نشوء وتطور العملية - مثل «نهوض مجتمع الشبكات» The Rise of the Network Society (1996) و«مجرة الإنترنت» (2001) لـ «مانويل كاستيلز»، و«الرأسمالية الرقمية» Digital Capitalism (1999) لـ «دان شيلر» Dan Schiller، وموقع Web.Studies الذي أسسه «ديفيد جونتليت» وآخرون David Gauntlett et al (2000) و«الإنترنت والمجتمع» The Internet and Society (2001).

وبتحديد المقدار الكبير من موضوعات نهوض مجتمع الشبكات، لا توجد هناك نقطة مهمة لإعادة كتابتها من جديد خلال هذه الصفحات. ويمكننا تخطي التفاصيل. وبدلًا من ذلك، سوف أصف بشكل موجز الجزء الأساسي من الحقائق المقبولة على نحو واسع لعرض فكرة عن القوى المحركة الرئيسية المستخدمة. وبعد وصفي المختصر سوف أنظر بمزيد من التفصيل على ما أعتقد حول استخدام العوامل الأكثر أهمية. وعند القيام بذلك، سوف أكشف عما أتخذه ليكون أكثر العناصر بروزًا من مجموعة من المصادر التي كتبت عن هذا الموضوع لصياغة قصة منفردة تضع الخطوط العامة حول تكوين وتطور مجتمع الشبكات. وسوف يكون هذا التحليل الموجز نقطة بداية مفيدة ستتضمن إطار عمل يساعد على تصور أشكال الجدل والتحليلات التي تدور حول الإعلام، والثقافة، والسياسة التي تحتويها بقية هذا الكتاب.

حقائق قليلة حول تاريخ الإنترنت ومجتمع الشبكات

ما نمر به اليوم مثل الإنترنت له أصوله خلال الحرب الباردة بالولايات المتحدة في بداية ستينيات القرن العشرين حيث فكرة «وكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة للدفاع» Defense

Advanced Research Projects Agency (DARPA). كان الهدف هو تطوير أنظمة المعلومات والتحكم والرقابة في الحاسب الآلي لمواجهة الهجوم النووي من قِبل الاتحاد السوفيتي. وكانت المشكلة أن أنظمة شبكات الحاسب الآلي كانت تستخدم في وقت كان الاعتماد فيه على الهندسة اللاكمية «النجم» topology التي من خلالها كان يعتمد الكثير من الآلات على الحاسب الآلي المركزي. وإذا هلك الحاسب الآلي المركزي، فإن الشبكة بأكملها سوف تنهار. وتم إنشاء تقنية جديدة تسمى «توزيع الحِزم» packet switching لتكون طريقة لتجنب مثل هذا الانهيار الكلي. وقد تم جعل «توزيع الحِزم» ممكنًا عبر ما يطلق عليه «بروتوكول التحكم في النقل» Transmission Control Protocol (TCP). ويقوم هذا النظام بتحويل الرسائل إلى أجزاء رقمية ـ «الحِزم» ـ يمكن أن ترسل بشكل فردي، عن طريق قنوات مختلفة إذا كانت هناك حاجة، إلى وجهتها حيث تتم إعادة تجميعها إلى الرسالة الأصلية. في النظرية، يمكن أن ترسل المعلومات حول الجزء التالف من النظام ليصل بشكل آمن إلى المتلقي المقصود، ليحفظ بذلك على وظيفة الشبكة.

مرة أخرى، يميل التاريخ الواقعي الناجم عن هذا التطور الجذري إلى التركيز على «الأبطال» الفرديين، في هذا الوقت من مجموعة مستخدمي الحاسب الآلي ذوي الذكاء الحاد الذين ملأوا معامل البحث. أتى هؤلاء ليس فقط من وكالات الدفاع بالولايات المتحدة، لكن أيضًا من الجامعات الكبرى. لقد كانت تقودهم التحديات الفكرية التي خطط لها جي. سي. آر «ليكليدر» Licklider في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» أكثر من أي حلم في «الحرب الباردة» ليفوق بذلك الشيوعيين دهاء. (أطلق الاتحاد السوفيتي القمر الصناعي الروسي Sputnik في الأوربيت، لتحمل استبداد حكومة الولايات المتحدة). باعتباره الأول بين الأكفاء داخل عالم نموذج مستخدمي الحاسب ذوي الذكاء الحاد، كتب «ليكليدر» سلسلة من المذكرات عام 1962 يناقش فيها ملاءمة «الشبكة المجرِّية» Galactic Network التي يمكن للناس من خلالها أن يقوموا بالاتصال عبر مجموعة من الحواسب الآلية متبادلة الاتصال. أصبح هذا مخططًا تفصيليًا للإنترنت. كان «ليكليدر» رجل «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا»، لكن حقيقة أن الإنترنت لديه منطقه الشامل الذي يرجع أصله إلى أوامر «وزارة الدفاع» تعد نقطة غير مهمة، وسوف ألتفت إليها الآن.

لكن لإيجاز الرواية الحالية: خلال معظم فترة الستينيات من القرن العشرين، داخل الجامعات أو معامل الدفاع Defense Labs، أو خلال التعاون بين كل منهما، ما كان ليتطور الإنترنت بنشاط. وبالمزيد من التفكير، فقد أدى كل من البحث والمزيد من التطور التكنولوجي عام 1969 إلى تأسيس «شبكة وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة» Advanced Research Project Agency Network (ARPANET)، شبكة الحاسب الآلي لوكالات البحث في حكومة الولايات المتحدة وفي مراكز البحث الكبرى بالجامعات مثل «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا»، و«هارفارد» Harvard، و«ستانفورد» Stanford. وقد بدأ كل هذا بـ «شبكة» (ترسل وتستقبل المعلومات) وتطور عبر بروتوكول التحكم في النقل اللامركزي. وفي عام 1972 شرحت شبكة وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة للجمهور قدراتها على استرجاع البيانات، والدخول إلى البيانات في الوقت الفعلي، والتعاون التفاعلي في «المؤتمر الدولي بشأن اتصالات الحاسب الآلي» International Conference on Computer Communication في واشنطن العاصمة. وكان قد تم إرسال أول بريد إلكتروني في عام 1972.

وفي عام 1974 قام كل من «فينتون كيرف» Vinton Cerf، و«بوب خان» Bob Khan بتصميم بروتوكول التحكم في النقل/ بروتوكول الإنترنت TCP /IP، لوضع البنية التي تطورت إلى الإنترنت كما نعرفه الآن. بدأت تطورات أخرى تحدث من جبهات أخرى، لتقدم حواسب متصلة بالشبكات وبالتالي يتنامى بشكل دائم أعداد المستخدمين خارج رابطة الجامعة العسكرية. وفي عام 1977 كتب طالبان من «شيكاغو»، «وارد كريستيانسين» Ward Christiansen، و«راندي سيويس» Randy Seuss برنامجًا أطلقا عليه «إكس إم أو دي إي إم» XMODEM الذي أتاح نقل الملفات من حاسب شخصي إلى آخر. وقد حفز تطوير برنامج XMODEM على إنتاج المزيد من الحواسب الشخصية، التي بدأت في أن تكون أكثر من أداة حاسوبية محترفة وكانت تقترب من أن تكون منتجًا استهلاكيًا عامًا. وفي عام 1977 كان هناك شيء من الهامش المطول في تاريخ مجتمع الشبكات. كان ذلك في تلك السنة التي اندمجت فيها شركة «كمبيوتر آبل»، عندما افتتحت «كمبيوتر لاند» ComputerLand مثل «كمبيوتر شاك» Computer Shack في «موريستاون» Morristown، بولاية «نيوچيرسي»، عندما قام كل من «بيل جيتس»، و«بول ألين» Paul Allen بالتوقيع

على اتفاق مشاركة لإنشاء « مايكروسوفت كامباني»، عندما تم نشر أول عدد لـ «پيرسونال كمپيوتر» Personal Computer (سميت بعد ذلك پي سي ماجازين PC Magazine)، وعندما أطلقت «كومودور بيزينيس ماشينز» Commodore Business Machines وسيط الإلكترونيات الشخصي PET (Personal Electronics Transactor) في «معرض ويست كوست للحواسب الآلية» West Coast Computer Fair (الافتتاحي). تضمن PET 6502 وحدة تشغيل مركزية، و4 كيلوبايت RAM، و14 كيلوبايت ROM، ولوحة مفاتيح، وشاشة عرض، ومشغل الأسطوانة ـ يبلغ كل هذا 600 دولار أمريكي. وفي عام 1978 تطور البريد الإلكتروني من حيث زيادته المحتومة والمقوتة حاليًا، والبريد العشوائي المجمع، عندما قررت «شركة ديجيتال إكويبمنت» Digital Equipment Corporation (DEC) إرسال «مذكرة» لكل زملائها في «شبكة وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة» حول يوم النشاط المفتوح القادم، عندما تكون كل حواسبها معروضة.

وكان التطور المهم التالي في قناة المعلومات الرئيسية يتمثل في تصميم برنامج يتيح لمستخدمي نظام التشغيل «يونيكس» UNIX توزيع ونسخ الملفات بين بعضهم البعض. وكان «يونيكس» برنامجًا لنظام تشغيل الحاسب الشخصي نظمته «مختبرات بيل» Bell Laboratories في عام 1974 والذي صممه المبرمجون لأنفسهم. وتم إطلاق برنامج لنقل الملفات بين أنظمة «يونيكس» المختلفة أطلق عليه Unix to Unix Copy (UUCP) في عام 1978 وأتاح إنشاء أعداد ضخمة من شبكات المعلومات والاتصال. بدأت هذه الشبكات في تشكيل الهيكل الأولي ـ «العمود الفقري» ـ للإنترنت. ورغم أن الحواسب الشخصية كانت قد بدأت في الانتشار، فإنه في معظم فترة الثمانينيات من القرن العشرين كان الإنترنت غير معروف إلى حد كبير. لقد كان مجالًا يستخدمه المتخصصون في صناعات الحاسب الآلي، وفي الجامعات، وفي المؤسسات الحكومية. وكان هؤلاء يستخدمون الشبكات المتنامية من أجل «شبكة المعلومات والاتصال»: ذلك من أجل المشاركة في المعلومات والأبحاث، لـ«وضع» الملاحظات على العدد المتنامي لـ (أنظمة لوحة النشرات Bulletin Board Systems BBS) ولتبادل الشائعات والآراء حول ـ على سبيل المثال ـ مواصفات «آبل ماكينتوش» Apple Macintosh الجديد (إصدار 1984) وما إذا كان مبلغ 2495 دولارًا أمريكيًّا كبيرًا للغاية بالنسبة له، أو ما إذا كان الجديد (إصدار 1985) لبرنامج

«واجهة المستخدم الرسومية (الجرافيكية)» الجديد Graphical User Interface (GUI) التابع لـ Windows 1.0 يمثل سرقة مخزية من شركة «آبل».

في فبراير عام 1990 أغلقت «شبكة وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة»، لتكون نظامًا قد بطل استعماله. ورغم ذلك، ظلت المعرفة بأنظمتها وبرامجها الإلكترونية، وبروتوكولاتها وإجراءاتها موجودة في الميدان العام (وكانت تجارية، في ذلك الوقت) بشكل قوي. علاوة على ذلك، تزامنت هذه الفترة مع تحرير صناعة الاتصالات عن بعد من القيود الحكومية في الولايات المتحدة. إن تحرير الصناعة ـ الذي اقترن بنمو حركة «الشعب» grass-roots التي طورتها شبكات المعلومات والاتصال ـ أتى بالإنترنت سريعًا إلى ما سمي بـ «التحول المرحلي». وكانت تلك نقطة من خلالها وصل نشاط شبكات المعلومات والاتصال إلى كتلة حرجة تتعلق بتطور الإنترنت الذي نعرفه اليوم. وتضمن هذا «التحول المرحلي» ظهور الكثير من «مقدِّم خدمة الإنترنت» Internet Services Providers (ISPs) الذين مكنوا مستخدمي الحواسب الآلية في أماكن العمل وفي المنازل من الاتصال بالإنترنت من خلال اتصال المودم الخاص بهم. وقد سمح هذا للإنترنت بأن يتوسع بطريقة غير منظمة ولا شكل لها، ليضيف ذلك أطرافًا جديدة في تركيبة لا نهائية لملاءمة احتياجات الأعداد المتزايدة بشكل سريع من المستخدمين الآن. وفي عام 1993، كان هناك حوالي ثلاثة ملايين مستخدم للإنترنت.

خلال هذه الفترة، أصبح عمل «تيم بيرنرز-لي» Tim Berners-Lee ـ مصمم البرامج الإلكترونية من «المنظمة الأوروبية للطاقة النووية» European Organization for Nuclear Research (CERN) في «جنيف» عامل حاسم في إتاحة الإنترنت للجميع. وفي الواقع، فإن موقع «المنظمة الأوروبية للطاقة النووية» يعلن عن نفسه اليوم «... من المكان الذي نشأ منه الموقع». وصمم «بيرنرز- لي» برنامجًا مكن المستخدم من إرسال واسترجاع المعلومات إلى ومن أي حاسب آخر متصل بالإنترنت، من خلال التطبيقات المألوفة حاليًا التي يطلق عليها «محدد المصادر الموحد» Uniform Resource Locator URL، و«بروتوكول نقل النص التشعبي الفائق» Hypertext Transfer Protocol (HTTP)، و«لغة ترميز النص التشعبي الفائق» Hypertext Markup Language (HTML). وفي عام 1991 قام كل من «بيرنرز- لي»، و«روبرت كيليو» Robert Cailliau ـ زميل «المنظمة الأوروبية للطاقة النووية» ـ بتطوير برنامج لتصفح

الإنترنت الذي أتاح للنص أن يكون متصلًا (من خلال ما قاما بتسميته نص الإنترنت) بمعلومات إضافية ذات إسناد ترافقي على الإنترنت. وقد أطلقا على النظام World-Wide Web (WWW). وبدأت القوة التجارية للإنترنت (وWWW) في الظهور، وبدأت الأشياء الآن في التغير بسرعة حيث الحرية المطلقة والسوق الحرة اللتان تتميز بهما روح فترة التسعينيات من القرن العشرين.

في عام 1992، قام رجل/ مبرمج/ بطل آخر يدعى «مارك أندريسين» Marc Andreesen برنامج «موزاييك» Mosaic، وهو برنامج (متصفح للإنترنت) كان يدعم تطبيقات نصوص الإنترنت التي صممها «بيرنرز- لي». ومن بين أشياء أخرى أتاح برنامج «موزايك» ظهور كل من النصوص والصور على نفس الشاشة. وهكذا، ربما يمكن للشخص أن يدرك التفاعل و«الشعور» بالإنترنت متمثلًا ذلك في التغير المفاجئ في النظرة. وبصورة حاسمة، كان يمكن للبرنامج الإلكتروني أن ينقل البيانات والملفات مجانًا من الإنترنت، وبالتالي بدأ الملايين في الاتصال المباشر بشبكة الإنترنت ومشاهدة كل ما كانت تثار حوله الضجة. وبعد ذلك بعامين ظهرت النسخة المعدلة من «موزاييك» - أعيد تسميته «نيتسكيب» Netscape. مرة أخرى، كان ذلك مجانًا للمستخدمين وبحلول عام 1996 احتل البرنامج 75 في المائة من السوق. واشتركت «مايكروسوفت» بشكل متأخر في لعبة الإنترنت بطريقة جادة خلال عام 1995 مع طرح «ويندوز 95» الذي يحتوي على متصفح مجاني - مستكشف الإنترنت Internet Explorer - كجزء من مجموعة الوظائف. وتأثرًا بالإسراف العالمي لـ «ويندوز 95» (حصل ميك چاجر وشركاه Mick Jagger and Co. كما يقال على مبلغ 12 مليون دولار من مايكروسوفت لبيع حقوق أغنيتهم «اجعلني أبدأ من جديد» Start Me Up)، فإن عدد المستخدمين المتصلين بالإنترنت قد تصاعد إلى حوالي 15 مليونًا. وقد بدأ التحول المرحلي بجدية فيما أسماه «كاستيلز» «... المغامرة الإنسانية الاستثنائية» (2001: 9). وهكذا فقد شهدت فترة التسعينيات من القرن العشرين «انفجار» الإنترنت، وثورة الشركات المعتمدة في أعمالها على الإنترنت، وشبكات المعلومات والاتصال المنتشرة في كل مكان. وقام كل هذا بسرعة داخل مداره بربط مجالات الصناعة، والتعليم، والتسلية، والحياة المنزلية داخل الشبكة، مما جعلنا نبدأ عند النقطة التي نحن عليها اليوم - انغماس الأفراد والجماهير داخل منطق تكنولوچيات المعلومات والاتصال.

ملاحظة 2: طريقة للتفكير في شبكات المعلومات والاتصال (ليس فقط الإنترنت)

يعد ما سبق ملخصًا لكنه مفيد فيما يتعلق بالإنترنت ومجتمع الشبكات. فهو شيء جيد إلى أبعد حد. لكن تعد هذه هي الخطوة الأولى. كيف يجب على الشخص أن يفكر في «الثورة الرقمية»؟ كيف يشكل الشخص مفهومًا حول الانتشار الشامل والواضح لتكنولوچيات المعلومات والاتصال؟ كيف يجب أن ننظر إلى أسلوبنا التسارعي بشكل مستمر في الحياة؟ كيف نحكم على الادعاءات بأن تكنولوچيات المعلومات والاتصال جعلت حياتنا أكثر كفاءة، وأكثر ملاءمة، وأكثر «اتصالًا»؟ ما أريد القيام به هنا هو الانخراط بعض الشيء في «التفكير المجسم ثلاثي الأبعاد» الذي ينسب إلى «چيمسون»، لتحديد ما هو واضح وذو معنى في معظم افتراضاتنا عن مجتمع الشبكات. هذا للانخراط في التفكير الجدلي، والانخراط في النقد: للتفكير، والتفكير مليًّا، وجلب القوى المحركة المثبتة بعمق حتى السطح من أجل تحليل وفهم أفضل، وفي النهاية من أجل نوع من التحكم في النتائج.

يبدو لي أننا يمكننا تحديد أربع قوى محركة رئيسية أو «أعمدة» متصلة تبادليًّا تكون واضحة لمساعدتنا في التفكير بشأن كيفية معيشتنا في مجتمع الشبكات وبالتالي تمكيننا من توجيه أنفسنا بصورة أكثر فاعلية داخله. لقد أطلقت على كل هذا «التكنولوچيا الرقمية»، و«الرأسمالية الرقمية»، و«العولمة الرقمية»، و«التسارع الرقمي». وتبعًا لذلك سوف يناقش كل ذلك.

التكنولوچيا الرقمية

عندما نفكر في تكنولوچيات المعلومات والاتصال، فإننا نميل إلى التفكير في الصناعة ذاتها: «هيئة» «آي ماك» iMac الجديد، و«فهم» آخر نموذج لجهاز PDA من نوع «بلاكبيري» Blackberry أو حجم التصميم الجديد للهاتف المحمول «نوكيا». نحن أيضًا ـ والكلام هنا بشكل عام ـ نرجع للجماليات في الماضي للأخذ في الاعتبار فوائدها أيضًا (ونتيجة لذلك، فنحن ندفع الأموال من أجل ذلك). «هل يمكن للهاتف المحمول أن يتلقى ويرسل البريد الإلكتروني؟» «إلى أي مدى تعد رسومات الڤيديو جيدة»؟ هل يسمح لي الحاسب الآلي بتشغيل

البيانات المحملة إلى MP3 وMPEGS من خلاله؟ «إلى أي مدى تعد رسومات الإنترنت جيدة بالنسبة لجهاز PDA؟. هناك أيضًا عامل «مهم» يجب أخذه في الاعتبار. تخبرنا الإعلانات التي لا حصر لها الآن، بشكل ضمني أو بشكل واضح، بأن هذه أو تلك الآلة الجديدة سوف تجعلنا محبوبين أو جذابين جنسيًّا، حيث إنه من خلال مكاسبها واستخدامها سوف نشعر بالتفوق والثقة بالنفس و«الاتصال» وإننا نقف عند نقطة التقاء موجة التكنولوچيا.

ونحن لا ندرك غالبًا التكنولوچيا في ذاتها: تاريخها، أو ما يطلق عليه «ماك كينزي» McKenzie و«واچكمان» Wajcman (1999) «تشكيلها الاجتماعي»، أو استخداماتها التي «تحدد موقعنا» داخل المجتمع. وعندما نقدم للتكنولوچيا أي فكرة على الإطلاق، نميل إلى التفكير فيها كشيء محايد. رغم ذلك، يرى «نيل پوستمان» Neil Postman ـ في كتابه «**التكنولوچيا**» Technology عام 1993 ـ أن التكنولوچيا تأتي مع قيمها الخاصة بها، «**الأيديولوچية المُحكمة**» الخاصة بها. وقد كتب (1993: 13) بأنها «مهيمنة في كل وسيلة على نحو يمثّل اتجاهًا أيديولوچيًّا، وميلًا فطريًّا نحو بناء العالم كشيء واحد بدلًا من اثنين، لتعظيم شيء على آخر ...». بمعنى آخر، نحن ندرك العالم من خلال الآلات والتكنولوچيات التي نستخدمها. يعد «الميل الفطري» مصطلح مهم. ومن الممكن أن تقوم تأثيرات التكنولوچيا الشخصية على المستوى الفردي (البندقية، السكين، الهاتف المحمول) بإعداد أو وضع قواعد صارمة وسريعة . ورغم ذلك، فإن أنظمة التكنولوچيا والتقنية ربما يتم أدراكها مسبقًا (لا تجبرنا) على التصرف بطريقة معينة. وكان «چاكويس إلول» Jacques Ellul واضع نظرية التكنولوچيا يرى في كتابه «**الخدعة التكنولوچية**» Technological Bluff، أن «التطور[ات] التقنية لا [تعد] شيئًا جيدًا أو سيئًا أو محايدًا» (1990: 37) لكنها ـ تعمل كجزء من النظام ـ تخلق البيئات التكنولوچية والأيديولوچية التي تقيدنا أو «تجعلنا نتجه» للتصرف بطريقة معينة. ولقد شهدنا كيف أن الإنترنت وبالتالي مجتمع الشبكات الذي نعيش فيه له جذوره في الفكر الإستراتيچي للحرب الباردة. ولم يصبح هذا له علاقة بالموضوع من خلال تسهيل ونشر الاستخدامات غير العسكرية. وفي الواقع، يصر كل من «كيڤين روبينز» Kevin Robins و«فرانك ويبستر» Frank Webster ـ في كتابهما «**عصور الثقافة التكنولوچية**» Times of the Technoculture على أن «المصادر العسكرية لثورة المعلومات تظل متعلقة بالموضوع ومؤثرة» (1999: 150). ويرى المؤلفون أن هذه المصادر

العسكرية كانت معتمدة على «... منطق التحكم والسيطرة» ـ التحكم في تدفق المعلومات، والسيطرة على الخصم (1999: 150). علاوة على ذلك، يعد المنطق الرقمي ـ منطق التقنية ـ واحدًا من العناصر العقلانية والمفيدة في مجال الاتصالات: وذلك يمثل الآلية المبسطة والموجهة الهدف، التي تمنع حدوث «الخطأ البشري». كان المنطق ولا يزال مصممًا بشكل خاص للقضاء على عامل الخطأ البشري بقدر الإمكان. ويعد الخطأ البشري ـ في الحرب أو في الإنتاج الرأسمالي ـ مكلفًا. وأخيرًا ـ ورغم ذلك ـ فإن التكلفة غالبًا ما يعاني منها البشر أنفسهم (الجنود ـ المدنيون والعمال) من خلال الإصابة والوفاة والبطالة.

يعد مجتمع الشبكات محكمًا بطريقة أكثر عمومية مع المنطق العسكري ـ الصناعي للتحكم والعقلانية والاستفادة والسيطرة. وفي الواقع، فإن الكثير من علماء الحاسب الآلي والمبرمجين ومهندسي البرامج الإلكترونية ـ في الولايات المتحدة على وجه التحديد ـ اكتسبوا خبرتهم في الجيش، للاستمرار في الوظائف بالقطاع الخاص الذي في مرحلة النشوء (كامپيل Campbell ـ كيلي Kelly 2003). ورغم ذلك، فإنه من أجل القبول والشرعية بشكل عام، فلا بد أن تمحى تأثيرات المجال العسكري. وهذا يعني أن هذه العناصر قد أضيفت إلى الألوان الأساسية البراقة لـ «التقدم» و«الحرية» و«الكفاءة». ونحن نميل إلى ملاحظة «فائدة» و«جمال» تكنولوچيات المعلومات والاتصال ـ وفي الأساس ـ يخبرنا الإعلام (أغلبه يعمل على نفس المنطق وبنفس التكنولوچيات) بأن هذا هو المهم. والواضح بشكل علني في التكنولوچيا أن المنطق المحكم الأساسي للغة الثنائية (التشغيل ـ التوقف، و نعم ـ لا) الخاصة بعملية إدخال الحواسب الآلية لاستخدامها في إجراء العمليات المختلفة ـ مثل الجيش في حد ذاته ـ يميل إلى أن يكون قاسيًا، ومانعًا للطرق الأخرى للمشاهدة، والطرق الأخرى للتفكير، والطرق الأخرى للتواجد. لذلك فإن القوة تعد هي الأيديولوچيا التي تضع قناعًا على هذا – رغم أننا (غالبًا) مستعدون لتهيئة أنفسنا لذلك.

لا بد أن أوضح هنا أن هذه المناقشة حول **«مذهب الحتمية التكنولوچية» technological determinism** الذي من خلاله ـ حيث تدور المناقشة ـ تجبر التكنولوچيات في حد ذاتها الناس على التصرف بشكل معين. وما أحاول أن أنقله هنا هو أننا إذا جعلنا تكنولوچيات المعلومات والاتصال واضحة ـ بعرضها للنقد ـ فإن ما نكتشفه هو «الحتمية التكنولوچية». ومن ثم، فإن

الأغلبية الأيديولوچية لرأسمالية الليبرالية الجديدة ـ مع تكنولوچيا المعلومات والاتصال في جوهرها ـ تسمح لها بتقديم نفسها كحقيقة ممكنة فقط. وعلاوة على ذلك ـ حيث إن المذهب الحتمي التكنولوچي يفترض مسبقًا الإجبار ـ فإن المذهب الحتمي الأيديولوچي في هذا الاقتراح يعمل على الجانب المقابل ـ ذلك بشأن الرغبة. ويسأل شعار «مايكروسوفت»: «إلى أين تريد أن تذهب اليوم؟ ـ كما لو أن «مايكروسوفت» ليست لديها فكرة جيدة جدًّا حول بماذا تبدأ كما يذكر «لانجدون وينر» Langdon Winner (1997 : 48)، أحد واضعي النظريات المهمين حول التكنولوچيا والمجتمع:

> **ولكل هذا فإن الاستعداد للانتظار بشكل سلبي بينما تأخذ ثورة الحاسب الآلي مسارها، يكف مذهب الحتمية التكنولوچية عن أن يصبح مثاليًّا، وهي رغبة لاحتواء الظروف التي سببها التغير التكنولوچي دون الحكم عليها مسبقًا.**

إن السلبية التي يتحدث عنها «وينر» بشأن الأصول ليست من التكنولوچيا، لكنها من الأيديولوچيا، «النموذج». ورغم ذلك، فلكي تعمل الأيديولوچيات فإنها لا بد أن تحتوي على جوهر الحقيقة، وهي ومضة من الإدراك الذي يصنع الاقتراح، وهو و«الفكرة»، اللذان يبديان في رؤوس الناس. وبالتالي فإن ذلك يكون مع تكنولوچيا المعلومات والاتصال. وتعد حقيقة أن الإنترنت ومجتمع الشبكات الذي يساعد في عملية المساندة يمكن أن يكونا مكانًا حيث يمكن أن يكون الاتصال السريع والفعال مفيدًا في كل أنواع الطرق الأساسية. وتعد حقيقة ـ أيضًا ـ كما سأناقش في نهاية الفصل، أنه يمكن للناس أن يقوموا باستخدام تكنولوچيا المعلومات والاتصال لإفساد الأيديولوچيا المسيطرة. علاوة على ذلك، يمكن للمستخدمين أن يكونوا مبتكرين بشكل كبير داخل مجتمع الشبكات، وفي الفن، وفي الموسيقى، وفي التصميم، وفي الأدب، إلى آخره. ورغم ذلك، أعتقد أن معظم هذه الابتكارات، وهذا الإبداع، وهذا الإفساد يحدث داخل حدود منطق محدد، وداخل قيود ثنائية وخطية لتكنولوچيا المعلومات والاتصال نفسها.

وكما يذكر «تيري إيجليتون» Terry Eagleton، لا يمكننا أن نفصل الأيديولوچيات الناجحة عن قضايا القوة ـ والقوة تعمل بشكل أفضل عندما لا تكون واضحة وعندما تتطلب ـ في الواقع ـ «درجة من الذكاء والمبادرة من الأشخاص» (1991: 46). وبالتالي فإنه من المهم القدرة

على التفكير خارج حدود تكنولوچيا المعلومات والاتصال، للنظر بعيدًا عن الإنتاج الصناعي المباشر وفوائده. وقد كتب «ريموند ويليامز» أنه:

> تعد التكنولوچيا الحديثة ذاتها منتجًا لنظام اجتماعي خاص، وسوف تتطور كعملية مستقلة بصورة واضحة للتجديد من أجل فقط المدى الذي نفشل في تحديده وتحدي قواه الفعلية.
>
> (1974: 135)

وقد عبر «براين وينستون» Brian Winston عن أفكار مشابهة بعد ذلك مع مصطلح «الضرورة الطارئة» (1998: 147). وهذا يمثل تأوج نظام القوى الاجتماعية (السياسية، والأيديولوچية، والاقتصادية) التي تخلق الظروف، والبيئة، التي «تتيح» للتكنولوچيا لأن تأتي إلى حيز الوجود. إن تحديد القوى وتوضيح القوى الطارئة وراء صناعة الإنترنت، ومجتمع الشبكات يظل التحدي الرئيسي حيث شرعنا في العمل خلال القرن الحادي والعشرين. إن التكنولوچيا لا تشكل البشر في طريق واحد، نشاط حتمي. إنها ـ كما يشير «ويليامز» ـ «نتيجة نظام اجتماعي خاص». وبالحديث من منطلق التكنولوچيا، فإن نظامنا الاجتماعي اليوم ـ كما أعتقد ـ رغم استمراريته من العصر ما قبل الرقمي ـ يعد واحدًا من الأنظمة الفريدة تاريخيًّا وتفصيليًّا. ولم تنتشر تكنولوچيا أخرى في المجتمع حتى ذلك المدى، وبهذه السرعة، متخللة كل صناعة، بينما تنشأ صناعات جديدة في نفس الوقت. علاوة على ذلك، تدخل ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال في إطار غياب أي نظرة عالمية متوازنة بشكل مقبول ظاهريًّا. وهذا يجعل أيديولوچية الرأسمالية الليبرالية الجديدة مقنعة وأكثر قوة. وتكون النتيجة أن التكنولوچيات الرأسمالية ـ بشكل واضح وجلي ـ تصبح الشكل الوحيد لـ «التقدم» الملموس. ولأني فقط أقوم هنا بالمناقشة، فإن هذا لا يبدو على السطح أنه استبداد، ويبدو مرغوبًا فيه، وكان مطلوبًا منا أن نشارك، وحتى أن نستخدم مبادرتنا وذكاءنا. إلى أي مدى يصنع الاستبداد هيئة iMac؟ وإلى أي مدى كان القمع في آخر لعبة پلاي ستيشان أو مشغل MP3 الشخصي.

الرأسمالية الرقمية

يمكننا أن نبدأ مباشرة مع ما نعتقد أنه لا مفر منه، رغم أنه من الممكن ألا يكون حقيقة

واضحة: حيث لا يوجد هناك الإنترنت أو مجتمع الشبكات (كما نعرفه) دون رأسمالية. هنا يمكن القول، إنه بدون قيام عمل ضخم لدفع طريقنا نحو الأسباب التي لديها القليل لتعمل مع «الحرية»، أو «الابتكار»، أو «الكفاءة» الشخصية ولديها الكثير مع حرية العمل لاستخدام كفاءة الشبكات من أجل الشراء منها بطرق فعالة ومربحة إلى أبعد الحدود. ولن يكون هناك إنترنت أو مجتمع شبكات دون أن تدعمه الرأسمالية المتحدة (وأن يتم احتواؤه حتى مستوى مكتب البريد المحلي القريب من منزلك) لتكون الطريقة الأكثر فاعلية للعمل «بكفاءة» و«إنتاجية» بشكل أكبر.

إن حصيلة التوتر بين المنطق الصناعي المعقد للجيش في مجتمع الشبكات والمطورين المساعدين ذوي الفكر الحر في الجامعات وفي المختبرات العلمية كانت دائمًا ـ باستعادة الذكريات ـ غير عقلانية. وبتناول هذه النقطة ـ رغم ذلك ـ فقد شهدت تغيرًا كبيرًا في الطريقة التي من خلالها يتم تنظيم الرأسمالية، وقد شهدت تحولًا كبيرًا في كيفية تنظيم الناس لأوقات عملهم وفراغهم (أو بصورة أدق تم تنظيمها لهم)، وشهدت تضخم وتدفق ثورة شركات التجارة الإلكترونية الضخمة والمخاطرة. وليس معنى هذا أن الاستعمار والتعديل اللاحق والكبير لعالم الإنترنت في الصورة الخاصة بالرأسمالية كان لها نتائج سلبية وإيجابية. وكما ذكرت الآن، فإن الفوائد المادية التي تراكمت للكثيرين في الدول المتقدمة حقيقية. والنقطة هي المدى الذي عنده يكون التفوق التكنولوجي والهيمنة الأيديولوجية في جانب الأعمال الضخمة. والشيء المهم هنا ـ ما يحتاج إلى توضيح كما يرى «إلين ميكسينز ـ وود» Ellen Meiksins–Wood ـ هو المدى الذي يعمل عنده هذا ضد احتمالات من أجل استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والإنترنت، ومجتمع الشبكات بطرق أكثر ابتكارًا وإيجابية اجتماعيًا وبيئيًا ـ وليس في مجالات الإنتاج والاستهلاك (1998: 162).

كما رأينا، تطور الإنترنت من الستينيات حتى التسعينيات من القرن العشرين تمامًا وبشكل بطيء نسبيًا في مختبرات الدفاع، وفي شبكات الحاسب الآلي بالجامعات، وحديثًا في أقسام البحث بشركات الحاسب الآلي والاتصال عن بعد. ورغم ذلك، فإنه بعيدًا عن المختبرات وشبكات الحاسب الآلي بالجامعات خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين كانت الثورة مستمرة، الثورة التي شهدت إعادة هيكلة الطرق التي من خلالها يتم تنظيم الرأسمالية. وكان

«نمط الإنتاج» الذي وصف الرأسمالية ـ بشكل خاص منذ عام 1945 ـ يمثل مذهب الإنتاج الضخم Fordism. وينبثق المصطلح من اسم «هنري فورد» Henry Ford، صاحب مصانع السيارات في الولايات المتحدة والمتحكم المطلق والذي كانت مصانعه تقوم بإنتاج سيارة «موديل تي» Model T المستحدثة. وكانت عبارته الشهيرة «أية لون تفضله ما دام الأسود»، وقد عبر هذا كثيراً عن الذي يدور حوله مجتمع الإنتاج الضخم. كان الإنتاج الضخم نمط الإنتاج المستند إلى الخطوط الإنتاجية الطويلة، التي تصنع سلعًا معيارية للاستهلاك الضخم. وقد أتى ذلك مؤخرًا للإشارة إلى ما أسماه «هنري هارفي» (1989) «الأسلوب الكامل للحياة»، الذي من خلاله يؤدي التخطيط للإنتاج الضخم من أجل الاستهلاك إلى التخطيط لتكوين تكتلات كبيرة في الاقتصاد. وكان يطلق على هذا الاقتصاد «الموجه» أو «المختلط» وكان يمثل المبدأ المنظِم لديمقراطيات ما بعد الحرب. بذلك، كان السوق محصورًا في الدور التابع فيما كانت تراه (الحكومة) «القطاعات الرائدة» للاقتصاد، وهي قطاعات مثل الصلب، والهندسة الثقيلة، وبناء السفن، والصناعة واسعة النطاق وما إلى ذلك. وكان يتم تخطيط وإدارة الاقتصاد من خلال التعاون بين العمالة المنظمة، والشركات الضخمة، والحكومة. وبحلول عام 1973، ضرب «الإنتاج الضخم» بشدة. كانت الاقتصاديات الغربية في أزمة اقتصادية عميقة وبدأت «الشراكة» بين العمالة والشركات والحكومة في الانهيار. وقد لام «مؤيدو الليبرالية الجديدة» الناشئة هذا الظرف الصعب في كل من الاتحادات القوية والحكومة «البيروقراطية» «المتدخلة». وكان وقتها يقوم الاقتصاديون مؤيدو السوق الموجه الذين تم تجاهلهم طويلًا مثل «ميلتون فريدمان» Milton Freidman، و«فريدريك هايك» Freidrich Hayek بقضاء يومهم في الشمس. إن أفكارهم حول تحرير السوق تخترق كل أوجه المجتمع، مع «يده الخفية» لـ «الكفاءة» و«التوازن» المزعومين اللذين تناولهما السياسيون الأقوياء مثل «رونالد ريجان» Ronald Reagan و«مارجريت تاتشر» Margaret Thatcher، وبدؤوا في تغيير العالم.

وكان العنصر الرئيسي في هذا يتمثل في عملية شاملة لـ «تحرير التجارة»، أو «قرار قوى السوق الحر» الذي يمثل طبيعة وهدف الإنتاج، والاستهلاك، والأجور، وكفاءة الصناعات وما إلى ذلك. واعتبرت تكنولوجيا المعلومات والاتصال المتقدمة عاملًا حاسمًا في الانتقال إلى «المرونة» الناتجة عن السوق الضخم وبدأت بالتالي الحاسبات الآلية والأنظمة الأتوماتيكية

في الدخول إلى المرونة الخاصة بها. سابقًا، تدخلت النقابات والحكومات لتبطئ من إنتاج تكنولوچيا المعلومات والاتصال، لأنها في طريقها إلى أن «تحل محل» الوظائف. بالرغم من تنامي قوة الليبرالية الجديدة والانحدار الشديد لقوة الاتحاد المنظم، مقترنًا برفض الحكومة المتزايد للاشتراك في إدارة الاقتصاد، كان يعني أن إزالة ما أطلق عليه «مؤيدو أيديولوچية» السوق الحر بـ «أشكال الصلابة» في الاقتصاد يمكن أن يتواصل. وفقًا لذلك، فمنذ نهاية السبعينيات من القرن العشرين وفيما بعدها أخذ كل من التحول إلى النظام الإلكتروني، وتطبيق الإدارة الإلكترونية، وإدخال المرونة على الإنتاج الرأسمالي مجراه في نمط شامل وسريع. ويمثل هذا جزءًا مما يطلق عليه «كاستيلز» «تحول العمل والعمالة» في ديمقراطيات «منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي» Organization for Economic Cooperation and Development (OECD). وشاركت هذه العوامل في التغيير بعيدًا عن الصناعات القديمة التابعة لنظام السوق الضخم التي كانت تصنع «الأشياء»، نحو اقتصاد «معتمد على الخدمة». وقامت أيضًا بحل ملايين الوظائف «القديمة» وخلقت الكثير من الوظائف الجديدة في «الصناعات والخدمات المعتمدة على المعرفة» التي انسجمت تمامًا مع طاقات وقدرات تكنولوچيا المعلومات والاتصال (كاستيلز 1996: 79 – 201).

وكما يذكر «دان شيلر» Dan Schiller، إن «إعادة البناء المشترك فيما يتعلق بالشبكات لم يكن محصورًا في أي قطاع لكنه كان اقتصادًا شاملًا» (1999: 13). إن هذا التحول الخاص بـ «الاقتصاد الشامل» من خلال إدخال الحواسب الآلية من أجل إجراء العمليات المختلفة، والعمل في نطاق الشبكات، وتطبيق الإدارة الإلكترونية هو ما جعل ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال مستحدثة تمامًا. تمتلك تكنولوچيا المعلومات والاتصال ما يسمى خواص «التمكين» بما يعني أنها يمكن تطبيقها خلال كل الصناعات تقريبًا، لتقوم بتحويل تلك الصناعات وجعلها معتمدة على تكنولوچيا المعلومات والاتصال في نظام قصير للغاية. على سبيل المثال، كان كل من محرك البخار والتلغراف تكنولوچيات مستحدثة بالفعل، لكن كانت هناك عقود قبل أن تتغلغل تأثيراتها داخل المجتمع بصورة أكثر عمومية. وقد أصبحت ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال ـ خلافًا لذلك ـ واسعة وسريعة الانتشار. علاوة على ذلك، فإن منطقها يرى أن الاتصال المتبادل عبر الشبكات يخلق الحاجة إلى المزيد من الاتصال المتبادل عبر الشبكات،

من خلال المزيد والمزيد من القطاعات الاقتصادية، مما يجلب المزيد من الصناعات، والمزيد من الأعمال، والمزيد من الناس الخاضعين لنظامها الرقمي.

كان استخدام الحاسب الآلي وتكنولوچيا الشبكات قد أصبح متاحًا، وبدأت المشروعات المتوسطة والضخمة بسرعة في تحويل عملياتها الخاصة إلى النظام الأتوماتيكي وربطها بالشبكات مثل الصناعة، والإدارة، والإعلان، وتدفقات المعلومات، إلخ. وكانت تسمى هذه الشبكات الداخلية بالإنترانت intranets[1]. ورغم ذلك، فلا بد أن تتنافس الشركات مع المنافسين في السوق، ولا بد أيضًا أن تتعاون مع الموردين، والعملاء، والشركاء في مشروعات مشتركة. وكانت شبكات الربط بين الأعمال عاملًا مهمًا في تعميق وتوسيع عملية صناعة الشبكات بشكل عام. وقد تغير مسار التوسع في الشبكات، والحافز لتطوير التكنولوچيات الحديثة للشبكات، وذلك من خلال ما أطلق عليه إكسترانت Extranets[2]، كما كتب «شيلر» (1999: 17).

> ... أتاح للشركات للتوسع في أنشطتها المحجوبة عن طريق الارتباط بالمشاركين. وكان آخر ما توصلت إليه تطبيقات الشبكات (بالصوت والڤيديو) قد استخدم أيضًا داخل الأنظمة المتعاونة الداخلية، وذلك قبل ظهورها في الإنترنت المفتوح.

وبالنسبة للأعمال، يمثل التجسيد المنطقي لهذا التطور ما أصبحنا نسميه «التجارة الإلكترونية» e-commerce. رغم ذلك، يرى «توماس فرانك» Thomas Frank (2000)، في كتابه «روح العصر» zeitgeist في التسعينيات من القرن العشرين، أن الكثير من المديرين التنفيذيين قد بدأوا يؤمنون كثيرًا بإفراطهم فيما يتعلق بإمكانيات الأعمال في الإنترنت. كان كل شيء ممكنًا من خلال الإنترنت، وكان يُزعم، أن الكثير من كل ذلك كان يعتمد بشكل واضح على إلغاء «العنصر البشري». وتحمس المستثمرون بشكل مبالغ فيه لفكرة إلغاء فاتورة الأجور. وكان يعني هذا المزيد من الربح في الأعمال، وبالتالي كل أنواع البرامج التي كانت تمثل أفكارًا خيالية مما صور للملايين من العملاء دائمي الجلوس خلف الحاسب الآلي الذين كانوا يطالبون بشدة باستخدام

(1) الإنترانت: تعني استخدام البرامج وغيرها من التكنولوچيات التي تم تطويرها على الإنترنت في الشبكات الداخلية الخاصة بالشركات، حيث إن نفس التكنولوچيا التي تقوم عليها شبكة الويب العالمية يمكن أن تستخدم على شبكة داخلية لبناء شبكة ويب في المؤسسة تعرض المستندات الداخلية بشكل مألوف وسهل الاستخدام وغير مكلف.

(2) إكسترانت: تمثل امتداد شبكة إنترانت الداخلية إلى ما وراء الحدود المألوفة للشركة لتشمل كبار العملاء والموردين.

الإنترنت في كل شيء من البيتزا والأسطوانات المضغوطة إلى السيارات والمنازل. وكان الشارع الرئيسي - كما تخيل المؤيدون الأكثر تحمسًا (أو الذين حفزوا الآخرين ليتخيلوا) - في طريقه إلى أن تحل محله قناة المعلومات الرئيسية، وسوف يصبح المركز التجاري للتسوق شيئًا من الماضي - الشذوذ الحقير، التأثير المرعب من استهلاك التكنولوجيا المنخفض. في نفس الوقت، بدأت الثورة الاقتصادية للإنترنت في التضخم بشكل خطير، وقد حاول معظمها جاهدًا في الحصول على دعم من خلال الاتصال بين محللي «وول ستريت» Wall Street، و«أباطرة» الإنترنت، ومدعمي الصناعة، وسذاجة المديرين التنفيذيين التي لا يمكن إغفالها، وحاملي الأسهم (فرانك 2000).

تأسس موقع Amazon.com عام 1994 كمنفذ لبيع الكتب عن طريق الإنترنت ثم أصبح بداية أصلية للإنترنت ونموذج أولي لـ «الاقتصاد الجديد». وكان تأثير الإنترنت يعني أن الأعمال بدأ تطبيقها بشكل جيد في الدول المتقدمة، وكانت الأرباح تتصاعد وانتعشت أسواق الأسهم. وتم تحويل المال الزائد بما أطلق عليه «آلان جرينسپان» Alan Greenspan - رئيس مجلس إدارة «لجنة الاحتياط الفيدرالية» Federal Reserve Board - سوق الأسهم «الضخم بصورة معقولة» irrationally exuberant إلى عشرة آلاف شركة تجارة إلكترونية مختلفة مع خمسين ألف فكرة مختلفة متوقدة الحماس وجالبة للكثير من الأموال. وكانت أيضًا مجموعة «واناب بيل جيتسيز» الذين دعموا المستثمرين «الفعليين» من خلال شيء ما في طريقه إلى أن يكون ضخمًا مثل «مايكروسوفت» التي كانت لديها وفرة في العرض في ذلك العقد المذهل.

يسجل التاريخ أن الأمور لم تتضح في «وول ستريت» وغرف اجتماعات مجالس الإدارة عبر العالم تمامًا كما كان يعتقد. ولا يزال موقع Amazon.com معنا وقد تمت إدارته من أجل زيادة الربح لأول مرة في عام 2002 (خمسة ملايين دولار في المتوسط). لكن الكثير جدًا من الآخرين قاموا بتبديد أموال حاملي الأسهم في المضاربة وهم في طريقهم إلى الإفلاس والانهيار بينما لم يؤثر ظهور التجارة الإلكترونية على الجمهور بشكل عام. وكان www.boo.com - موقع تجارة الموضة بالتجزئة الذي يرأسه زوجان سويديان لم يكن لديهما خطة عمل موضوعة أو خبرة عن الإنترنت - دليل على حماقة ثورة التجارة الإلكترونية، فقد كان مجرد مجال ليس له صدى ويعمل به كثير من المستثمرين الساذجين. وفي عامي 1999/ 2000 قام www.boo.com بتبديد ما يزيد على مائة مليون جنيه دون فائدة خلال ستة أشهر قبل أن يعلن إفلاسه (لي Lee 2000).

ويتزامن مع ظهور ثورة الإنترنت المجهود الضخم والناجح بشكل كبير خلال تسعينيات القرن العشرين وبداية العقد الأول من الألفية الثانية لتقديم خدمة الإنترنت إلى الناس. ولإنجاز عمل التجارة الإلكترونية، كان لا بد للمستهلكين الوصول إلى مدخل سهل وغير مكلف لشبكة الإنترنت.

وهكذا فإن الحافز لعمل شبكات اتصال ومعلومات كجزء من الحيـــاة اليومية والتي بدأت في العمل بجدية أصبح أقل تكلفة وأكثر ملاءمة قرابة الشهر. ووصلت المنافسة على إمكانية إضافة مستهلكين داخل الإنترنت إلى مســـتوى جديد مع انطلاق Freeserve.com الخاص بـ «مقدّم خدمة الإنترنت» Internet service provider ISP حيث يسمح للناس ـ فيما يتعلق بالمكالمة الهاتفية المحلية ـ بأن يكونوا على الإنترنت مباشرة، ويتصفحون، وينفقون، وينفقون، وينفقون، كما كان يتمنى أصحاب المواقع! مرة أخرى، فقد صعد عدد من مستخدمي الإنترنت، يتزايدون سنة بعد سنة ليصلوا إلى 530 مليون مستخدم في عام 2001، إلى جانب توقع 1.1 بليون في عام 2005 (الدليل السنوي لصناعة الكمبيوتر 2002 Computer Industry Almanac).

لم تتخذ هيئة المحلفين قرارها بعد بشأن ما إذا كانت التجارة الإلكترونية تمثل موجة المستقبل، رغم إنفاق ملايين الدولارات وإيجاد عشرات الآلاف من الوظائف ـ فقط لكي تتبخر دون جدوى خلال القليل من السنوات المجنونة محاولة لإدخالها في حيز التنفيذ. رغم ذلك، فإن مجتمع الشبكات يتنامى بمعدل سرعة العقدة ولا تقوم بيانات مستخدمي الإنترنت قليلي الخبرة برسم الصورة كاملة. ويعيش الآن الملايين في مجتمع الشبكات من خلال الهواتف المحمولة المتصلة بالإنترنت، وأجهزة PDAs، والحواسب الآلية اللاسلكية، إلخ...، مع الأجهزة الجديدة التي يمكنها الاتصال بالإنترنت التي تظهر في السوق بصورة مستمرة. وتم ضبط كل من الاتصال والاتصال المتبادل بشبكات المعلومات والاتصال فقط ليكونا أكثر كثافة. يباع حاليًا مدخل الاتصال ذو النطاق واسع التردد ـ ثاني أكبر تطبيق قاتل ـ كثاني موجة يتم إدراكها، وصناعتها، لذلك فهو يبشر بالنجاح، ويبدو أن مدخل التوصيلة الهاتفية في الإنترنت كنمط قديم وشيء مفيد في عالم اليوم مثل الأساس المتين وتقوم شركات الاتصال عن بعد وشركات «خدمة موفر الإنترنت» ISP بتقليل هوامش إلى لا شيء تقريبًا للحصول على مستخدمين «دائمين». و«دائمون» تعني ـ بالنسبة للمدير التنفيذي ـ الاستعداد الدائم للبيع

والاستعداد الدائم للإعلان والاستعداد الدائم للإغراء المستخدم من أجل إنفاق المزيد والمزيد من وقته (وماله) في عالم الإنترنت لشبكة المعلومات والاتصال.

رغم هذا الهوس، والاستثمارات الطائشة، والمبالغة المفرطة، فلم يعد موقع Freeserve.com مجانيًا، ورغم الإقدام على العمل الإجرامي المحظور في الجزء الأكبر أكثر من الجزء الأقل، فإن مجتمع الشبكات هنا لكي يبقى. وفي الواقع، فإنه يمكن أن يعمق ويوسع مجاله، ليعطي تدعيمًا منطقيًا ومثمرًا. ويستنتج من قراءة تطور الرأسمالية تاريخيًا أن ما يحدث خلال صحوة الشركات المعتمدة على الإنترنت في أعمالها يتمثل في «الغربلة» الكلاسيكية للاقتصاد الرأسمالي، وفي الحقيقة الأسلوب الداروني الاجتماعي ـ الأقوى سوف يُنقذ، والبعض في الواقع سوف يزدهر. علاوة على ذلك، يمكننا توقع أن يصبح رواد مجتمع الشبكات أقل في العدد وأن يبدأوا في أن يكونوا مثل المنافسين العالميين المحدودين. وسوف تهيمن القليل من الشركات الضخمة في الإعلام، والفن، وتكنولوجيا المعلومات، والاتصالات عن بعد وما إلى ذلك وسوف تساعد في تشكيل طريقة معيشتنا، وتفكيرنا، وتنظيمنا لحياتنا (وهذا يحدث الآن، كما سوف نرى). وقد أهدرت الكثير من الأموال، لكن لا يزال الكثير منها يمكن تحقيقه وبالتالي فإن الشبكات الإلكترونية سوف تستمر لتحصل على الزخم التكنولوجي لتشكيل المجتمع بطرق يصعب اختيارنا لها.

الرأسمالية الرقمية هنا لتبقى. ذهبت الثورة بعيدًا جدًا هناك لتكون أي شيء ما عدا أن تكون المعلوماتية المستمرة حول كيفية تنظيم الرأسمالية (وبالتالي، المجتمع). وإذا لم تنجح التجارة الإلكترونية في جعل متاجر الشارع متوافرة، ثم ماذا؟ لا تزال هناك حزمة لا بد أن تصنع في التعليم الإلكتروني لـ «صناعة» أخرى جديدة قيل أنها تستحق حوالي 4.5 تريليون دولار بحلول عام 2010 (ستيوارت Stewart 2001: 2).

العولمة الرقمية

وتمامًا مثلما لا يوجد هناك مجتمع شبكات (كما نعرفه) بدون قواعد الرأسمالية، فلا توجد عولمة أيضًا (كما نعرفها) بدون ثورة المعلومات والاتصال. وقد عززت كل من ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال وعمليات العولمة بعضهما البعض بشكل متبادل لتطوير رأسمالية

الاستثمار الضخم super–charged capitalism. وقد نتج هذا من عملية «الالتقاء» التي لها أصولها فيما يسمى بـ «الحل» بالنسبة لـ «أزمة الرأسمالية» في سبعينيات القرن العشرين التي قمنا بمناقشتها في القسم السابق. وأدى الالتقاء إلى وضع الرأسمالية في شكل أعلى من ناحية التنظيم، والتعقد، والمرونة (حسن 2000). وللتأكيد على ذلك، فإن عمليات العولمة ذاتها تتخذ أنماطًا معينة التي ربما يعطيها الكتاب والنقاد تركيزًا أكثر أو أقل ـ مثل الثقافة، والسياسة، وكذلك الاقتصاد. ورغم ذلك، فتلك هي حجتي بأن الالتقاء في الرأسمالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال كان يعني أن البعد الاقتصادي يعد البعد الوحيد الذي يتضمن معظم القوة والتدعيم. ولدرجة أساسية للغاية، فإنه يعزز ويسهل «عولمة» كل من الثقافة والسياسة. وهذا القول ليس معناه أن الاقتصاد يعد هو الحافز الوحيد للثقافة والسياسة، لكن ببساطة لن تكون مستويات العولمة الثقافية والسياسية المحققة اليوم ممكنة بدون الالتقاء بين تكنولوجيات المعلومات والاتصال ورأسمالية العولمة الجديدة.

سأحاول في هذا القسم أن أقيم الدليل على الرأي بأن العولمة الرقمية دُعمت من قِبل اقتصاديات الرأسمالية الليبرالية الجديدة. وهذا سوف يظهر أن العولمة اليوم تعتبر مبدئيًا غزوًا اقتصاديًا يتمثل في زيادة أقسام الثقافة والمجتمع، وهي عملية ديناميكية بشكل قوي ساعدت في تكثيف وتوسيع الرأسمالية بأساليب لا نظير لها في التاريخ. علاوة على ذلك، فإن هذه العملية الثنائية من العولمة، أو ما أطلقت عليه في موضع آخر العولمة «الداخلية» و«الخارجية» (هاسان 2000b)، تعد مبتكرة لعالم تنطوي فيه قضايا الهوية الثقافية والمواطنة الديمقراطية على كثير من المشكلات. دعوني أوضح ما أقصده.

لم تبدأ «العولمة» ـ بالطبع ـ في نهاية السبعينيات من القرن العشرين. وقد بدأت تأخذ مجراها في أشكالها الاقتصادية، والثقافية، والسياسية لفترة طويلة للغاية. وفي الواقع، فإنه عند نقطة نهائية يمكن للشخص أن يقول إن الناس بدؤوا في الدخول في «العولمة» عندما بدأوا أولًا في السير عموديًا حوالي ملايين السنين، وينتشرون من السافانا في أفريقيا حتى استيطانهم للكوكب في عملية طويلة وبطيئة من الهجرة عبر القارات (دياموند Diamond 1999). أو يمكننا القول إن العولمة بدأت «بالفعل» في عام 1492 عندما عثر «كولومبوس» على الأمريكتين، حيث إن ذلك لم يكن متوقعًا لكن رغم ذلك فإنه يعد «الاكتشاف» المهم للغاية الذي بدأ عملية (الأوروبيين)

باعتبارهم قادرين على تصور العالم ليس فقط كـ «كوكب» ـ مما ساعد بشكل غير متوقع على تأييد أعمال «بوتليمي» Potlemy و«كوپرنيكس» Copernicus ـ لكن أيضًا كفضاء منفرد يتم الاستحواذ عليه وتسويقه. أو مرة أخرى، يمكننا تحديث أصل العولمة بالإشارة إلى شيء ما أكثر وضوحًا يتمثل في القوى المحركة للرأسمالية. وشهد هذا بدايات التجارة العالمية المنظمة والاتصالات ونظرية تفسير الكون من ناحية القوى المحركة التي ألحقناها بالحداثة. وهكذا نجد «ماركس» Marx و«إنجلز» Engels يكتبان في البيان الشيوعي Communist Manifesto عام 1848:

> **قد أزيحت [الصناعات الوطنية] من خلال الصناعات الجديدة ... حيث لم يعد البحث عن المواد الخام المحلية، لكن أصبح يتم الحصول على المواد الخام من المناطق الأبعد، حيث إن الصناعات التي تقدم المنتجات الاستهلاكية، لا تكون في الوطن فقط لكنها تكون في كل مكان من الكرة الأرضية. وبدلًا من الاحتياجات القديمة، التي يقوم الإنتاج في الدولة بإشباعها، نكتشف احتياجات جديدة، يحتاج إشباعها إلى بلاد بعيدة وأشكال مناخ أخرى. وبدلًا من العزلة المحلِية والقومية والاكتفاء الذاتي، فقد تعاملنا في كل اتجاه، وبمنطق الاعتماد المتبادل العالمي بين الدول.**
>
> (ماركس وإنجلز 1975)

وبشكل جدلي، يمثل كل هذا مراحل يمكننا عندها أن نشير إلى تطبيق العولمة، أو ـ ربما بشكل أكثر دقة ـ مراحل العولمة على المدى الطويل، حيث واجهت عناصر أساسية ومختلفة للغاية. ورغم ذلك، فبالمقارنة باليوم، كانت هذه المراحل المبكرة في العولمة أقل كثافة وشمولًا للغاية. كان يمكن لغالبية الناس في العالم عام 1848 أن يتوقعوا تزعم الأماكن المتمركزة بشكل عادل، دون تأثر بالضرورة بـ «العالم» بشكل عام. وفي الواقع، فإنه يمكن القول إن «العالم» بشكل عام كمكان للاتصال المتبادل والاعتماد المتبادل الذي يمكن تصوره من قِبل معظم الناس، يعد موجودًا بالكاد. كان من الممكن أن تجتاحهما كل من الحرب والثورة (الصناعية والسياسية) (كما حدث في أوروبا في نفس السنة التي نشر فيها كتاب «البيان الشيوعي العام»)، لكن «العالم» بشكل عام، «عالم» الرأسمالية، لم يدخل في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية

والثقافية. وكانت القوى المحركة لهذه الفترة المبكرة تغمر زمنهم. وتتخذ الأشياء فترة أطول، وكانت التكنولوچيات ـ بالمعاني النسبية ـ غير بارعة وغير متقنة مثل هذه الأيام. وكان الفلاحون لا بد أن يستمروا في الزراعة، وكانت لا بد أن تظل حياة سكان المدينة تدور حول منازلهم، وعائلتهم، ومجتمعهم، وعملهم، ومدينتهم. ولا بد أن يبقى كل من الجانب المحلي والجانب العالمي منفصلين إلى حد ما لفترة من الوقت. وفي الواقع، كانت لا تزال تلك هي القضية خلال معظم القرن العشرين. رغم ذلك، فإن هيمنة الرأسمالية في الغرب وفي الكثير من الأقاليم النامية، لا يزال الناس في أنحاء العالم يحافظون على مجالات الانفصال في حياتهم، حيث لا بد أن تكون كل من الحياة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والخاصة ... إلخ، محددة بشكل واضح.

ويكون ذلك عبر التقاء الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال حيث بدأت عمليات العولمة في العصر القديم تبدي كثافة وتوسعًا بالغين. وقد رأينا كيف مُنحت تكنولوچيات المعلومات والاتصال خصائص «تمكينية» تسمح لها ليس بتقل صناعة واحدة بل الكثير من الصناعات. ولقد ذكرنا أيضًا كلمات «دان شيلر» حيث يقول إن تأثير تكنولوچيات المعلومات والاتصال «التمكينية» «لم تكن محدودة بالنسبة لأي قطاع، لكنها كانت تتعلق بالاقتصاد المفتوح» (1999: 13). إن الثورات في الليبرالية الجديدة وتكنولوچيات المعلومات والاتصال التي تُدخل السوق في كل ميدان في الحياة الاجتماعية والثقافية قد كثفت خبرة التفرد، والاتصال المتبادل، والاعتماد المتبادل، والمجال التجاري. وسوف أتوسع في الفصول التالية بخصوص هذه القضية الرئيسية الخاصة بـ «التكثيف» لكني سأوضح الآن ما أعنيه على سبيل تقديم الدليل. ومنذ تسعينيات القرن العشرين أصبح هناك الكثير من المحاولات لتعريف العولمة من خلال مجموعة متنوعة من وجهات النظر السياسية، والاقتصادية، والثقافية (انظر على سبيل المثال، أپادوراي Appadurai 1990، أوماهي Omahe 1990، باربر Barber 1996، فالك Falk 1999). ورغم ذلك، تعلن «ناعومي كلاين» Naomi Klein (2002: xx) ببساطة وإيجاز ماذا تكون العولمة؟ وماذا تعمل العولمة؟ في الكلمات التالية. «التسهيل الاقتصادي» The economic euphemism، وتذكر،

يأتي ذلك باسم «العولمة» التي تصل الآن إلى كل مجالات الحياة، ليتحول كل

نشاط أو مورد طبيعي إلى سلعة مملوكة وذات مقاييس معينة ... ذلك أيضًا حول تغذية احتياج السوق النهم للنمو عن طريق إعادة تعريف مصطلحات مثل القطاعات الكاملة لـ «المنتجات» التي كانت في السابق تعد جزءًا من «المشاع» وليست للبيع. وبالطبع فقد بلغ غزو العام من قِبل الخاص قطاعات مثل الصحة والتعليم، لكن الآن يتم أيضًا شراء الچينات والبذور، وتسجل براءة اختراعها، وتتم حمايتها...

وكان يعني هذا أن «العالم» لم يأت لنا فقط من خلال العولمة الرقمية، لكن أيضًا يعد «العالم» الآن جزءًا منا من خلال هيمنته على «كل مجال في الحياة». وكما تقول «كلاين»، يعتبر هذا عالمًا سلعيًا متمكنًا، يخلق ثقافة سلعية تعتمد على شيوع نظام أخلاقي يرتبط بالروح التجارية ودافع الربح.

تعد العولمة الشاملة هي القوة المحركة الموازية لهيمنة مجالاتنا المحلية والخاصة من خلال الليبرالية الجديدة. وتتمثل طريقة التفكير فيها في اعتبار أنه لو أن العولمة الشاملة تجلب إليك بشكل شخصي العالم التجاري والمتغير، وبالتالي تؤكد العولمة الشاملة أن هذا يحدث أيضًا لأي شخص آخر في أي مكان آخر. وربما تنجح كل من تكنولوچيات المعلومات والاتصال وفلسفة الليبرالية الجديدة عابرة الحدود في وضع رؤية «ماك لوهان» McLuhan المتعلقة بـ«القرية الكونية» global village على أرض الواقع ـ لكن بطرق ربما كان لا يمكن لبصيرة «ماك لوهان» أن تتخيلها. وبصورة أكثر دقة، «مكنت» تكنولوچيات المعلومات والاتصال العلاقات التبادلية بين الأقاليم، والمدن، والاقتصاديات، والأعمال، والأفراد وعملياتهم التجارية، من أن يدخل الإنتاج والاستهلاك في مجتمع الشبكات، المجتمع الذي يشمل الآن الكوكب بأكمله تقريبًا. وبشكل أساسي، تتغير «المحلية» التعددية والمتنوعة وتواجه تحديًا من قِبل «العالمية» التجارية والمتجانسة. وهذا ـ كما يمكن أن يتوقع البعض ـ لم يصبح عملية سلسة، فهي في الواقع تعد عملية مليئة بالمخاطرة وعرضة للتقلب. كما ذكر «أنتوني جيدينز» Anthony Giddens (1997: 4-5)،

نحن في بداية الامتـــداد الأولي لمجتمع الشبكات، الذي يأتي من مصادر متعـددة ... وهو يأتي من تأثير التكنولوچيا على الأسواق العالمية وأيضًا من زوال

> الاتحاد السوفيتي. نحن في بداية هذه العملية ونحن لا نعرف حتى الآن إلى أين تقودنا ... لوأننا يمكننا القول بأن الغرب كان متحكمًا في المراحل الأولى للعولمة، فإن المرحلة الحالية تعد من المراحل التي لا يتحكم فيها أحد. (تأكيد مضاف).

وفي عالم ليس لأحد فيه أن يتحكم، تولد العولمة الشاملة، أو فرض نظام الليبرالية الجديدة المتقلب، الكثير من التنافر، وعدم الاتصال، وعدم التأكد. وفي كتابه «الجهاد في مواجهة عالم ماك» Jihad vs McWorld يرى «بنيامين باربر» Benjamin Barber أن عولمة الليبرالية الجديدة تعمل على إيجاد الفصل بين المحلي والعالمي، وبين ما يسميه «الحدود القديمة العرقية وشبه القومية من الداخل» وأيديولوجية «الأسواق العالمية» (1996: 23). «الجهاد» في فصل «باربر» يمثل هؤلاء الشعوب، والمؤسسات، وأنظمة الرأي، والثقافات المتناقضة مع التجانس المتصور لـ «عالم ماك» McWorld، مما يمكن القول: إن العولمة والهيمنة الناتجة عن ثقافة وقيم النظراء «ماكدونالدز»، و«كوكاكولا»، و«بادي شوب»، و«ڤودافون». يعد الفصل الذي قام به «باربر» مثيرًا للاهتمام. وما يضعه بغض النظر عن الكتب مثل كتاب «صامويل هنتينجتون» Samuel Huntington «صدام الحضارات» Clash of Civilisations ـ الذي افترض أن العالمَيْن والمجتمعين المنفصلين والمتناقضين (الإسلام والمسيحية) قد أصبحا «المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد» (1993: 22) ـ حيث يكمن كل من «الجهاد» و«عالم ماك» في نفس العالم ونفس المجتمع (مجتمع الشبكات) الذي وقع فريسة «الاعتماد المتبادل القوي والمتناقض» (1996: 22). ويستمر «باربر» في الكتابة بأن:

> ... يعمل كل من «الجهاد» و«عالم ماك»، وأحيانًا يكون كل منهما مرئيًا في نفس الدولة في نفس اللحظة. واستمع المتطرفون الإيرانيون إلى الفقهاء الدينيين ليؤيدوا الحرب المقدسة، والتفت آخرون إلى نجم «روبرت موردوتش» الذي لمع في «دايناستي» Dynasty، و«دوناهو» Donahue، و«سيمپسونز» Simpsons عبر القمر الصناعي. ويتنافس رجال الأعمال الصينيون على الاهتمام بفريق المدربين في «بكين» وفي نفس الوقت السعي وراء ترخيصات «كنتاكي» في مدن مثل «نانچينج» Nanjing، و«هانجتشو» Hangzou، و«زيان» Xian، حيث يوجد ثمانية وعشرون منفذًا يخدم أكثر من 10.000 عميل يوميًا. ودخلت الكنيسة

الأرثوذكسية الروسية ـ حينما تناضل لتجديد إيمان قديم ـ مخاطرة مشتركة مع رجال الأعمال في «كاليفورنيا» لتعبئة وبيع المياه الطبيعية الموجودة في ينابيع «شركة سانت سبرينجز ووتر» Saint Springs Water Company. ويرتدي القتلة الصربيون المتعصبون أحذية «أديداس» الخفيفة ويستمعون إلى «مادونا» في سماعات الأذن بأجهزة «ووكمان» وهم يصوبون السلاح نحو أهدافهم من المدنيين في «سراييڤو» وهم يعدون ليملأوا علبهم بالماء لعائلاتهم. وقد تحول كل من أعضاء طائفة «الهاسيد» Hasid الأرثوذكسية اليهودية وأعضاء جماعة «النازية الجديدة» الناشئة إلى موسيقى الروك لنقل رسائلهم إلى الجيل الجديد، بينما يخطط المتطرفون لمؤامرات فعلية على الإنترنت.

يمكننا أن نضيف إلى هذا السرد المطول عنصرًا جديدًا وأكثر خطورة حيث ينبثق من «الاعتماد المتبادل المتناقض» لـ «باربر». وفي منتصف التسعينيات من القرن العشرين بدأت الجماعة الإرهابية «القاعدة» ـ التنظيم الإسلامي المتطرف الذي يريد أن يفرض حكومة القرون الوسطى الديمقراطية عبر أجزاء كبيرة في كوكب الأرض ـ في شن حرب على ما تطلق عليه «الاتحاد الصليبي اليهودي» في الغرب ـ مستخدمة وسائل القرن الواحد والعشرين. تعد «القاعدة» شبكة مغلقة تتسلل إلى الطرق الفرعية المفتوحة لمجتمع الشبكات. ويتصل كل من هواتف القمر الصناعي، ومناقشات الإنترنت، والبريد الإلكتروني، والفاكسات، إلخ بخلايا «القاعدة» حول العالم. وعندما تريد أن تنقل رسالتها إلى جميع أنحاء العالم، فهي ترسل شريط ڤيديو، أو رسالة إلكترونية إلى «سي إن إن» CNN، أو «بي بي سي» BBC، أو شبكة تليفزيون «الجزيرة» ـ النظير العربي لمحطة «سي إن إن». ويعكس مجاهدو «القاعدة» أيضًا طبيعة لـ«التناقض» الذي يجعل «الجهاد» ضد «عالم ماك». أن الشباب المتعلمين ذوي تجارب المجالات المتحررة من النظرة الإقليمية في «هامبورج»، و«لندن»، و«نيويورك»، والذين قاموا بتفجير «مركز التجارة العالمي» و«البنتاجون» في عام 2001 كانوا قد شاركوا نفس وجهة نظر المتطرفين باعتبارهم قرويين أنصاف متعلمين الذين ساعدوا في تنظيم التفجيرات في «بالي» العام الماضي.

وبالنسبة لـ «باربر»، فإن «عالم ماك» يعكس ثقافة وقيم «المعابد الجديدة للحرية» مثل «ماستر كارد»، أو «ديزني»، أو «لويز ڤويتون» Louis Vuitton (1996: 23). واليوم من الواضح بشكل

متزايد أن هذه المبادئ القوية الجديدة محافظ عليها في الولايات المتحدة، وبريطانيا، وأستراليا، وفي معاقل أخرى لليبرالية الجديدة باسم الحرية. ووفقًا لذلك، فإن «الحرب ضد الإرهاب» التي بدأت في عام 2001 من قِبل إدارة «بوش» في الولايات المتحدة تعد ـ في التحليل الذي تم عرضه هنا ـ حربًا لضمان الحرية من أجل عاصمة (الولايات المتحدة) ولتوسيع الفائدة غير المحدودة أينما كانت، أو توقع الفوائد، والعروض في حد ذاتها. وفي عالم لا يكون لأحد السيطرة فيه، ومع نظام دولة هزيل، ومع عدم وجود صلة بشكل متزايد بالأمم المتحدة، ومع تنامي المدخل أحادي الجانب، تتم متابعة هذه «الحرب» من قِبل الحكومات الموافقة بحماس في الدول الديمقراطية الكبرى في العالم والتي تضعف مبادئها المتعلقة بالحرية والديمقراطية من خلال تقديم قوانين «الطوارئ» التي تقلص من قيمة الحريات الشخصية والجماعية ـ باسم «الحرب ضد الإرهاب».

والعولمة الرقمية تجعل كل هذا ممكنًا. ورغم ذلك، فإن التناقض الجوهري في العالم المتحول إلى العولمة للأفراد المتصلين بشكل متزايد، والأسواق المنفصلة والمتصلة بالشبكات بشكل متزايد، والاقتصاديات المعتمدة على بعضها البعض والمتصلة ببعضها البعض، والدول، والأقاليم هو ما يسميه «زيجمونت باومان» Zygmunt Bauman (1998: 18) «الاستقطاب الجديد». إنه عالم ينبع معناه من المراسي (علامات تحويل النص العادي إلى نص تشعبي فائق) التقليدية وهو ينجرف إلى الأثير الفعلي للشبكات. وسوف أنهي هذا القسم باستشهاد من «باومان» حيث إنني أعيد الطباعة هنا عند طول معين لأنه يتناول التكاليف الاجتماعية، والوجودية بشكل جيد لتقارب الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وكتب:

> ... بدلًا من تجانس الوضع الإنساني، يميل الإلغاء التكنولوجي للمساحات الزمانية/ المكانية إلى استقطابه. فهو يحرر بعض الناس من القيود الإقليمية وينقل معاني معينة متولدة في المجتمع إلى خارج الإقليم ـ بينما يتجرد الإقليم، الذي يستمر آخرون في الانحصار فيه، من هدفه وقدرته على منح الهوية. وبالنسبة لناس معينين فإن ذلك يبشر بحرية لم يسبق لها مثيل من العقبات المادية والقدرة غير المسبوقة للتحرك والعمل من بُعد. وبالنسبة لآخرين، فهو ينذر بعدم إمكانية التأهيل والسيطرة على المحلية التي يحصلون من خلالها على فرصة ضئيلة في إطلاق

حريتهم للانتقال إلى أي مكان آخر. مع فقدان «المسافات التي لم تعد تعني أي شيء»، والأقاليم المنفصلة عبر مساحات واسعة، أيضًا لمعانيها. ورغم ذلك، فإن هذا ينذر بحرية في خلق المعنى للبعض، لكنه لا يمثل لآخرين أي شيء. والآن يمكن للبعض الانتقال من المحلية ـ أي محلية ـ كما يشاءون. وبشكل يائس، يشاهد آخرون المحلية المنفردة التي يسكنونها وهي تنسحب من تحت أقدامهم.

التسارع الرقمي

هناك سمة رئيسية لهذا الزخم الأوتوماتيكي التكنولوجي الاقتصادي-وسبب مهم لفقداننا للسيطرة ـ يطلق عليها «چيمس جليك» James Gleick «التسارع في كل شيء». ويعد كتاب «جليك» بعنوان «أسرع: التسارع في كل شيء» Faster: The Acceleration of Just About Everything (2000)، كتابًا شيقًا، حيث إنه إلى حد ما مثير للضجة بسبب الكثير من التأثيرات المتنوعة على الحياة في «أوج السرعة» (2000: 6). ومشكلة الكتاب في أنه بعد قراءته فإنك لا تكون أكثر حكمة مثل السبب الذي جعلنا الآن متدينين فجأة وبسرعة وسرنا في طريق ثابت وسريع. رغم ذلك، فإن له مدلولًا ضمنيًا. إن كلًا من تأثيرات الحواسب الآلية، والإنترنت، والمعالجات متناهية الصغر، والضغط الرقمي للساعة الزمنية في النانوثانية يتناوله هذا الكتاب. التأثيرات، وليست الأسباب الفعلية. والذي خلق مكانًا لهذه الزيادة في سرعة الحياة بشكل أكبر بكثير هو «پول ڤيريليو» Paul Virilio. ويعد «ڤيريليو» مفكرًا رائدًا فيما يتعلق بتأثيرات السرعة على القوة، والإستراتيجية العسكرية، والثقافة، والاقتصاد (1995a، 1997، 2000) وفي كتابه «قنبلة المعلومات» Information Bomb (2000)، يرى «ڤيريليو» أن «الإجراءات الرقمية المساعدة» تدعم تسريع الحياة، مما يؤدي إلى «تسريع الواقع» (2000: 2 – 3). وفي مقالة وجيزة وبالغة الأهمية عن الإنترنت في عام 1995 بعنوان «السرعة والمعلومات: إنذار عالم الإنترنت!»، يتصور «ڤيريليو» بعض الأفكار التي تتجسد في «قنبلة المعلومات». وهو يقوم بربط «تسريع الحقيقة» بثورة تكنولوچيات المعلومات والاتصال ونقل الليبرالية الجديدة. ويذكر بأنه من خلال العولمة الرقمية، نحن «نواجه ظاهرة جديدة: فقدان الاتجاه [الناشئ عن] الليبرالية الجديدة وتحرير الأسواق المالية» (1995b).

يمكننا هنا أن نستند على أفكار «ڤيريليو» وتحديد موضع التسريع و«افتقاد الاتجاه» ليس ببساطة في تكنولوچيات المعلومات والاتصال في حد ذاتها، أو حتى الإنترنت، لكن في الأيكة الدائمة النمو للشبكات المتصلة بشكل متبادل والتي تشمل مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة. وغالبًا ما تعتبر الاستعارة المستخدمة في وصف الشبكات «بيئة»، «بيئة الشبكات». وأعتقد أن مصطلح «البيئة» يعد استعارة أكثر من ملائمة. وفي الحقيقة، فهو يصف واقعًا ما تتكون منه الشبكات، كما تفعل تمامًا كل من البيئة «الطبيعية»، أو البيئة «الصناعية». كما يرى «چون إس. كوارترمان» John S. Quarterman (2002)،

> يعد الإنترنت نظامًا بيئيًا. فهو يتكون من الكثير من الأجزاء المتفاعلة، ويجلب كل من «موفر خدمة الإنترنت» ISP، ومراكز البيانات، والمشروعات، والمستخدمين النهائيين المساعدة من الآخرين ومن المواد الخام. ويحتاج كل منها إلى اتخاذ قرارات مدعمة بالمعلومات. يعد هذا علم البيئة. وعلم البيئة هذا الذي تمثل حياته الشركات ويعد الناس أيضًا سوقًا.

وبشكل بالغ الأهمية، يقوم هذا «النظام البيئي» بتوليد وتدعيم سلطته الزمنية الخاصة به، العداد الرقمي للشبكة. وكلما اعتمدنا على الشبكة ـ الحاسب الشخصي في العمل أو المنزل، أو جهاز PDA بالقطار، أو في الشارع مع الهاتف المحمول الملتصق بالأذن ـ شعرنا بمجالها المتسارع زمنيًا، مع خطوتها المسعورة والفاقدة للاتجاه بشكل كبير. وكلما تضمن كل من تأثير، وهدف، وعمق الشبكات الرقمية المزيد والمزيد مما نقوم به، كان للقوة الدافعة للتصاعد تأثيرها. ويعد كتاب «جليك» مفيدًا في أنه يمكننا من أن نرى كيف أن كل مجال تقريبًا في حياتنا يمكن أن نحول عداد الساعة الزمنية القديم ذي الألف عام (فقد اعتدنا على ذلك) إلى درجة سرعة أعلى كثيرًا من الوقت الفعلي. رغم ذلك، فإن الطريقة الأكثر وضوحًا للتفكير في موضع وخطوة للتسريع ليست من خلال «اللاوقت» من الوقت الفعلي (الذي يتضمن «اللحظية» الكلية)، لكن السلطة الزمنية غير المتوافقة بشكل كبير فقد أطلقت عليها الوقت الشبكي (حسن 2003b). هناك الكثير من الفترات الزمنية في الشبكات: على سبيل المثال، هناك «الوقت الفعلي» الظاهري لمكالمة خط الهاتف الأرضي أو الهاتف المحمول، أو ڤيديو كونفرانس، أو الوقت «الفوري» أو المؤجل (اعتمادًا على وقت اختيارنا لقراءته) للبريد الإلكتروني، أو الوقت

السريع للإنترنت واسع النطاق، أو الوقت الأكثر بطئًا لاتصال الحاسب الآلي بالإنترنت إلى آخره. والنقطة المهمة هنا ـ رغم ذلك ـ هي تناول مجتمع الشبكات كوحدة كاملة، وكل هذا يمثل تسريعًا بشكل عام. وأصبحت هذه السلطة الزمنية الجديدة تصب في الثقافة والمجتمع خلال العشرين سنة الأخيرة على الأقل، لتساهم، في السرعة بشكل كبير أو صغير، في ما يطلق عليه «جليك» بشكل صحيح «التسريع بشأن كل شيء تمامًا».

إن التفكير قليلًا فقط بشكل تاريخي يجعل من السهل رؤية تأثيرات التسريع في كل مكان تقريبًا. وقد قام «چيريمي ريفكين» Jeremy Rifkin بدراسة تأثيرات وقت الشبكات على الأعمال. فمثلًا، منتجات معتمدة وتقليدية مثل الآلات الكاتبة، اعتدنا أن تبقى، حتى لعقود. وخلافًا لذلك، تكون صلاحية الحواسب الآلية عامًا أو عامين. ويقل عمر الحاسب الشخصي الذي أكتب من خلاله هذه الكلمات عن عام لكنه يظهر عمره بالفعل. عندما استخدم لأول مرة، أديرت وحدة التشغيل بسهولة وهدوء، أما الآن فهي تحدث جلبة وضوضاء مع علامات يبدو أنها تشير إلى احتمالية وجود تجمع أتربة أو نسيان أكوام من المخلفات على السطح. ويبدو أن تبديد الموارد يعد شيئًا من المستحيل التخلص منه. ويخضع كل من التسريع والتبديد لدائرة الفحص الذي لا بد أن أقدم ملحوظة عنه عندما يتوافر لي الوقت. وتحقق شركة الحواسب الآلية «هيوليت پاكارد» Hewlett Packard (الراكدة والتقليدية) معظم إيراداتها من المنتجات التي لم تكن موجودة في العام الماضي. ولدى المنتجات الاستهلاكية اليابانية متوسط دورة حياة ثلاثة شهور، مع قيام «سوني» بإنتاج 5000 منتج جديد في عام 1995. وهذا لا يمثل فقط مسألة تكنولوچيات معلومات واتصال. وتم «تمكين» هذا بشكل ضخم عن طريق تكنولوچيات معلومات واتصال، ولا ينسجم التسريع مع كل صناعة، من الأدوية والنشر إلى البرجر والجعة. وتقوم «شركة ميلر بريوينج» Miller Brewing Corporation (ما هو كم التقليدية التي يمكنك الحصول عليها؟) بصناعة عشرين في المائة من إيراداتها من منتجات الجعة التي لم تكن موجودة منذ عامين (ريفكين 2000: 2 – 21). وتقوم أرفف المتاجر بتغيير معروضاتها باستمرار، مع منتجات جديدة تختفي بنفس سرعة ظهورها في الانقلاب الهائل والمستمر الذي يكافح للوصول إلى شيء ما سوف يتم بيعه.

يمثل هذا كيف أن الأعمال لا بد أن تدار بموجب منطقها التكنولوچي ـ الاقتصادي. كما قال

«هاوارد تشارني» Howard Charney ـ نائب رئيس «سيسكو سيستيمز» Cisco Systems ـ في خطاب له في مارس 2000: «في اقتصاد الإنترنت، يكون السباق حول السرعة مقابل البطء» (تشارني 2000). وفي الخطوة الثائرة التي أطلقتها أسواق الأسهم العالمية والمديرون التنفيذيون المتحمسون، أصبحت معظم الشركات الآن تحت ضغط شديد للحصول على نتائج (دقيقة أو العكس) وتفعل ذلك بسرعة. إن النتائج السنوية المشتركة لا بد الآن أن تقدم بشكل ربع سنوي ـ وتظهر الأرباح ـ أو القيمة المشاركة لـ «رد الفعل المعاكس للسوق». وأصبح الكثير جدًّا من «المحاسبة الخلاقة» والأعمال الإجرامية بمعناها الحرفي التي أصبحت سمة «الاقتصاد الجديد» لها جذورها في الضغط الهائل والمستمر الذي تجلبه السرعة الجديدة. وبصورة متوقعة، قامت أيضًا دوائر مجتمع الشبكات للمنتج سريع الدوران، والربح السريع، والمحاسبة السريعة بدمج أفراد يتسمون بالسرعة وقد تم تطوير النظام الإنتاجي الياباني التام من خلال الرأسمالية الأنجلوأمريكية ليشمل «الموظفين المنضبطين»، أو العمال العرضيين الذين مثل الصنبور يغلق ويفتح حسب الطلب. فيتم استئجارهم سريعًا والاستغناء عنهم ربما بشكل أسرع.

إن منطق الشبكات في إدارة المنتجات، والناس، والعمليات بصورة أسرع وأسرع قد نظر في التكاليف. وكما حذر «ڤيريليو»، «ما سوف يُجنى من المعلومات الإلكترونية والاتصالات الإلكترونية سوف يؤدي بالضرورة إلى خسارة في مكان ما آخر» (1995b: 1). ويضع «زيجمونت باومان» يده على شيء أكثر خصوصية عندما اقترح أن «المشكلة مع الوضع الحالي تتمثل في أن المجتمع توقف عن استجواب ذاته» (1998: 5). وما هذا يجمع ـ وفقًا لكلام «ديڤيد شينك» David Shink ـ يتمثل في «فقدان الذاكرة»، وعدم القدرة على استيعاب وتذكر المعلومات الغزيرة والسريعة المنهالة علينا بشكل متزايد ـ حيث تبدو الأطر، والأمثلة، والأحداث، والتواريخ، وأساسنا المعرفي لانعكاس الذات «تتلاشى في بحر البيانات» (1997: 48). وفي روايته «البطء» Slowness، يضع «ميلان كونديرا» Milan Kundera نفس الرأي بشكل أكثر حدة إلى حد ما عندما كتب «تعد درجة السرعة متناسبة بشكل مباشر مع حدة النسيان» (1996: 2).

تلك هي التأثيرات الناتجة عن تسريع وقت شبكات المعلومات والاتصال. وكما سنرى في الفصول التالية، فإن وقت شبكات المعلومات والاتصال، أو «تسريع كل شيء تمامًا»، له أيضًا نتائج مهمة بشأن تشكيل التغير الدائم في الإنتاج الإعلامي والثقافي في العالم شديد

الاتصال. ووفقًا لذلك، فإن هذا البعد، إلى جانب أبعاد الإدراك المتبادل للتكنولوچيا الرقمية، والرأسمالية، والعولمة التي قمنا بمناقشتها، وصياغتها، أعتقد أن الإطار المفيد لعملية وضع الأطر الذي يمكننا من توضيح التغيرات الجوهرية التي تحدث في العالم اليوم.

وقبل استمرارنا في تحليل الإعلام، والثقافة، والسياسة في مجتمع الشبكات بشكل أكثر تحديدًا، أود أن أقول كلمة أو اثنتين بشأن التذمر.

التشاؤم أم النقد؟

أصبح كل من شكل ونبرة وصوت ما قمت بكتابته محور جدل إلى حد كبير. وبلا شك، سوف يطلق البعض أن ذلك «تشاؤم»، أو «مناهضة للتطور التكنولوچي»، أو ربما مجرد مزيد من التذمر في الوقت الذي لا بد أن نكون «متفاءلين». وقد انتقد بشدة كل من الأكاديميين وأصحاب النظريات الاجتماعية ـ عند الكتابة عن تأثيرات تكنولوچيات المعلومات والاتصال على الإعلام، والثقافة ـ الجريمة الفكرية «السلبية للغاية وذات الجانب الواحد» كما يقول «چيمس سليڤين» James Slevin عن «مانويل كاستيلز» في كتابه «الإنترنت والمجتمع» (2001: 51). واستمر «سليڤين» في مناقشة المطالبة بالمزيد من التوازن عند الانتباه إلى مميزات وعيوب تكنولوچيات المعلومات والاتصال داخل المجتمع. وبالفعل، أوافق على ذلك. المزيد من التوازن لا بد في الواقع أن يكون شيئًا جيدًا للغاية. ويبدو أن ما تجاهله «سليڤين» ـ رغم ذلك ـ يتمثل في أننا قد غمرنا التفاؤل بشكل مستمر من خلال إعلامنا، ومن خلال اكتشافنا لتكنولوچيات المعلومات والاتصال في العمل وفي أماكن أخرى. ومن تأكيد «بيل جيتس» إلى هيمنة مكملات تكنولوچيا المعلومات أسبوعيًا في معظم الصحف، تنضح جميع مسام مجتمع الشبكات حولنا بالتفاؤل. وكما قلت في بداية هذا الفصل، لم تعد «الثورة الرقمية» في حاجة إلى أبطال لنشر أيديولوچيتها ـ أصبحت العمليات الآن أتوماتيكية ومرتبطة بالأجهزة.

يمثل تجاهل «سليڤين» لمسائل الأيديولوچية تأثيرًا نموذجيًا لنجاح الليبرالية الجديدة في تسليط الضوء على الرأسمالية التي يتم إمدادها بالمعلومات، وتعظيم السوق، وتقديس المبالغة في السرعة كمكونات أساسية للشكل النهائي للتطور الاجتماعي الإنساني. ويعد ذلك أيضًا

دليلًا على القلق العام. وأعتقد، أنه عندما يقتطع كتاب آخر مفيد من الوقت مثل كتاب «سليڤين» لنقد «السلبية» التي يزعمها «كاستيلز»، بينما يتم تجاهل قضايا الأغلبية الساحقة لـ «التفاؤل الأيديولوجي» الذي نواجهه في كل مرة تقريبًا. وفي الواقع، بالنسبة للكثيرين، للمطالبة بعمل «سلبي» أو «متشائم» أصبحوا أداة ملائمة لرفض وجهات النظر التي وجدت لتسبب الإزعاج. ولا أعتقد أن «سليڤين» يفعل هذا متعمدًا، لكن النتيجة واحدة. وهو يرفض بشدة النقد العميق (مثل التشاؤم)، عند ترك قضايا الأيديولوچية وأغلبيتها الساحقة في جانب تكنولوچيا المعلومات المبررة، والرأسمالية، والسوق غير الموجهة.

ورغم ذلك ـ كما يرى «روبينز» Robins و«ويبستر» Webster في كتابهما «عصور الثقافة التكنولوچية» Times of the Technoculture، قد يتمثل ثمن التشاؤم في الشرعية إذا لم يكن هناك «بديل للنظام التكنولوچي الجديد» قد تم عرضه (1999: 8). وبالقراءة بهذه الطريقة، يمكننا أن نقول إن وجهة النظر العالمية السائدة المتفائلة لـ «بيل جيتس»، للكثير من مجالات العلم والثقافة، ولإمدادات تكنولوچيا المعلومات عالية الطاقة، وللإعلام الضخم بشكل عام تعد في الواقع متشائمة إذا لم يكن هناك شيء آخر معروض، ولم تكن هناك بدائل. وما كنت أحاول أن أفعله في هذا الفصل الأول هو توضيح عناصر رابطة القوة / الأيديولوچية التي تبرز وجهات نظر مجتمع الشبكات. لا يعد هذا إذن «تشاؤمًا» لكنه «نقد»، ويقول النقد إن هناك دائمًا بدائل، وهناك دائمًا طرقًا للتواجد والرؤية ـ نحن في حاجة فقط إلى الأدوات الفكرية لاكتشاف وإدراك هذه الحقيقة الأساسية. ويضع «ريموند ويليامز» القضية بشكل رائع في كتابه «السياسة والثقافة» Politics and Letters (1979: 252) عندما كتب:

> **رغم احتمالية هيمنة النظام الاجتماعي، فإن المعنى العميق لهيمنتها يتضمن حدودًا أو اختيارًا للأنشطة التي تغطيها، لذلك فإنه بتعريفها فهي لا يمكنها أن تستنفد كل الخبرة الاجتماعية، التي دائمًا ما تشتمل على حيز للأعمال البديلة والأهداف البديلة التي لم تتم كتابتها كدستور اجتماعي أو حتى كمشروع.**

وللمزيد من التوضيح فيما يتعلق بالقضايا الحالية، كتب «ماك كينزي وارك» McKenzie Wark:

> **ربما سيكون هناك إجماع منبثق من كيف أنه من الصعب مجاراة «سرعة»**

الإنترنت. لماذا لا يتم الأخذ بنصيحة «ديليوز» Deleuze ومحاولة أن يكون «لنا السبق»؟ وهذا الاحتياج لا يعني دائمًا ـ كما يرى «ڤيريليو» ـ ... وضع معاكس لتمهل التفكير في سرعة الإعلام ... لكنه [يعني] البحث عن إيقاع آخر.

يعد فقط كل من الإدراك والفهم الخطوتان الأوليان في خلق مثل هذا الحيز كما يقول «ويليامز»، من أجل الحصول على الانعكاس الذاتي ليكون «لنا السبق» أحيانًا، أو لإيجاد «إيقاع جديد»، كما يرى «وارك». وكل ما أقوم باقتراحه هو عرض كل من الإدراك والفهم خلال هذه الصفحات. إدراك المشروعات البديلة سوف تكون دائمًا هي نفسها نتيجة العمليات التطبيقية الاجتماعية والسياسية. علاوة على ذلك، تبقى المسؤولية على الفرد ويقوم الفرد باعتباره جزءًا من الجماعة ـ حسب التصور ـ بتخطيط وتطبيق الترتيبات (الواضحة) والإستراتيجيات من أجل بدائل «النظام التكنولوچي الجديد» في حياته أو حياتها. وفي هذا الصدد أود متابعة المناقشة حول الإعلام، والثقافة، والسياسة في مجتمع الشبكات ليتم فهمها.

قراءات أخرى

Barber, B. (2000) *Jihad vs McWorld*. New York, NY: Times Books.

Castells, M. (1996/97/98) *The Information Age: Economy, Society, and Culture* (three volumes). Oxford: Blackwell.

Castells, M. (2001) *The Internet Galaxy*. New York, NY: Oxford University Press.

Robins, K. and Webster, F. (1999) *Times of the Technoculture*. London: Routledge.

Schiller, D. (1999) *Digital Capitalism*. Cambridge, MA: MIT Press.

Virilio, P. (2000) *Information Bomb*. London: Verso.

الفصل الثاني معلوماتية الثقافة والإعلام

> تقترح كل الشركات المندمجة والمتحدة الأكبر حجمًا والأكثر شمولًا أشكال التعاون المُلِح بين الإنترنت، والثقافة الإعلامية، وكذلك صناعتيّ المعلومات والتسلية. وتنتج هذه التفاعلات المتعلقة بالتكنولوچيا ورأس المال أشكالًا مبدعة من رأس المال التكنولوچي والثقافة التكنولوچية اللذين يبشران بأن الألفية الجديدة ستكون مليئة بكل ما هو جديد، ومبتكر، وغير عادي، ومتغير.
>
> (كيلنر 2003 Kellner)

هذا الفصل بالغ الأهمية ويركز على جوهر إدراكي الشخصي للقوى المحركة المتغيرة بشكل مفرط لكل من الإعلام والثقافة في مجتمع الشبكات. وما أراه هو أن أشكالها المهيمنة والمتغيرة عبر العالم، أصبحت هي تلك الميادين، والمجالات، التي «يتم إمدادها بالمعلومات» عبر منطق رابطة ثورة عولمة الليبرالية الجديدة / تكنولوچيا المعلومات والاتصال، وهي الآن تتطور في السطح الرقمي للشبكات. ويعتبر هذا تطورًا غير مسبوق، وربما تكون نتائجه في غاية الأهمية. ويعتبر ذلك تطورًا مهمًا لأن كلًّا من مجالات الإنتاج الإعلامي والثقافي قد تطورا تاريخيًّا (في عصر ما قبل المعلومات)، إلى جانب قواهما المحركة الخاصة بها. وقد أثرت هذه المجالات - للتأكيد - على بعضها البعض وهي تتميز بالتفاعل بشكل عميق، لكن كانت حقيقة أنها لا يمكن أن تنفصل بشكل تحليلي وتجريبي تعني أن «التوتر الجدلي» (2003: 2) الذي تحدث عنه «بودريلارد» Baudrillard كان يمكن أن يعمل كقاعدة لبناء ثقافة نقدية تُمكِن من الوصول إلى مستوى من الاستقلالية والفاعلية داخل هذه المجالات. إن المعلوماتية قد ساعدت في طمس الكثير من الفترات الفاصلة بين هذه المجالات، إلى جانب التوتر الجدلي الذي وضع الوحدة المتكاملة والموحدة في المكان الصحيح.

ولفهم هذه العملية، قمت بإعداد هذا الفصل بالطريقة وللأسباب التي سوف نتابعها. ولكي نبدأ سوف أقدم المزيد من التوضيح لمصطلحي «الإعلام» و«الثقافة» ذاتهما، بالشرح والتبسيط من أجل فهم سياق النظرية المنبثقة من مبادئ الأدب التاريخي والمعاصر الضخم. ومن هناك سوف أتخذ وجهة نظر تاريخية بشكل مبسط حول تطور مجالات الإنتاج الإعلامي والثقافي. وسوف يتيح لنا موجز «خطوة للخلف» مقارنة العمليات الفعالة للإعلام والثقافة في كل من عصر ما قبل المعلومات وعصر المعلومات.

إذن ما هو «الإعلام» وما هي «الثقافة» على أية حال؟

يعد هذان المصطلحان سائدين بشكل كبير، ويمثلان جزءًا كبيرًا من لغتنا اليومية، حيث إن الكثير منا يستخدمهما ويدمجهما في حواراته دون إعطاء الكثير من الاهتمام لتعريفهما، ومعناهما، وتطبيقاتهما. فنستخدم «الإعلام» بشكل غير واضح كمعنى لـ «الصحف»، أو «الراديو»، أو «التليفزيون»، أو «الإنترنت» مؤخرًا ـ التكنولوجيا المتخمة بعناصرها المتنوعة من «الوسائط المتعددة». مرة أخرى، يمكننا أيضًا أن نضفي الطابع الشخصي على المصطلح ـ إلى جانب معنى «الإعلام» بشكل غير واضح إلى حد ما ـ الصحفيون، أو الذين يعملون في «الإعلام»، الصناعة التي يتزعمها «أقطاب الإعلام». إنها نفس القصة مع مصطلح «الثقافة». إنه يأتي غالبًا ليشير ضمنًا إلى معنى غير واضح لشيء «مختلف» عنا، أو إلى شيء لدينا يجعلنا «نحن» مختلفين عن «الآخرين». وبالتالي يمكننا التفكير بتمعن (لكن ربما يكون لدينا صعوبة خاصة في التعريف)، حيث يمكن القول، «الثقافة البريطانية»، أو «الثقافة الأمريكية»، أو «الثقافة اليابانية». ويمكن أن يستخدم المصطلح أيضًا بوضوح وسهولة لوصف تلك الأشياء مثل أشكال الموسيقى (ثقافة الموسيقى العالمية)، أو الموضة (ثقافة الشارع)، أو «الثقافات الفرعية» (التزلج على الجليد، أو الاستكشاف، أو جمع الطوابع، أو الأزياء)، أو حتى «ثقافة» منظمة. وبصرف النظر عن مدلول معنى «الاختلاف»، فإن الكلمة لا تشير ضمنًا إلى ما يصنع الثقافة، أو ما يدعمها أو ما يمكن أن يغيرها. وفي مجتمع الشبكات فإن هناك علاقة وثيقة للغاية بين هذين المصطلحين وبالتالي يعد الفهم الجيد لمعانيهما شيئًا حيويًا بشكل متزايد إذا كنا في طريقنا إلى فهم «عالمنا الوسيط» الجديد و«ثقافته العالمية» ـ المصطلحات التي سيثار حولها الجدل الحاد عند انتشارها.

في الواقع لسنا في حاجة إلى أن نتوسع كثيرًا عند البحث عن معاني، وتعريفات، وأمثلة بشأن كل من «الإعلام» و«الثقافة» لذا سوف يكون شرحهما موجزًا. ورغم ذلك، يعد التدريب مفيدًا للغاية. فهو سوف يساعد على إيجاد ما يتضمنه هذان المصطلحان بصورة أكثر وضوحًا، وسوف يضع أساسًا تصوريًّا من أجل فهم أفضل لما يعنيه هذان المصطلحان، وكيف يتفاعل كل من «الإعلام» و«الثقافة».

الإعـلام

يمكننا البدء ببعض التعريفات. في الواقع يعد «الإعلام» شكلًا تعدديًّا، أي الشكل التعددي لكلمة «الوسيط» ـ تغير الكلمة أوجد طريقة مختلفة لفهمها بشكل مباشر. يعد «الوسيط» ـ كما يعرفه «قاموس كولينز الإنجليزي» Collins English Dictionary ـ «قوة أو واسطة متداخلة لنقل أو إحداث تأثير ما». وبالتالي يمكننا رؤية ذلك بشكل واضح بالبدء في الربط بين الكلمات ذات العلاقة بالمعاني المتشابهة مثل «الوسيط»، أو «التوسط»، أو «الوسطي». وتقترح هذه الكلمات «البينية» ـ شيئًا ما «في الوسط» ـ «القوة أو الواسطة» اللتان إما تنقلان أو تحدثان تأثيرًا بين الفرد والعالم. باختصار، الإعلام هو ذلك المجال الذي يصلنا بالعالم وببيئتنا، ليتيح لنا التأثير عليه، والعكس صحيح.

بدأ مصطلح «الإعلام» في نيل شهرة في اللغة خلال القرن التاسع عشر مع بداية ظهور أشكال الاتصال واسعة الانتشار. وبدأ الناس في بداية القرن العشرين ـ مع التوزيعات الأكبر حجمًا للصحف، والمجلات، والراديو، والسينما ... إلخ ـ في الحديث بلغة «الإعلام الضخم». ورغم ذلك، فإن تعريفات «القوة أو الواسطة» تعد مهمة، حيث إنها تربط «الإعلام» بـ «التكنولوجيا» بشكل وثيق وأبدي. فعلى سبيل المثال، تعد الصحيفة شكلًا إعلاميًّا يمكن أن يكون أكثر أو أقل «ضخامة»، اعتمادًا على حجم القراءة. ومن الواضح تمامًا أيضًا التكنولوجيا، تكنولوجيا الإعلام. ويصف «والتر أونج» Walter Ong الباحث في علم الإنسان ـ في كتابه «الشفهية والتحريرية» Orality and Literacy (1982) ـ كيف أن تكنولوجيات الإعلام مثل الكتابة تقوم بتغيير ما هو لنا ليكون لجميع البشر في العالم. وقام بتطوير مفهوم «جهاز الإحساس العام»[1]

(1) مركز في الدماغ وظيفته استقبال الأحاسيس ودمجها.

لوصف الوحدة الكاملة للأحاسيس الإنسانية، التي يتطور المزيد أو القليل منها اعتمادًا على البيئـ(ات) الثقافية والتكنولوجية، والطبيعية التي يعيش الأفراد داخل محيطها. وكان لتطوير الكتابة تأثير جوهري على جهاز الإحساس العام وطبقًا لرأي «أونج» فإن المجتمعات القديمة، ومجتمعات ما قبل معرفة القراءة والكتابة كانت تعتمد على الاتصال الشفهي، مما أدى إلى أن تكون الأذن جزءًا حيويًا في جهاز الإحساس العام ورغم ذلك، فإنه مع بداية التكنولوجيا ووسائط الكتابة، أعاد جهاز الإحساس العام ترتيب أولوياتها وفقًا لبيئتها المتغيرة اعتمادًا على العين. بمعنى آخر، فإن حلول الكتابة قد أدى إلى تغيير المجتمعات إلى ذلك الشكل الذي أصبحت عليه بعد ذلك من المجتمعات الشفهية اعتمادًا على الصوت والسماع، إلى مجتمعات الرؤية المعتمدة على الكلمة المكتوبة (ثم بعد ذلك الصور الإلكترونية المطبوعة). ومن هذا المنطلق، فإن تكنولوجيات الإعلام ـ من التكنولوجيا «البسيطة» مثل الكلمة المكتوبة، إلى التعقيد الضخم للصور التي نراها من خلال الصور الفوتوغرافية، والأفلام، وألعاب الفيديو، إلخ ـ لها تأثير قوي على كيفية تصورنا للعالم وكيفية اشتقاقنا للمعنى منه.

وفي قوله المأثور «الوسيط هو الرسالة»، أدار «مارشال ماك لوهان» Marshall McLuhan نفس المناقشة بشكل نشط فيما يتعلق بالإعلام الإلكتروني، لكن مع اختلاف جوهري في التأكيد ـ التأثيرات والقوى المحركة للتسريع. وقال في كتابه «فهم الإعلام» Understanding Media (1964: 16):

> **تمثل رسالة أي وسيط أو تكنولوجيا تغيرًا في الميزان أو المنهج أو النمط الذي تقدمه لأمور حياة البشر. فلم تقدم السكك الحديدية الحركة أو النقل أو العجلات أو الطريق إلى المجتمع الإنساني، لكنها قامت بتسريع وتوسيع ميزان الوظائف الإنسانية السابقة، لتخلق بشكل عام أنواعًا جديدة من المدن وأنواعًا جديدة من العمل أو أوقات الفراغ.**

في العالم الاجتماعي والثقافي كل شيء يعد إعلامًا، حيث نُحْكم السيطرة على ما هو «خارج ذلك» من خلال التوسط. وبداية من الإعلام «البسيط» مثل إلقاء الخطاب، والكتابة، والطباعة، وانتهاءً إلى الإعلام الضخم الأكثر تعقيدًا مثل الراديو، والتليفزيون، والإنترنت، يمكننا رؤية وإدراك العالم وموقعنا فيه من خلال عمليات التوسط. ويعتبر هذا في بعض الحالات مسألة

عادية تمامًا. لكن لكي يمكننا إدراك العملية بشكل أكثر اكتمالًا، ولتوضيح ما هو ضمني، فنحن في حاجة إلى تقدير طبيعة «القوة أو الواسطة» من خلال ما نحدده بالنسبة للعالم وما يحدده العالم لنا.

إن النقطة المهم إدراكها عند التفكير في إعلام الاتصالات هو أنه يمثل تكنولوچيات. ومثل هذه التكنولوچيات، نحتاج إلى فهمها من خلال مستويين على الأقل. أولًا ـ كما رأينا في الفصل الأول ـ تعد التكنولوچيات هي نتاج نظام اجتماعي معين، حيث إنها تمثل التركيبات الاجتماعية التي تعكس طبيعة المجتمع الذي أوجدها. وكما يرى «ويليامز» Williams، نحن نحتاج دائمًا إلى أن نكون قادرين على «تحديد وتحدي وسائطها الفعلية» أو أنها سوف تظهر، مثل أنماط الاقتصاد الرأسمالي، كشيء «محايد» (1974: 135). وعلى سبيل المثال، فإن تطور الكتابة قد خلق مصدرًا جديدًا للقوة وتقسيمًا اجتماعيًّا جديدًا بين هؤلاء الذين كان يمكنهم (ويتاح لهم) القراءة والكتابة، وهؤلاء الذين لا يمكنهم ذلك. ثانيًا، نحن في حاجة إلى إدراك أنه رغم انبثاق التكنولوچيات الجديدة مع غرض معين فإنها تحمل أيضًا حشدًا من «النتائج غير المتوقعة». وبالرجوع إلى «ماك لوهين» مرة أخرى: فإن التسريع في الإعلام الإلكتروني يخلق «أنواعًا جديدة من المدن وأنواعًا جديدة من العمل أو وقت الفراغ»، ومعظمها لا يمكن معرفته ويكون أكثر أو أقل إيجابية. وما يمكن أن نضيفه إلى هذا ـ من خلال الفهم العميق لـ «أونج» وما تلاه من المناقشات التي قمت بطرحها في الفصل الأول ـ هو أنها دائمًا لديها إمكانية خلق طرق جديدة لرؤية العالم، وطرق جديدة لفهم العالم، وطرق جديدة للتواجد في العالم. مرة أخرى، فإن الكثير مما يتم كشفه لن يمكن معرفته ولن يكون متوقعًا، لكن رغم ذلك، سوف يتشكل في جزء كبير منه عن طريق القوى السياسية والاقتصادية والثقافية المهيمنة التي تجلب التكنولوچيا (الإعلام الجديد) إلى الوجود.

الثقافة

رغم عموميتها، فإن التعريف الشائع بشكل واسع ليس من السهل الالتزام به. وإذا طرحت السؤال «ما هي الثقافة؟» فسوف تعتمد الإجابة بشكل كبير على من تسأله. فكر مليًّا في هذه الاستشهادات:

رئيس الوزراء البريطاني، «توني بلير» Tony Blair:

لحقت [بريطانيا] بكل من فرنسا وإيطاليا لتصبح رابع أكبر اقتصاد في العالم. [وهي] تمتلك لغة الاقتصاد الجديد، ولديها المزيد من الفنانين، والممثلين، والمخرجين اللامعين أكثر من أي نظيرة لها في العالم، وبعض من أفضل العلماء والمخترعين في العالم، وأفضل قوى مسلحة في العالم، وأفضل معلمين وأطباء وممرضين، وأفضل شعب تتمناه أية أمة ...

الرئيس «جورج دبليو. بوش» George W. Bush:

أظهرت 11 سبتمبر الأفضل في أمريكا، والأفضل في «الكونجرس». وأنا أشارك الشعب الأمريكي في الموافقة على قراراتك وعلى الوحدة التي قمت بها. والآن يستحق الشعب الأمريكي أن تكون لديه نفس هذه الروح الموجهة نحو معالجة المشكلات داخل الوطن. وأنا عضو فخور بحزبي-وكما أننا نعمل من أجل أن نفوز بالحرب، ومن أجل أن نحمي شعبنا، ونخلق فرص العمل في أمريكا، لا بد أن نعمل - قبل كل شيء - ليس كجمهوريين، وليس كديمقراطيين، لكن كأمريكيين.

مغنية البوب، «مادونا» Madonna:

عندما كنت طفلة، كنت دائمًا أعتقد أن العالم ملكي، وأنه أرض ممهدة خلقت من أجلي وأرض مليئة بالفرص. وكان لدي دائمًا هذا الاتجاه بأنني في طريقي إلى أن أخرج إلى العالم وأفعل كل الأشياء التي أريد فعلها.

وبطرقهم المختلفة يتحدث هؤلاء الأفراد الثلاثة بشكل مباشر عن الثقافة وكيف تشكلت من خلالها وجهة نظرهم عن العالم. واعتمادًا على وجهة نظر الفرد، فإن الفرد قد يسخر ويتهكم من تكرار كلام السياسيين، مثل الكلام الذي تتوقع أن يقولونه، وترى «مادونا» «هادئة»، وأكثر «واقعية»، ويتماشى كلامها مع العصر، حيث إنها من الناحية الفردية كانت أكثر طموحًا. ورغم ذلك، فإن السياسيين يستهدفون بشكل واعٍ الدوائر الانتخابية المعروفة، وفي هذه الحالات، فإن هؤلاء الذين يتردد من أجلهم صدى الأنماط الثقافية للوطنية،

والمجتمع وما إلى ذلك بشكل قوي. ربما يقرأون أو يسمعون كلمات «بلير» و«بوش» ويجدونها طموحة ـ ويرون كلمات «سيكونز» Ciccone's بلهاء أو سطحية وتعبر عن غرور هذا العصر، وأنانيته، ولا تحمل معنى «الانتماء». والنقطة المهمة هنا هي أن وجهة نظرهم الثقافية تشتق من المعاني التي تقدمها لهم هذه الشخصيات، والأصداء التي تصنع هذه المنشورات الثقافية (حقيقية أو خيالية) المهمة بالنسبة لهم. وتعد هذه الاختلافات الثقافية الموجودة اليوم أكثر أو أقل شيوعًا، لذلك ليس من الضروري قبولها أو فهمها. ووفقًا لذلك، فإن وجهة نظرهم الثقافية التي لا تلقى صدى لدى وجهة نظرنا الثقافية الخاصة بنا يمكننا السخرية منها أو اعتناقها أو معاداتها أو تجاهلها.

لم يكن ذلك معقدًا، أو موافقًا لمبدأ عدم التدخل، أو مجالًا للتنافس بشكل بالغ ودائم. على سبيل المثال، وفي نهاية القرن التاسع عشر لم تدخل فكرة «الثقافة» في عقول معظم الناس ولم تشكل بالتأكيد جزءًا من اللغة اليومية كما تفعل اليوم. ورغم ذلك، يسعى البعض إلى تعريفها وفهمها، وإن كان ذلك لأسباب اجتماعية اقتصادية و«ثقافية» خاصة جدًّا. وكانت فكرة الثقافة في المدارك الأعلى في المجتمع واضحة وثابتة. ولقد انبثقت من المكانة الطبقية للشخص، هؤلاء فقط الذين يفترض أنهم من ذوي التربية، والسلوكيات، والتصرفات السليمة من الطبقات العليا القادرين على تقديرها وفهمها واستيعاب ماذا كانت تعني. هذا ما كان يعرف فيما بعد بـ «الثقافة العليا» والتي تتضمن تلك الأشياء مثل الذهاب إلى الأوبرا، والقدرة على قراءة اللغة اللاتينية، أو الفرنسية والتحدث بهما، ومعرفة أية شوكة تستخدم على المائدة، وأي كتاب يمكن قراءته، إلخ...

ورأى آخرون قضايا الثقافة كشيء أقل ثباتًا وأكثر غموضًا. وكانت «الثورة الصناعية» خلال منتصف وأواخر العصر الفيكتوري في حالة تأرجح كامل وكانت قطاعات الطبقة المثقفة قد اعتبرت أن نهوض كل من الحداثة والمجتمع الواسع المصاحبين لها يمثلان تهديدًا لها. وقد استلزم التصنيع درجة من معرفة القراءة والكتابة لدى الطبقات الدنيا في المجتمع ورأت الصفوة المتعلمة أن هذا يمثل تهديدًا واضحًا لامتيازاتهم الثقافية الرفيعة. فعلى سبيل المثال، انتقد بشدة الروائي والمفكر الفيكتوري «جورج جيسينج» George Gissing «ادعاء» التعليم الناتج عن «نظام اللوحة المدرسي» الإنجليزي كـ «امتداد وتعميق للسوقية» في بريطانيا (كاري

Carey 1992: 93). بمعنى آخر، فإن التعليم غير المعياري كان سببًا في أن يكون المجتمع في حالة «انحدار في المستوى»، وبالتالي الاستخفاف والتقليل من شأن كل ما هو كان راقيًا ونبيلًا فيما يتعلق بالثقافة البريطانية. وأتت وجهة نظر ليست مختلفة حول الثقافة من أحد معاصري «جيسينج»، هو «ماثيو أرنولد» Matthew Arnold. كان «أرنولد» معلمًا ومؤمنًا بدور بالتعليم الحكومي للنهوض بالمعايير الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية للطبقات الدنيا في المجتمع. وكان مؤمنًا أيضًا بـ «الثقافة العليا» لكنه كان يرى أن بلوغها يعتمد ببساطة على التعليم الجيد الذي كان لا بد أن يكون سببًا لـ «ارتفاع المستوى». وكتب في مقدمة كتابه «الثقافة والفوضى السياسية والاجتماعية» Culture and Anarchy ([1869] 1960): «[تمثل] الثقافة متابعة لكمالنا العام عن طريق وسائل المعرفة، في كل الشؤون التي تهمنا بشكل أكبر، وتمثل الشيء الأفضل الذي يجب التفكير فيه والحديث عنه في العالم». وبطريقته الفيكتورية الليبرالية حسنة النية كان يقول «أرنولد»: إن الطبقات الدنيا في المجتمع تستحق الحصول على ثقافتـ(ـه) ـ لأنه ليس لديهم في الأساس ثقافة تذكر خاصة بهم ـ وإذا كانت لديهم هذه الثقافة، كانت ستكون بلا شك ثقافة «سوقية»، و«متدنية»، و«وضيعة».

وكانت وجهات النظر تلك التي تدور حول جوهر الثقافة ـ التي عبرت إما عن مذهب حكم النخبة العدائي أو عن الحكم المعتدل ـ شائعة ومهيمنة إلى ما بعد «الحرب العالمية الثانية» على الأقل. وكان المؤرخون الماركسيون مثل «إي. بي. ثومبسون» E.B. Thompson و«رايموند ويليامز» Raymond Williams مهتمين خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين باستكشاف الأبعاد الطبقية للثقافة والإنتاج الثقافي، وبالتالي فقد وضعت أسس النظام الأكاديمي الكامل الذي نعرفه اليوم مثل «الدراسات الثقافية». وفي كتابه «تشكيل الطبقة العاملة الإنجليزية» The Making of the English Working Class، قام «ثومبسون» بتعريف الثقافة كمجتمع واسع وشيء «مجسد» في أشياء مثل «التقاليد، وأنظمة القيم، والأفكار، والأشكال المؤسسية» (1968: 7). وقد أدت أعمال «ثومبسون» الرائدة إلى طرح أسئلة حول الثقافة التي بدت أكثر موضوعية واجتماعية والتي تم إمدادها بالمعلومات من قبل الأبعاد الأخرى مثل الهوية، والعرق، والنفوذ، والموقع الجغرافي، والاستهلاك، واللغة، والطبقة. بمعنى آخر، أتى الإنتاج الثقافي من الخبرة العملية. وقد عبر «ويليامز» بشكل ممتاز عن هذا بالشمول الكلي ووجهة النظر الفعالة حول

ما أدى إلى تشكيل الثقافة في مقال له عام 1958 بعنوان «الانتقال من الثقافة العليا إلى الثقافة العادية». كتب:

> **تعد الثقافة شيئًا عاديًّا: تلك هي الحقيقة الأولى ... ونحن نقوم باستخدام كلمة الثقافة في هذين المعنيين: معنى الأسلوب الكامل للحياة ـ المعاني المتداولة، ومعنى الفنون والتعلم ـ العمليات الخاصة بالاكتشاف والجهد الإبداعي. ويحصر بعض الكتاب الكلمة في معنى أو آخر من هذه المعاني، وأصر أنا على المعنيين وعلى أهمية ارتباطهما. وتعتبر الأسئلة التي أطرحها حول ثقافتنا هي أسئلة حول المعاني الشخصية العميقة. وتعد الثقافة شيئًا عاديًا، في كل مجتمع وفي كل عقلية.**
>
> (6:1958a)

بمعنى آخر، تمثل الثقافة ما «نفعله» يوميًّا، أي العمليات الثنائية لـ «المعنى» و«التعلم» اللذين يشكلان «أسلوبًا كاملًا للحياة». إنها عملية حية خاصة بالمعاني والقيم التي تبدو لنا كتأكيدات على سلوكياتنا في العالم وتساعدنا على توجيه أنفسنا داخله. وهي أيضًا ـ كما يؤكد «ويليامز» ـ عملية «التعلم»، التي تدل ضمنًا على أن الإنتاج الثقافي يعد عملية ديناميكية مستمرة ومتطورة. تتغير المعاني، وتتغير القيم، وبالتالي تتغير أيضًا أنماط الثقافة. وأعتقد أن هذا الابداع في الإنتاج الثقافي يعد هو النقطة المهمة. والثقافة ليست ثابتة، لكنها هي موضوع التشكيل، وإعادة الصياغة، والتعامل من خلال القوى الأكثر شمولًا «خارجيًّا» في المجتمع و«داخليًّا» عبر الطرق التي من خلالها نساعد بأنفسنا في تشكيل الثقافة والمجتمع من خلال تفاعلاتنا معها. علاوة على ذلك، إذا تعلمنا الثقافة ومعانيها، فإنه لا بد أن يقوم شخص ما أو بعض الأشخاص» بتعليمها. يعود بنا هذا الإدراك إلى الوراء ـ مرة أخرى ـ من أجل مسائل القوة وأين تكمن داخل المجتمع. وبشكل تقليدي، تشمل القوى الاجتماعية ذات التأثير في تعليم ونشر الثقافة ومعانيها عناصر مثل العائلة، والدين، والمدارس، والأصدقاء ـ والإعلام.

وفي مقال على شبكة الإنترنت بعنوان «الدراسات الثقافية، والتعدد الثقافي، وثقافة الإعلام»، يقدم «دوجلاس كيلنر» Douglas Kellner ـ المُنظِّر الثقافي (2002) ـ عرض دقيق للتفاعل بين الإعلام والثقافة وبالتالي يتطلب ذلك استخدام بعض الاستشهادات. فيذكر:

وقد تعودنا على التأثير في الإعلام والمجتمع الاستهلاكي وهكذا من المهم تعلم كيفية فهم، وتفسير، ونقد معانيه ورسائله. ويعد الإعلام مصدرًا عميقًا لعلم أصول التدريس غالبًا ما يخطأ فهمه: فيساهم في تعليمنا كيفية التصرف وتعليمنا فيماذا نفكر، وما نشعر به، وما نعتقده، وما نخافه، وما نرغبه ـ والعكس صحيح. ويمثل الإعلام أشكالًا من علم أصول التدريس التي تعلمنا كيف نكون رجالًا ونساءً. وتعرض لنا هذه الأشكال كيف نرتدي ملابسنا، وكيف نبدو للآخرين، وكيف نستهلك المنتجات، أي كيف نستجيب لأعضاء الجماعات الاجتماعية المختلفة، وكيف نكون محبوبين وناجحين، وكيف نتجنب الفشل، وكيف نجاري النظام السائد للمعايير، والقيم، والممارسات، والمؤسسات. ونتيجة لذلك، فإن زيادة ثقافة الإعلام النقدي يعد مصدرًا مهمًا للأفراد والمواطنين في تعلم كيفية التعامل مع البيئة الثقافية الجاذبة. ويمكن أن يساعد كل من تعلم كيفية القراءة، والنقد، ومقاومة الغزو الاجتماعي الثقافي في منح السلطة للفرد فيما يتعلق بالأشكال السائدة من الإعلام والثقافة. ويمكن أن يعمل ذلك على تدعيم الاستقلال الفردي في مواجهة الثقافة الإعلامية ومساعدة الناس على التغلب على بيئتهم الثقافية.

وقد جعلت كل من العولمة الاقتصادية وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال من العالم مكانًا للاتصال المتبادل. ويمثل ذلك «مجتمع الشبكات»، لكنه في نفس الوقت يعد أيضًا «مجتمع الإعلام» حيث تتكون وتنتج الآن الأشكال السائدة من الثقافة من خلاله. وهذا يمثل امتدادًا لرأي «لاش» Lash (2002: 10) بأنه لا يوجد هناك «شيء خارجي بعد الآن» بسبب مجالات النقد وبسبب القوى المحركة الفاعلة في الإنتاج الإعلامي والثقافي. فقد تم إمدادها بالمعلومات وبالتالي نحن في حاجة إلى تغيير الطرق التي ندرك من خلالها الإعلام والثقافة. وكما يرى «لاش»، «لا بد أن تتخذ النظرية الاجتماعية والثقافية بشكل متزايد شكل النظرية الإعلامية» (2002: 64) (تؤكدها في الأساس). وقد طرح هذا الرأي تساؤلًا مهمًا (وحيويًا بالنسبة لنا). هل عمليات العولمة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال وإمداد المجتمع بالمعلومات تمثل قوة جزئية وتضع أساسًا من أجل ثقافات وطرق جديدة ومتعددة بشكل لا نهائي في الحياة؟

أو، هل هناك انجذاب واضح نحو تجانس الثقافة، ونحو اتساق المعاني، والقيم، والممارسات من خلال الانتشار الرتيب لتكنولوجيا المعلومات، التكنولوجيا التي ليس لدينا أي تحكم فيها ـ والتي لم نجلبها؟

وللحصول على فكرة ما عما تتم المجازفة به نحتاج لقضاء بعض الوقت للبحث في الجدل التاريخي أو التفاعل بين الإعلام والثقافة.

أشكال الجدل حول الإعلام ـ الثقافة

إذا كان يعتبر كل شيء تقريبًا وسيطًا وتعد الثقـافـة شيئًا عـاديًا، إذن فإن الرابطة بين الإعـلام والثقافة لا بد أن تكون رابطـة مهمـة جـدًا. وهذا ما يراه «روجـر سيلفرستون» Roger Silverstone (1999: 13)،

يتضمن التوسط تغير المعنى من نص إلى آخر، ومن مناقشة إلى أخرى، ومن حدث إلى آخر. ويتضمن التحول المستمر للمعاني، على النطاقين الكبير والصغير، المهم وغير المهم...

بمعنى آخر، فإن التغيرات في المعنى ـ مثل «التغيرات الحاسمة» لـ«بودريلارد» Baudrillard (2003: 3) ـ هي التي تشكل أنماط الإنتاج الثقافي، والتوسط (تكنولوجيات الإعلام) هو الذي ينتج المعنى ويغيره تقريبًا (توملينسون Tomlinson 1999). وتعد تلك طريقة جيدة وغير متبلورة وعديمة الشكل تستخدم في التفكير في العملية ـ وكما يواصل «سيلفرستون» في الشرح ـ هناك أشكال للمنطق يمكن تحديدها وقوى محركة تشكل وتكوّن العملية بطريقة أو بأخرى. والدراسات الإعلامية والثقافية لها تاريخ طويل في محاولة الكشف عن كيفية عمل هذه التفاعلات بشكل دقيق (أو غير دقيق). وفي مرحلة سابقة، خلال أربعينيات القرن العشرين، افترض كل من «تيودور أدورنو» Theodor Adorno و«ماكس هوركيمر» Max Horkheimer ـ الشخصيات المهمة فيما يسمى «مدرسة فرانكفورت» Frankfurt School ـ أن الرأسمالية قد أوجدت «صناعة الثقافة» حيث أنتج الإعلام الضخم ثقافة جاهزة وسلعية للطبقات الدنيا في المجتمع من أجل الاستهلاك بشكل كبير في عملية ذات اتجاه واحد ([1944] 1986).

وكان الأكثر تفاؤلًا والذين لم يختلفوا كثيرًا هم المُنظرون مثل «رايموند ويليامز» و«ريتشارد هوجرت» Richard Hoggart اللذين شاركا في تطوير العمل حول تأثيرات الأشكال الرائجة من الإعلام مثل الصحف، والراديو، والمجلات، وموسيقى البوب بشأن «ثقافة الطبقة العاملة» وكيف أن الناس العاديين يشكلون هذه الأشكال من الإعلام ولا بد أن يتشكلوا من خلاله في تفاعل متواصل. وبعيدًا عن هذا العمل تأتي المدرسة الرئيسية التالية للدراسات الثقافية، «مدرسة برمنجهام» Birmingham School، التي كان يعمل بها المُنظِر المعروف جدًّا «ستيوارت هول» Stuart Hall.

وقد انبثقت «مدرسة برمنجهام» ـ مثل «مدرسة فرانكفورت» ومثل «ويليامز» و«هوجرت» قبلهما ـ من الاتجاه السائد للماركسية الجديدة وبالتالي فقد اعتمدت قوى التأثير، والهيمنة، والسيطرة، والاقتصاد السياسي على المُنظِرين بشأن كيفية تفاعل التكنولوچيا والثقافة. وبالنسبة للكثيرين في «مدرسة برمنجهام»، كانت الأيديولوچية عاملًا قويًا في الجدل الإعلامي الثقافي. وترى وجهة النظر تلك أن تكنولوچيات الإعلام الضخم مثل الراديو، والتليفزيون، والصحف، إلخ يتم التحكم فيها بشكل أساسي عن طريق عدد قليل نسبيًّا من المشروعات الكبيرة. ويندمج المتخصصون الذين يعملون في الإعلام ـ مثل المحررين والصحفيين ـ في «الأيديولوچيات المهيمنة» وقيّم المشروع الكبير وينقلون هذا من خلال القنوات الإعلامية إلى الجماهير. ورغم ذلك، لا تعد تلك عملية ذات اتجاه واحد. وبالنسبة لرأي «هول»، فإن النصوص الإعلامية (الأفلام، والصحف، والتليفزيون، إلخ) ورسائلها تعد مواقع لـ «التفاوض» وربما تكون «مقروءة» (أو مستهلكة) بطرق مختلفة، طبقًا لمكانة الأفراد في الهياكل الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. ومع ذلك، فإن داخل نطاق الرسائل المعروضة، توجد هناك «قراءة مفضلة» ـ مفضلة من قِبل الأيديولوچية المهيمنة، لكن لا زال هذا يمثل عادة القراءة ـ كما يؤكد «هول» ـ التي «لا يمكن ضمانها» (1981: 135).

قنوات الثقافة

وبشكل ضمني، أوبشكل صريح، فإن ما يربط هذا بالنظريات الأخرى للتفاعل الإعلامي

الثقافي يتمثل في أن هناك قنوات موجودة يتم من خلالها هذا التفاعل (فيزرستون ولاش Featherstone and Lash 1999). تلك هي القنوات التي تتشكل وتتكون زمنيًا من خلال التاريخ، والأيديولوجيا، والأنماط الثقافية الموجودة من قبل، إلخ. وتخلق هذه القنوات العديدة ـ طبقًا لقول «هول» ـ «شروط تواجدها الخاصة بها» (1981: 135). وبشكل واضح تمامًا، يمكن أن يطلق على هذه «القنوات» مصطلح «الأطر» ويوجد داخل قواها المحركة للسلطة الزمنية، والتاريخ، إلخ...، هذا الخط القاطع لجلب ما يطلق عليه «چون فيسك» John Fiske (بعد بورديو Bourdieu 1986) «الكفاءة الثقافية» و«الخبرة الاجتماعية المتعلقة... بلحظة القراءة» (1987: 19). وما كانت تستطيع الدراسات الثقافية أن تفعله في مجال الجدل الإعلامي الثقافي تمثل في الكشف عن أن هذا قد حدث في الكثير من القنوات المختلفة وخلق تنوعًا في الطرق التي من خلالها يدور الجدل. وعلى سبيل المثال، فإن «القنوات» التي تعمل في حقوق المرأة (انظر «أنج» Ang 1996) من المتوقع أن تتبنى وجهة نظر مختلفة حول طبيعة الجدل الإعلامي الثقافي أكثر من القناة «الأيديولوچية» انظر (ستلابراس Stallabrass 1996). ويتم إمداد كل منها بالمعلومات عن طريق الكفاءات الثقافية المختلفة ومن خلال «الخبرات الاجتماعية» اللانهائية المختلفة.

ورغم ذلك، يترك لنا كل هذا «التنوع» مشكلة. وسواء قبلنا أن الجدل الإعلامي الثقافي يعد «إطارًا» كاملًا ـ نوع من العقلية التي «تقبل أي شيء» ـ لا يؤدي إلى الوضوح بشكل خاص، أو اخترنا إطارًا ـ يتناسب مع تحيزاتنا ـ يسمى «أيديولوچية»، ورأينا أن كل هذا يندرج تحت ذلك ـ تكون عملية المنع في البحث عن الفهم. ولا أعتقد أن الاختيار لا بد أن يكون اختيارًا صارمًا «إما ـ أو». وفقًا لذلك، فإنه خلال بقية هذا الفصل، أود أن أقوم بتطوير مفهوم «القنوات» بشكل أكبر قليلًا. ويعد هذا ضروريًا إذا كنا في طريقنا إلى فهم كيفية إدارة هذا الجدل في إطار البيئة الجديدة بشكل كلي والتي أوجدتها الشبكات الرقمية المتغلغلة. وهكذا تتطلب التفاعلات بين الإعلام والثقافة داخل مجتمع الشبكات إعادة للتصور، وانتقال وضع النظريات القادر على دمج القوى المحركة الجديدة للتسريع الزمني، والعولمة، ورأسمالية الليبرالية الجديدة، وثورة تكنولوچيا الاتصال والمعلومات ذاتها. ويمكننا أن نبدأ بتحليل طبيعة الإعلام الضخم وكيفية تغيره مع مجتمع الشبكات القادم.

الإعلام الضخم - الثقافة الضخمة؟

إلى أي مدى تكون «ضخامة» الإعلام؟ فلنأخذ الصحف في الاعتبار. كان رقم التوزيع اليومي لصحيفة «يو إس توداي» US Today ـ أكثر الصحف رواجًا في الولايات المتحدة ـ 2,241,677 في 30 سبتمبر عام 2001. وتعد كل من «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal و«نيويورك تايمز» New York Times الصحيفتين الوحيدتين اللتين تبيعان أكثر من مليون يوميًا. ويمثل سكان الولايات المتحدة تقريبًا 290 مليون نسمة. وفي بريطانيا، فإن أكثر الصحف مبيعًا يوميًّا هي الصحيفة الصغيرة المصورة «ذي صن» the Sun إلى جانب مبيعات يوميًا تقدر بأكثر من 3.5 مليون خلال يوليو عام 2002. وكانت صحيفة «الجارديان» the Guardian اليومية كبيرة الحجم والأكثر «جدية» تأتي بعد الصحف الصغيرة المصورة الشبيهة بصحيفة «صن»، بمبيعات تقدر بحوالي 370,000 يوميًّا في نفس الشهر. ويمثل سكان «بريطانيا» 60 مليونًا. مع أخذ التليفزيون في الاعتبار. ويظهر الاستقصاء أن «ذي ويكيست لينك» The Weakest Link قد جذب 17.5 مليون مشاهد إلى محطة «سي بي إس» CBS عام 2001، ليجعلها أكثر المحطات مشاهدة في التليفزيون الأمريكي في ذلك الوقت. وفي بريطانيا، شاهد 7.1 مليون مشاهد «البرنامج الواقعي» «بيج براذر» Big Brother في محطة «فور إس» 4s في عام 2002، أو 43 في المائة من الجمهور في أنحاء البلاد في ليلة الإرسال. إنك فهمت قصدي. إن هذه الأرقام، وكل هذه المبيعات من الصحف، وهذا العدد من المشـــاهدين، ليس قليلًا، فهي مؤشرات مهمة، لكن عند مقارنتها بجميع السكان، فيمكن وصفهـا بالكاد «مقدارًا كبيرًا» من السكان.

والنقطة المهمة التي لا بد أن ترسخ في الذهن هي أنه بسبب كل تأثيراته، وبسبب كل إمكانياته في الانتشار، فإن الإعلام الضخم ليس لديه وحدة كاملة مطلقًا ـ «الجمهور» لا يعادل «الأغلبية». ولم يكن أبدًا «مجالًا» متجانسًا ومنتظمًا يغطي المجتمع بأكمله. وتذكر ـ أيضًا ـ أن «الإعلام» يعد مصطلحًا جمعيًا ويعد «الجمهور» أيضًا مصطلحًا متنوعًا، لذلك فإن الناس قادرون على استهلاك الإعلام الضخم مثل التليفزيون، والراديو، والمجلات، والصحف، ولوحات الإعلانات الملصقة إلخ، في أشكال متنوعة وأوقات مختلفة. ورغم ذلك، فمن المهم أيضًا تذكر أن الكثير مما نستهلكه يأتي من مقدار ضئيل نسبيًّا من المصادر العامة الضخمة.

وبالاستشهاد بمثالين: يقوم «إيلي نوم» Eli Noam، في مقال بعنوان «التركيز الإعلامي في الولايات المتحدة» (1996) بتقدير شركات التليفزيون التجاري «الثلاثة الكبار»، «إيه بي سي» ABC، و«سي بي إس» CBS، و«إن بي سي» NBC، بأنها تحتل كليًّا 92 في المائة من مشاهدة التليفزيون في بداية الثمانينيات، وفي «أستراليا»، يذكر «جوك جيڤين» Jock Given أن شركات الأخبار التي يمتلكها «روبرت موردوخ» Rupert Murdoch تتحكم في 75 في المائة من التوزيع اليومي للصحف (2001: 7).

إن هذه الحقائق لا بد أن تنبهنا إلى شيء واضح للغاية. لا بد أن يكون من الواضح أنه إذا لم يكن هناك شيء ما نندمج ونتكيف معه بشكل كبير وبالتالي يكون شيئًا نميل إلى ألا نفكر فيه، ومن ثم، فإن الإعلام الضخم يمثل تجارة، والتجارة تعد بمثابة بيع، والبيع يعد بمثابة (ليس في جزء صغير) خداع. ومن المحتمل أن يكون الرهان الأكيد الذي لا يزال يأتي كجزء من مفاجأة مزعجة للكثير من الناس هو إدراكهم أن التليفزيون التجاري (أو الراديو، أو الإعلام المقروء، بالنسبة لتلك المسألة)، يوجد ليس لجلب المعلومات والتسلية للناس - لكن لتوفير الجماهير للمعلنين. بمعنى آخر، فإن البرنامج الواقعي الذي نستقبله، «كورونيشان ستريت» Coronation Street، أو ذي ليت شو ويز ديڤيد ليترمان The Late Show with David Letterman أو أي عروض رياضية يتم تغطيها بشكل كامل والتي تضج بها موجات الراديو، «يتم جلبها إليك عن طريق ...» فكل ما في الأمر هو محاولة جعلك تشاهد إعلاناتهم ثم تقوم بشراء منتجاتهم.

وهذا الإدراك المحزن والمثير للكآبة يسترجع ما قاله «رايموند ويليامز» عام 1985 في رائعته «الثقافة والمجتمع» Culture and Society. كتب:

> **تنشأ فكرة الأشخاص كجماهير، ليس من عدم القدرة على معرفتهم، لكن من تفسير شخصياتهم طبقًا للصياغة ... وسوف تنبع الصياغة، في الواقع، من هدفنا. وإذا كان هدفنا هو الفن، أو التعليم، أو تقديم المعلومات أو الرأي، فإن تفسيرنا سوف يكون بلغة العقلاء والمهتمين. من ناحية أخرى، إذا كان هدفنا هو التأثير - إقناع عدد كبير من الناس بأن يعملوا، ويشعروا، ويفكروا، بطرق خلاقة - سوف تكون الصيغة الملائمة تلك التي تنبع من الجماهير.**
>
> (ويليامز 1958: 303)

تكشف هذه «الصياغة» عن نموذج للناس العاديين عن طريق مشروع كبير، ذلك المشروع الذي يرجع إلى بداية «المجتمع الضخم» في نهاية الثمانينيات من القرن التاسع عشر. إن الصياغة أيضًا لديها منطق مشترك مع الفصل التام لـ «الثقافة العالية ـ والثقافة المنخفضة» في العصر الفيكتوري وما قبله. وتتصور الناس العاديين كأشخاص عديمي الثقافة، وأغبياء، ومثل القطيع، أي أنهم كتلة يخشى ويشمئز منها (وهكذا تشعر بالتعالي نحوها)، أو يتم التأثير عليها كسوق يتم البيع إليه. إذن، يعد الإعلام الضخم، في هذا الصدد، مرادف للتسويق الضخم ـ الموجه إلى أحلام المرء للبيع دون نهاية ولأسواق بلا حدود. إن الإشارة المستمرة إلى «الجماهير» و«الإعلام الضخم» كحقيقة متكونة بشكل كامل، بدلًا من صياغة التسويق أصبحت مخلدة من خلال الإعلام ذاته ويتم تكرارها بلا مبالاة من قِبل الأكاديميين والمعلقين لمدة عقود. وبالتالي، فقد اتجه هذا إلى زيادة التأكيد على التأثير والوصول إلى الإعلام الضخم. وكما ذكر «ويليامز» أيضًا في الثقافة والمجتمع، «... لا يوجد هناك، كما أعتقد، شكل للنشاط الاجتماعي الذي حل محله استخدام [الإعلام الضخم]. وعلى أبعد تقدير ـ مع إضافة البدائل ـ فقد سمح [الإعلام الضخم] بالتأكيد البديل في الوقت المخصص لأنشطة معينة» (1958b: 2 – 301).

وليس هناك شك بأنه خلال القرن العشرين لم يتمُ أو يتشكل الإعلام الضخم كصناعة ـ مثل العمل على تجانس محتواه واستخدام هذا المحتوى في الكسب كنتيجة (ماك تشيسني McChesney 1993). ورغم ذلك، فإن النقطة المهمة هو أنه لم يصل إلى كل نواحي الثقافة والمجتمع. وما بين أشكال الإعلام الضخم المختلفة كان لا يزال هناك وفرة من المجالات التي من خلالها يمكن لـ «النشاط الاجتماعي»، كما صرح «ويليامز»، أن يعود من جديد أو يزدهر أو يتلاشى و/ أو يتجدد بشكل آخر. وكانت تلك ثقافة تعمل في فترات فاصلة، داخل هذه المجالات حيث يكون الناس أعضاء في الطبقات، والعائلات، والمجتمعات، أو أفراد يجب أن يتبنوا رسائل مما يقدمه الإعلام الضخم. فهم لا بد أن يتبنوها أو يتركوها أو يعيدوا تفسيرها لأنفسهم. يكون ذلك داخل تلك المجالات حيث تطوير وتحفيز مصطلح «فايسك» «الكفاءات الثقافية» ـ أو ربما تتعرض للتلاشي: والنقطة المهمة ـ كما علمتنا تقاليد الدراسات الثقافية، هي أنها موجودة. علاوة على ذلك، فإن الكفاءة الثقافية مقارنة بالإعلام وما يقدمه أتاحت للناس أن يتطوروا درجة من ناحية الذكاء الإعلامي، وهي المعرفة الإعلامية التي انبثقت من مستوى

معين من الاستقلال والبعد عن الإعلام ذاته. وهذا بدوره قد أتاح للناس الحرية في بناء عالم من الرسائل التي ربما تنحرف بشكل جذري عن الرسائل «المقدمة» لصيغة الإعلام الضخم. بمعنى آخر، فقد كان الناس قادرين على تطوير ما أطلق عليه «بيتر جولدنج» Peter Golding و«جراهام موردوك» Graham Murdock «الاقتصاد السياسي الحاسم للإعلام» حيث يعتبر المستهلكين قادرين بشكل كافٍ ثقافيًا لإدراك «التفاعل بين منظمة [الإعلام الرأسمالي الضخم] والحياة السياسية والاجتماعية والثقافية» (2000: 73).

الهيمنة والإعلام الضخم

رغم ذلك، فهذا ليس الاقتصاد السياسي الصارم والمنظم تمامًا. كان هناك وما زال اتجاه واضح، وميل فطري، نحو كل هذا التفاعل ولم يكن ذلك نحو الناس، والتعدد، والتنوع. ولم تعد صناعة ممارسات الثقافة مهمشة داخل هذا الجدل الخاص. إذ رأينا الإعلام الضخم كمشروع تجاري (يعطي أو يأخذ القليل من المحطات العامة مثل «بي بي سي»، و«بي بي إس»، إلخ) لا بد أيضًا أن نعترف بأنها جزء من صناعات كبيرة للغاية التي تتبع ـ بدورها ـ المبادئ العامة للرأسمالية (جراهام 1990). وطبقًا لذلك، فقد تغيرت بالفعل في تفاعلاتها مع كل ما يعرضه الإعلام الضخم، والناس، والمجتمعات، والجماعات، والثقافات وتعكس الكثير من هذه التغيرات قواعد صناعات الإعلام و«الأيديولوچيات المهيمنة» ونظم القيم للاهتمامات الاقتصادية والسياسية التي تتحكم فيها.

ومنذ مضي القرن العشرين على الأقل، بدأت قنوات الإعلام الضخم (الصناعات الرأسمالية بشكل عام) تتجه نحو التركيز ـ نحو أنظمة المنافسة المحدودة حيث يهيمن عدد قليل من المنافسين. كان هذا هو الاتجاه ـ كما يذكر «ماك تشينسي» (1997) ـ الذي كان يميز معظم القرن الماضي «قوميًا في الهدف بشكل عام». ويعد منطق المنافسة المحدودة في الاقتصاد «التنافسي» بسيطًا بشدة: كلما كنت أكبر، كانت لديك حصة أكبر في السوق واستطعت الهيمنة على منافسيك أو الاندماج معهم. ويعد تاريخ صناعة الإعلام في الولايات المتحدة، كما أوضح «دينيس دبليو. مازوكو» (1994)، واحدًا من الامتدادات وأشكال التركيز الصارمة (التي انحرفت فقط بشكل عرضي ومؤقت بسبب القوانين المقاومة للتروستات). ومع منافسين

أقل حول اتجاهات المنتج الإعلامي للحصول على تنوع محدود ـ فأنت تظل تتعامل مع من يقوم بالبيع. وبشكل عام، فإن هذا يحد من الابتكار، ومن الاختيار، ومن الاختلاف. وتتمثل النتيجة المتعذر تغييرها بأنه وراء المظهر الخادع للاختلاف عادة ما يتوارى التشابه الكئيب ـ مثل اختيارنا للسيارة أو اختيارنا للمسرحية التي تعالج مشكلات الحياة المنزلية أو الصحيفة.

وإذا تم التعود على مثل هذه الحالة المملة بشكل أساسي، تصبح العملية جزءًا من الذات ويمكن أن تبدو طبيعية تمامًا. وربما توجد هناك طرق أخرى للتواجد والرؤية، ولا تميل إلى الانتظام أو الوضوح. وكما يعترف «مازوكو» Mazzocco نفسه في الفقرة الأولى بكتابه، مثل «طفل التليفزيون» في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، «إن الكثير جدًا مما تعلمته وآمنت به بشأن العالم كان قد تمت تصفيته عبر الأساطير والأوهام المشتركة في التليفزيون والراديو التجاريين بالولايات المتحدة» (1994: 9). وربما يبالغ إلى حد ما من أجل تأييد رأيه، لكن آراءه تعد واضحة: يمكن أن تتشكل وتتكون نظرتك للعالم من خلال الكشف المستمر عن الإعلام الضخم وذلك بشكل مهيمن وربما حاسم.

يمثل الإقناع أيضًا جزءًا كبيرًا من أعمال الإعلام الضخم: إقناع شخص ما لشراء هذا، أو لاكتشاف هذا الشيء المرفوض، وذلك الشيء المنطقي. ومن ناحية السياسة تكوين الرأي الذي يشكل العوامل الثابتة لسياستنا، قام الإعلام الضخم أيضًا بالاستغلال التدريجي في ثقافات المجتمع المدني بشكل واضح. وقد أصبح «نوم تشومسكاي» ـ من خلال نشر كتاب «إدراك التصنيع» Manufacturing Consent، الكتاب الذي قام بتأليفه بالاشتراك مع «إدوارد هيرمان» Edward Herman ـ مشهورًا بشكل كبير (أو غير مشهور، يعتمد ذلك على مكان إقامتك) لقيامه بتحليل كيفية عمل الإعلام الضخم في الديمقراطيات الليبرالية. ويعد ما نراه، ونسمعه، ونقرأه كل يوم، طبقًا لـ «تشومسكاي»، ترجمة صحية للحقيقة، وقد مرت «البقية النقية» عبر طبقات عديدة من «التصفية» قبل أن تصدم أعيننا أو آذاننا (1994: 2). وكان «تشومسكاي» صريحًا فيما يتعلق بكيفية عمل الإعلام الضخم. وصرح قائلًا:

> يخدم الإعلام الضخم كنظام لنقل الرسائل والرموز إلى الجماهير. وذلك يمثل وظيفتها لإمتاع وتسلية الأفراد وتقديم المعلومات لهم إلى جانب القيم، والمعتقدات، والأنظمة السلوكية التي سوف تدمجها في الهيكل المؤسسي للمجتمع

الأكبر. وفي عالم الثروة المركزة والصراعات الكبرى للمصالح الطبقية، فإن تحقيق هذا الدور يتطلب دعاية منظمة.

(1994: 1)

يعد «نموذج الدعاية» كما يطلق عليه «تشومسكاي» أكثر التواء من النصوص الصريحة التي اعتيد انبثاقها من «أعضاء» الإعلام الضخم ذي الإدارة الحكومية في الدول الشيوعية السابقة. أصبح «نظام التصفية» يتنامى تدريجيًا وينقح خلال سنين طويلة، ويؤكد «تشومسكاي»، أنه اليوم يعد معقدًا، ودقيقًا، ومرنًا، وأصبح قوة متغلغلة داخل الإعلام. وهو يحدد خمسة مستويات من خلالها تتم تصفية «الأخبار». وهي:

- الحجم، والملكية المركزة، وتوجيه الربح لمنشآت الإعلام الضخم،
- الحاجة إلى أخذ المعلنين في الاعتبار في تقرير ما يجب طباعته وبثه. مثل مصدر الإعلام الضخم الرئيسي للدخل، ولا بد أن يتعرض الرعاة للأذى من خلال الأخبار أو المعلومات التي قد تضر مصالحهم أو تشوه صورتهم،
- اعتماد الإعلام على المعلومات التي يتم إمدادها من قِبل الحكومة، والأعمال، و«رأي الخبراء»،
- دراسة الإعلام من خلال «الهجوم»، أو نقد المقالات، أوالبرامج، أوالقصص، أو الرأي الذي يتوه خارج «النموذج»، كرأي «منحرف» أو يشوبه «الخلل»،
- الليبرالية الجديدة والسوق كعقيدة قومية وأساس يتم الحكم من خلاله على الأخبار والرأي. بمعنى آخر، إذا كانت الأخبار أو المعلومات معادية للسوق وقيم السوق بشكل مستمر، فإنها سوف تدخل من أجل «الهجوم» والجاد.

(35 – 1 :1994)

يمثل «نموذج الدعاية» هذا الذي يتسم بالمرونة والدقة ما يطلق عليه «تشومسكاي» «إطار جدول الأعمال»، الذي بواسطته يحدد «إعلام الصفوة» ـ الملاك والمهيمنون الكبار ـ جدول أعمال الأخبار للبقية للمتابعة. ويذكر:

إذا كنت تشاهد برنامج «أسوشياتيد بريس» Associated Press في منتصف فترة الظهيرة ـ الذي يقدم تدفقًا مستمرًا للأخبار ـ تجده ينقطع ويظهر شيء ما يوميًا حيث يقول «ملاحظة إلى المحررين: تومورروز نيويورك تايمز New York Times Tomorrows سوف تتضمن القصص التالية في الصفحة الأولى». والنقطة الرئيسية هنا أنه إذا كنت محررًا لصحيفة في «دايتون» Dayton و«أوهايو» Ohio ولا تملك المصادر للكشف عن الأخبار، أو لا تريد التفكير فيها بأي حال، فإن ذلك يجعلك تعرف الأخبار.

(تشومسكي 1997)

يعد كل من إطار جدول الأعمال والتصفية ـ كما ذكر ـ عمليتين تتميزان بالدقة والمرونة. وبالتالي، فإن الأخبار تميل إلى أن تظهر كـ «هدف»، لتعكس تنوعًا في الرأي وما إلى ذلك. لكن كما يؤكد «تشومسكي»، يعد هذا خيالًا بشكل كبير. إن معظم ما نراه، ونسمعه، ونقرؤه من الإعلام الضخم يعكس بشكل أو بآخر «الأيديولوجيا السائدة» وقيمها. إن الطريقة المفيدة للنظر في إطار جدول الأعمال تتمثل في رؤيته كإعلام ضخم يخبرك في ماذا يجب التفكير ـ كما فعل مشروع تدعيم الدعاية Propagandaministerium بزعامة «جوبيلز» Goebbels في «ألمانيا النازية»، أو أيديولوجية الحكومة الشمولية INGSOC التي كتب عنها «أورويل» Orwell ـ عام 1994 ـ لكن ما الذي يمكنك التفكير فيه. وقد أوضح «تشومسكاي» هذه النقطة بعد كارثة 11 سبتمبر 2001 عندما قال إن معظم الحيرة العامة المحلية التي تم التعبير عنها بـ «لماذا نحن؟»، أو «لماذا يكرهوننا بشدة؟» كانت تمثل تأثيرًا مباشرًا من قصور النقد الإعلامي لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. ورغم الحقائق والقصص التاريخية المتاحة بشكل واسع، فإن النقد المدعم للسياسة الخارجية للولايات المتحدة يعد موضوعًا محرمًا بشكل كبير في الإعلام الضخم بالولايات المتحدة، بعيدًا عن العوامل الثابتة لما يمكن أن تتم مناقشته أو التفكير فيه. وبالتالي، يقول «تشومسكاي» إن معظم الأمريكيين لا يمكنهم ببساطة فهم لماذا حدثت التفجيرات. وبالتأثر برأي الرئيس نفسه، اشترك عدد كبير من الناس في فكرة أن الأفعال الإرهابية كانت ببساطة نتيجة «شر» المختطفين غير المحسوب، والكراهية غير المبررة لـ «حريات» أمريكا (2001: 5 – 34).

في كل التقارير تقريبًا الخاصة بتأثيرات الإعلام الضخم، تبدو قوة الإعلام كعامل شديد الأهمية. القوة للهيمنة على الأسواق، والقوة لوضع جداول الأعمال، والقوة لتكوين الرأي وتشكيل القيم. وقد ذكر من قبل أن صناعات الإعلام الضخم ـ والحديث هنا بشكل عام ـ كانت «قومية النطاق». ورغم ذلك، سوف يكون ذلك واضحًا للكثير من القراء غير الأمريكيين، خاصة، أنه أصبح هناك بعد دولي لهذا، في شكل الكشف عن زيادة كم الإعلام الضخم والثقافة الضخمة في الولايات المتحدة. وقد أصبح هذا مضمونًا بشكل أساسي من خلال فترة ما قبل تنامي القوة الاقتصادية والسياسية الأمريكية. ومثل الصناعات (الصناعات الثقافية)، فقد تدفقت القوى المحركة للاستعمار الثقافي والإعلامي بشكل طبيعي كجزء من منطق رأسمالية الولايات المتحدة الممتدة عالميًا (ماترلارت Matterlart 1979). وطبقًا لذلك، أصبح مجال الإنتاج المحلي الثقافي (غير الأمريكي) مستعمرًا من قِبل الثقافة «الأجنبية» وليس أكثر كثيرًا من قِبل الثقافة الأمريكية. كما طرح ذلك «جوناثان ويبر» Jonathan Weber (2002)،

> **لا توجد شركة تقوم بنقل صورة القوة الثقافية المهيمنة بشكل أكثر تأثيرًا من «والت ديزني» Walt Disney. كان مؤسسها وطنيًا ومخلصًا بشدة والذي رأى نفسه مغيرًا للقيم في المنطقة المركزية في «أمريكا». ولا تعد منتجات وخدمات الشركة ـ خلافًا للهامبورجر الجاهز أو المشروبات غير الكحولية ـ مجرد رمز لأسلوب الحياة الأمريكية، لكنها تتضمن، كجزء من جوهرها، مجموعة من المعتقدات بشأن الخير والشر والطموح الإنساني. علاوة على ذلك، فقد أصبحت «ديزني» لديها تاريخها الرائع للغاية فيما يتعلق بصناعة المنتجات البناءة والمدعِمة تبادليًا عبر الكثير من الأنواع المختلفة من الإعلام، إلى جانب مساحات من الأرض المخصصة لعرض الهوايات وعروض التليفزيون والأفلام والبضائع، كل ذلك يعمل معًا لخدمة طريقة «ديزني».**

بالطبع، تعد «ديزني» القوة المؤثرة الوحيدة في نقل «الاستعمار الثقافي الأمريكي». وهناك الكثير من القوى المؤثرة الأخرى التي يمكننا جميعًا إدراكها وربما استهلاكها يوميًا. وربما تفجر B52s الأمريكية القنابل الحارقة في «العراق»، و«أفغانستان»، وأي مكان آخر يرون حاجة إلى تفجيره، لكن الصناعات الثقافية الأمريكية ترتبط أيضًا بما يطلق عليه «ناعومي كلاين»

Naomi Klein (2000) «قنبلة العلامة التجارية». ويؤكد كل من «ماكدونادز»، و«ستارباكس»، و«نايك»، و«جاب»، والتيار المستمر من «الأفلام الرائجة» في «هوليوود» في قلب الولايات المتحدة، وبرامج التليفزيون أن معظمنا يرى أننا «نعرف» أن المكان بدون ذلك ينتهي أمره. وبشكل واضح، فإن هذا الإدراك للعلامة التجارية والشعور بأن العناصر المهمة للثقافة الضخمة الأمريكية تمثل جزءًا من مسرحنا الثقافي الخاص بنا الذي لا يعمل بالطريقة الأخرى بسهولة. على سبيل المثال، فإن الغياب الواضح لهذه العناصر في متوسط عدد المراكز التجارية بالولايات المتحدة يعبر عن مقدار وافر من رموز ثقافية ضخمة غير أمريكية مثل «بووتس» للكيماويات، و«كارفور» للمتاجر الكبرى، و«فيچيهايت» للأغطية، و«ويمبي» للهامبورجر، ومتاجر «ديڤيد چونز»، إلخ ـ العلامات التجارية والرموز التي يمكن ملاحظتها باستمرار في أجزاء كبيرة من «بريطانيا»، وقارة أوروبا، وشرق آسيا، و«أستراليا».

الإعلام الشبكي، والثقافة الشبكية: غياب الحوار

يشكل أي وسيط جديد بيئة تلقي الظلال الثقافية العميقة.

(نجوين Nguyen وألكسندر Alexander 1996: 101)

وقد عرض الفصل الأول بعض طرق التفكير بشأن الشبكات ومجتمع الشبكات. وينظر معظم هذا الفصل إلى الإعلام والثقافة كـ «مجالات» تتفاعل لتكوين وتشكيل بعضها البعض داخل إطار مجتمع الإعلام الضخم. وأصبح الهدف يتمثل في عرض القوى المحركة لهذين المجالين ـ بشكل عام ـ قبل أن تؤدي عملية إضفاء «المعلوماتية» عليهما إلى دمج و(الآن) تطوير نفس السطح الرقمي.

وللوصول إلى هذه النقطة، دعونا نواصل المناقشة من خلال تتبع (وإعادة تتبع بشكل عرضي) منحنيات مجتمع الشبكات ثم محاولة الوصول إلى بعض الاستنتاجات مع اعتبار أن هذا يمثل مجال إعلام ومجال ثقافة. وبشكل خاص، سوف يستنتج هذا القسم أن «مجالات» الإعلام والثقافة التي تتفاعل وتُمكِن من إنتاج كل من الثقافات المتنوعة والكفاءة الثقافية في مواجهة الإعلام تعد غائبة نتيجة انتشار عمليات المعلوماتية داخل أكثر المجالات عمقًا. وسوف ينتهي الفصل ببعض الملاحظات حول المعاني الضمنية الاجتماعية والثقافية لهذه التطورات.

لقد شهدنا كيف تم إرساء قاعدة الشبكات الرقمية ـ من خلال التقاء تكنولوچيات المعلومات والاتصال المتميزة للحواسب الآلية سابقًا، والأقمار الصناعية، والأسلاك، والإرسال التليفوني. وشهدنا أيضًا كيف تم دفع هذا بشكل مبدئي من خلال الأيديولوچيا (أيديولوچيا الليبرالية الجديدة) ومن خلال اقتصاديات هيمنة السوق وقوانينه الصارمة، وذلك في أثناء بدايات ظهور ما أطلق عليه «العولمة» الاقتصادية. ومن ناحية بُعدها الإعلامي الضخم يستلزم هذا تغييرًا في الشبكات الإعلامية العالمية حيث تغيرت السمة «القومية بشكل عام» للتطور الإعلامي بشكل سريع إلى سطح (رقمي وعالمي) آخر. كما طرح كل من «هيرمان» Herman و«ماك تشيسني» 0020McChesney (1997: 10)،

> **يعد انبثاق نظام الإعلام العالمي تطورًا حديثًا للغاية، مما يعكس درجة ليست قليلة من عولمة اقتصاد السوق. ورغم أن الإعلام العالمي يعد الجزء الوحيد من الامتداد والانتشار بشكل عام من نظام مشترك متكامل وعالمي بشكل متزايد، فهو يكمل ويدعم احتياجات المشروعات غير الإعلامية.**

يعد «التكامل» هو مفتاح العمليات التي يصفها كل من «هيرمان» و«ماك تشيسني». وهو يضع الإعلام (الفن، والأخبار، والمجلات، إلخ) في نفس المنطق الرقمي والعالمي مثل التعليم، أو الخدمات، أو التصنيع، أو سوق الأوراق المالية، أو أي شيء آخر يمكنك أن تفكر فيه تقريبًا. وكان تأثير مشاركة سطح تكنولوچي ووجودي متشابه مع الرأسمالية يعني أن «الحالة الخاصة» التي تعاظمت سريعًا للإعلام ولدور الصحافة كعنصر «حاسم» و«موضوعي» ـ على وجه التحديد ـ تتقلص. وكما تطرح «كاثرين آينجر» Katherine Ainger ذلك بشكل بليغ في مجلة «نيو إنترناشيونليست» New Internationalist (2001):

> **ولم يصبح الإعلام «مؤيدًا للعولمة» كثيرًا كجزء متمم للعملية. ولا تمثل الليبرالية الجديدة بالنسبة لمعظم الصحفيين أيديولوچية اقتصادية يمكن أن تتعرض افتراضاتها الرئيسية للتحدي، فكل ما يهم «الحقيقة» فقط.**

علاوة على ذلك، كان تخفيف القيود التقليدية لتجارة البضائع والخدمات يعني أنه خلال التسعينيات من القرن العشرين كانت المؤسسات الإعلامية ـ مثل الصناعات الأخرى تمامًا

التي استخدمت الموجة التكنولوجية مبكرًا ـ قادرة على النمو بصورة سريعة ومتزايدة حيث كانت ترى العالم بأكمله كسوق متوقعة لها. ويذكر كل من «هيرمان و»ماك تشيسني» (1997: 41) أن «المنافسين المهيمنين» الآن «يهددون أسواق الإعلام كسوق عالمي منفرد إلى جانب الأقسام الفرعية المحلية». ومن الممكن أن توضع الإستراتيجية الإعلامية الجديدة فقط من خلال استخدام شبكات تكنولوجيات المعلومات والاتصال المدمجة والمتصلة بعضها ببعض. ويعد هذا ـ بدوره ـ عولمة تحولت إلى حقيقة، من خلال ما أطلق عليه «دان شيلر» Dan Schiller «الرأسمالية الرقمية»، حيث تصبح العمليات الاقتصادية عمليات رقمية بشكل شامل من خلال القوى الثورية لرأسمالية الشبكات. ويصور «شيلر» «شبكات نظام السوق العالمي» على أنها شكل كامل منفرد ومستوٍ تم تكوينه وتحديد تفاصيله من أجل وبواسطة المؤسسات العملاقة. إن مجموعة من سياسات السوق الحر التي وضعتها الحكومات في أنحاء العالم والفرص التي نتجت من تكنولوجيات المعلومات ذاتها كانت تعني أن الشركات الإعلامية ـ أكثر من أي صناعة أخرى ـ كانت قادرة على الازدهار والهيمنة، لتصبح ما يطلق عليه «شيلر» «الإعلام الضخم رأسيًا».

ما هو «التكامل الرأسي»؟ قبل ظهور الليبرالية الجديدة والعولمة الاقتصادية، كان «التكامل الأفقي» هو ما يهدف إليه الإعلام الواسع. كان هذا لا بد ألا يغير بشكل أساسي معرفتك السابقة المتعلقة بتطوير الأعمال. على سبيل المثال، كان لا بد أن تركز شركات إنتاج التليفزيون ـ كما يتطلب المنطق ـ على الإنتاج. كان لا بد أن تبذل قصارى جهدها لتثقل خبرتها ومركزها المهيمن داخل محراب إنتاج أجهزة التليفزيون. فقد كان لا بد أن يكون إنتاج أجهزة التليفزيون هو ما «تفعله» هذه الشركات. علاوة على ذلك، كانت هناك قوانين في الكثير من الدول تحد الأعمال من أن تتوسع أكثر من ذلك. وعلى الجانب الآخر، قام «التكامل الرأسي» بتطوير مذهب الليبرالية الجديدة في المنافسة و«حق» مُلاك ومراقبي رأس المال في الدخول في الأعمال التي يرون أنها قد تدر ربحًا. وكان هذا يعني بشكل أساسي أن أي شركة طموحة وناجحة عالميًا في مجال إنتاج التليفزيون كانت لا بد أيضًا أن تكون في حاجة إلى استثمار الأموال في التوزيع أيضًا، لكنها تتطلب محطة تليفزيون. هذا لكي تكون قادرة على التحكم في المحتوى ولكي يتجه التوزيع نحو منافس قوي للغاية داخل صناعة التليفزيون بأكملها. وإذا كان الحجم عنصرًا

مهمًا في نظام الاندماج والسوق الحرة، فإنه من المستحيل التوقف عند حدود خبرة ومعرفة الشخص. وفي الواقع، فإنه لم يعد هناك فائدة أو نفع للنظر إلى قطاعات الإعلام التقليدي مثل «التليفزيون» بشكل مستقل، لذلك فإن ترابط القطاعات أصبح ملائمًا لصناعة الإعلام. وكما يرى «ماك تشيسني» (1999).

> ... تخفق دراسة قطاعات الإعلام الخاص في نقل مدى وطبيعة النظام في الوقت الحالي، لأن المؤسسات الإعلامية لم تعد تعتمد على التكامل الأفقي. واليوم تقوم هذه المؤسسات بالسعي وراء «التكامل الرأسي»، ليس فقط في حجم الإنتاج لكن أيضًا في توزيع الملكية. علاوة على ذلك، فهي تعد جهات منافسة كبيرة في قطاعات الإعلام التي لا يعتقد أنها مترابطة بالشكل التقليدي. وتمتلك هذه المؤسسات الكبرى بعض مجموعات شبكات التليفزيون، وإنتاج البرامج التليفزيونية، والمحطات التليفزيونية، واستوديوهات تصوير الأفلام، والقنوات التي تنقل عبر الأسلاك، والأنظمة السلكية، وشركات الموسيقى، والمجلات، والصحف، ودور نشر الكتب.

وفي نفس الاتجاه الذي يقوده نفس المنطق تمامًا، لا يمكن لـ «العلامات التجارية» الشهيرة في أنحاء العالم مثل نادي كرة القدم «مانشستر يونايتد» Manchester United أن تكتفي ببساطة بإنزال فريق إلى الملعب كل يوم سبت (أو اثنين، أو أحد، أو أي وقت يتفق عليه التليفزيون شفهيًّا). ويستلزم التكامل الرأسي أن يكون الفريق كـ «منتج»، أو «محتوى»، متكاملًا مع «التوزيع» من خلال محطته التليفزيونية «إم يو تي في» MUTV. وكما أن «العلامة التجارية» لا بد أيضًا أن تتشارك مع اللاعبين المشهورين، الذين يمثلون أيضًا «علامات تجارية»، فإن «حقوق التقليد» سوف تصبح مطلبًا شرعيًّا عبر تجارة السلع «ذات العلامات التجارية» التي لا تعد ولا تحصى في «متاجرها الضخمة» و موقع شبكة الإنترنت الإجباري. وفي عصر الإعلام العالمي، لا بد أن تعتمد كرة القدم الآن بشكل أقل على الذين يسددون المال عند بوابة الدخول وأن تعتمد بشكل أكبر على التليفزيون وحقوق الرعاة، والنسخ المطابقة للقمصان ذات الأسعار الباهظة، والممتلكات الشخصية ذات العلامات التجارية مثل الألعاب المصنوعة من القماش وأطقم الألحفة وساعات اليد وأكواب القهوة، وأي شيء آخر يمكن أن يفكر فيه

المسوقون تقريبًا. وفي الواقع، كانت أيضًا تجربة تنظيم «مانشستر يونايتيد» هي أن مؤسسة «روبرت ماردوخ» الإخبارية حاولت أن تتولى إدارته في عام 1998 لكي تضمن لنفسها حصة أكبر في سوق «الإعلام الرياضي». وقد توقف فقط بسبب بعض الأعمال العدائية من قِبل الجماهير بسبب تحول «التقاليد» و«ثقافة» الفريق المعروفة إلى مصالح تجارية غير أخلاقية ـ العملية التي أصبحت سائدة لسنوات قبل الاتجاهات الشرسة لتلك المؤسسات الإعلامية الكبرى الخاصة.

إن الضعف النسبي للقواعد المطبقة على الملكية المشتركة للإعلام من قِبل الحكومات الأكثر أو الأقل توافقًا مع مدخل عدم التدخل الحكومي laissez – faire قد أتاح تركيزًا مفرطًا للإعلام العالمي في أيدي القليل من التكتلات الضخمة. ويرى «شيلر» هذا على أنه لعبة قوة عالمية مستمرة حيث إن «الممتلكات التي تقدر بالمليارات ـ استوديوهات تصوير الأفلام، وشبكات الإذاعات، وشركات إنتاج حزم البرامج، والأنظمة السلكية، والقنوات التي يتم بثها عبر الأقمار الصناعية ـ تذهب إلى ملاك جدد بشكل مذهل فيما يشبه لعبة البلي» (1999: 99). وقد ركز «ماك تشيسني» (1999) على هذه المبادلة المذهلة بشكل أكثر تفصيلًا. فيذكر أن:

> **تمتعت المؤسسات الإعلامية الضخمة بمعدل نمو مذهل في العقد الأخير. وفي عام 1988، حققت «ديزني» 2.9 بليون دولار أمريكي سنويًا من مدينة الملاهي وشركة الرسوم المتحركة، وفي عام 1998، حققت «ديزني» 22 بليون دولار أمريكي من المبيعات. وفي عام 1988، حققت «تايم» Time 4.2 بليون دولار أمريكي من شركة النشر وحققت «وارنر كومينيكيشان» Warner Communication 3.4 بليون دولار أمريكي من المؤسسة الإعلامية الكبرى، وفي عام 1998، حققت «تايم وارنر» Time Warner 26 بليون دولار أمريكي من الأعمال التجارية. وفي عام 1988، حققت «ڤياكوم» Viacom 600 مليون دولار أمريكي من أعمال النشر والتجهيزات السلكية ببساطة، ومن المتوقع أن تحقق «ڤياكوم» الجديدة 22 بليون دولار أمريكي من الأعمال التجارية في العام القادم. علاوة على ذلك، يبلغ معدل كل من هذه المؤسسات على الأقل سهم واحد ـ لتشارك بذلك كل منها بملكية فعلية للشركة ـ إلى جانب ست من**

> ثمانٍ من المؤسسات العملاقة الأخرى. وتمتلك «نيوز كوربوريشان» News Corporation لـ «روبرت ماردوك» على الأقل مشروعًا مشتركًا واحدًا مع كل منها. وتمتلك شركة «إيه تي أند تي ليبرتي» AT&T Liberty 10 في المائة تقريبًا من كل من «نيوز كوربوريشان» و«تايم وارنر». ويبدو هذا أكثر من أن يكون اتفاقًا احتكاريًّا مثل الذي أنشأه السوق التنافسي الأسطوري.

ماذا يحدث خلال هذه العمليات؟ بأية طريقة يختلف إعلام الشبكات عن الإعلام الضخم التقليدي ـ وماذا يعني هذا التغيير بالنسبة لمجالات الاختلاف التي تعد أساسية بالنسبة لإنتاج التنوع الثقافي؟ يتمثل الاختلاف ـ كما نستنتج من المناقشات في هذا الكتاب ـ في تأثير الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وانعكاسًا لما قلت من قبل في المناقشة التي دارت حول العولمة، ماذا يمثل «الإعلام» وما الذي جعله مكثفًا وموسعًا خلال عملية الالتقاء. وهذا يعني ـ كما يرى الأسكتلندي «لاش» في كتابه «نقد المعلومات» Critique of information (2002: viii) ـ أن مجتمع الشبكات يعد في نفس الوقت مجتمع إعلام. ولم تعد صناعات الإعلام مختلفة (ولو درجة واحدة فقط) عن الصناعات الأخرى بصورة تحليلية وعملية. وتقوم تكنولوجيات المعلومات بتسويتها كلها على سطح رقمي أحادي. وما سوف أقوم بوصفه في الفصل الرابع أن «الثقافة الوسطية» يمكنها ـ من خلال الترابط التبادلي والمزدحم بشكل متزايد ـ أن تتغلغل إلى كل مكان في الحياة الاجتماعية والثقافية. إنها تذيب مجالات الاختلاف حيث ينتج التنوع الثقافي. وفي المجال الرقمي، تتساوى چيڤينتشي Givenchy ثقافيًّا مع «سي إن إن» CNN من ناحية منطقها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، و«ماكدونالدز» McDonald«s مع «موتورولا» Motorola، وسابواي Subway مع «مانشستر يونايتيد» Manchester United وهكذا. ويرى «لاش» أننا الآن نعيش في عصر أصبحت فيه «الحياة الاجتماعية والثقافية تتغلغل عن طريق الإعلام» وما كان يعد «مجتمعًا» أصبح الآن إعلامًا بقدر ما هو مجتمع... وما كان يعد «ثقافة» أصبح الآن إعلامًا بقدر ما هو ثقافة» (2002: 7 – 66).

ولأن مجتمع الشبكات في طريقه إلى أن يكون أكثر شمولًا بشكل كلي فهو يقوم أيضًا بعملية تقليص للجدل الإعلامي ـ الثقافي. وهناك «مجالات» أقل و«مسافة» أقل له لكي يعمل كما كان. وهذا يطرح قضايا بالغة الأهمية بالنسبة للمدافعين عن فكرة أن العولمة ومجتمع الشبكات يعتبران

افتتاحًا لبداية عهد جديد من التنوع الثقافي والمزيج الثقافي، حيث يعتمد الاختلاف على الاختلاف لإنتاج أشكال ثقافية جديدة ودائمة التغير (على سبيل المثال «رينجولد» Rheingold 2000).

ويذكرنا «ستيوارت هول» بالفعل بأن «الثقافة العالمية تتطلب الاختلاف وتزدهر اعتمادًا عليه» (1997: 211). ورغم ذلك ـ داخل مجتمع الشبكات ـ فإنه من الصعب بشكل متزايد وجود «الاختلاف» في شكل بدائل فعلية وحقيقية من وجهة النظر العالمية، وفي المعاني المستمدة من الرموز والممارسات. وتحتل مسيرة المعلوماتية التي يتم دفعها للأمام مجالات الاختلاف التي تنتج التنوع الثقافي بشكل أكثر سرعة وشمولًا أكثر مما يقدر عليه الإعلام الضخم التقليدي. ذلك كما طرح «پول دو جاي» Paul du Gay (هول 1997: 210)،

> **... إن الإعلام الإلكتروني الجديد لا يسمح فقط بتوسع العلاقات الاجتماعية عبر الزمان والمكان، لكنه أيضًا يعمق هذا الاتصال المتشابك العالمي عن طريق إلغاء المسافة بين الناس والأماكن، ليجعلهم على اتصال قوي ومستمر مع بعضهم البعض أولًا بأول...**

وفي الثقافة العالمية التي تنبثق من مجتمع الشبكات، يعتمد الشخص على «إلغاء المسافة»، ويميل الاختلاف إلى أن يكون ضعيفًا وذي مستوى سطحي، مثل اللحم الحلال في «ماك هاپي ميل» McHappy Meal في «كوالا لامبور»، أو اللهجة الهندية الغربية التي تقدم بها الأخبار في محطة «بي بي سي» العالمية.

ويتفاقم ذلك عن طريق عامل آخر. ناقشنا في الفصل الأول بعض القضايا المتضمنة في مجتمع الشبكات الذي يتولد عنه «التسريع الرقمي» الخاص به ـ وذلك ما تطلق عليه «باربارا آدم» Barbara Adam «الإيقاعات الزمنية». ويمثل كل هذا «الوفرة من الأزمنة» التي تغمر الوعي، والذاكرة، والسرد، ووظائف الأعضاء و«التي تتغلغل وتنفذ إلى حياتنا اليومية» (1995: 12). يعد هذا الإنتاج الثقافي، طبقًا لرأي «أدام»، «قائمًا بشكل سياقي». وتفيد هذه السياقات (أو المجالات) كأساس لإنتاج اللامحدودية في تنوع الثقافة الإنسانية. وقد أدى كل من قدوم الساعة الزمنية وانتشار الرأسمالية إلى الاستخدام التدريجي الشديد لهذا التنوع من خلال وضع المجتمع على أساس أكثر وسطية ومنطقية. ورغم ذلك، فإن عمليات العولمة الاقتصادية وثورة

تكنولوچيا المعلومات والاتصال قد وضعت عملية الغزو في سطح آخر تمامًا (روبرت حسن 2003). وكما يرى المُنظِّر في مجال الإعلام والحاسب الآلي «مادز هار» Mads Haahr (2001)،

> غالبًا ما نخفق في إدراك أن تفاعلنا مع العالم يمثل حلقة تغذية مرتدة: حلقة يمكننا اختيارها لجعلها إما مجدية أو ضارة. وكشركاء في ثقافة فعالة ـ نأخذ ونعطي ـ يمثل هذا جوهر تفاعلنا مع البيئة المحيطة. ويوجد هذا التدفق الثنائي للأدء في كل مكان: في اللغة (سمع/ قول)، وفي التكنولوچيا (أجهزة حس/ تغذية مرتدة)، وفي الاقتصاديات (طلب/ عرض)، وفي علم الأحياء (حافز/ رد فعل)، وفي الحواسب الآلية (مدخلات/ مخرجات). وتشجع أنماطنا الثقافية الحالية نموذجًا تسريعيًّا للتفاعل: النموذج الذي يتوقع المعدل الذي لا يكون فقط عاليًا لكن أيضًا متناميًا. إننا نُعلِم أنفسنا بأن السرعة شيء جيد، وأن أسلوب الحياة السريع الخطى (الانشغال) يعد علامة مؤكدة للنجاح وإذا كان يمكننا الإدارة/ العمل/ الخلق بشكل أسرع من نظرائنا، فإننا سوف نعمل بشكل أفضل منهم. لكن يعد التسريع خاصية محفوفة بالخطر والتي تتأسس عليها الثقافة، لأن حلقة التغذية المرتدة المغلقة بإحكام بشكل مستمر سوف تصبح في النهاية ضيقة للغاية بحيث يصعب العمل بشكل جيد. ولكي تعمل حلقة التغذية على المستوى الإنساني، فنحن في حاجة إلى الوقت للتفكير مليًّا وللاستيعاب، وذلك لاستخلاص المعلومات وتحويلها إلى معرفة، ولتحويل التجارب إلى خبرة.

وعند درجة بالغة الأهمية، أصبحت الثقافة إعلامًا وأصبح الإعلام ثقافة، إلى جانب الصفة المشتركة بينهما المتعلقة بالاتصال المتبادل وتكنولوچيات المعلومات المتسارعة. وقد أصبحت الثقافة وسيطًا ـ وسيطًا رقميًّا. علاوة على ذلك، فإن عملية التجانس الثقافي لديها نتيجتها الطبيعية، وهي التشتت. ويمثل ذلك تناقضًا عميقًا داخل مجتمع الشبكات، حيث إنه يقوم بتعميق الترابط المتبادل مع بعضنا البعض، ثم يقوم أيضًا بتجزئتنا وتباعدنا (كاستيلز Castells 1996: 3). إن تقليص الوقت والمسافة عبر الإنترنت، والبريد الإلكتروني، وما إلى ذلك يعني أنه يمكن أن يكون لدينا بشكل متزايد الكثير والكثير من الخصائص المشتركة مع الجماعات المهتمة التي ربما تقوم بدور الوسيط في الكوكب بأكمله أكثر من الأخ، أو الجار، أو الصديق. ومن

الممكن جدًّا أن يشاركنا إخواننا، أو جيراننا، أو أصدقاؤنا في اهتماماتنا، لكننا في الحياة المتسارعة بصورة متزايدة في مجتمع الشبكات لا نمتلك الكثير من الوقت أو الفرص لـ «الاتصال» بهم مدة أطول بالطريقة غير الرقمية.

هناك اتجاه متغير آخر بسبب اختفاء الجدل الناتج عن المعلوماتية. وهو فهم الإعلام حيث كان الناس قادرين على التطور من خلال تطبيق المصطلح الذي صاغه «فايسك» «الكفاءات الثقافية» ـ مهارة حسن التمييز التي تغيرت خلال فترة حرجة ـ والتي حل مكانها «استيعاب التكنولوجيا» الذي لا يتضمن فترة حرجة. والتركيز هنا يكون على اكتساب المهارات بشكل مفيد من أجل «الإبحار» داخل الشبكة ولتحسين فرص حياتنا لأرقى حد ممكن في إطار القيود الموضوعة من قِبل منطق مجتمع الشبكات ذاته. وتمثل أيضًا هذه الخسارة في الكفاءة الثقافية نقصان في القدرة على نقد التكنولوجيات التي أصبح الكثير منا خبيرًا فيها للغاية وبارعًا بها، أو في فهم أي معنى عميق لما قد يعنيه كل هذا لنا، ولجماعاتنا، ولسياساتنا، ولمجتمعاتنا.

الاستمرار وليس الانتهاء

وبالطبع هناك أمل في كل هذا. ولا يعد «الحوار الغائب» الذي كان جزءًا من عنوان القسم السابق هو نفس «الحوار المغيّب»، وأعتقد أن «لاش» قد قام إلى حد ما بتحديد العملية بدقة من خلال القول بأنه «لا يوجد هناك خارج بعد الآن». ويعد هذا بشكل واضح هو الاتجاه الذي نستمر من خلاله، لكن هناك شك فيما إذا كان يمكننا الوصول بأية طريقة إلى هذه النقطة المتطرفة. لقد رأينا كيف أن انتشار مجالات الاختلاف من خلال الليبرالية الجديدة/ ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال تمثل في أساسها، عملية هيمنة. وتعد هذه هيمنة عبر المشروعات الأيديولوچية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية لليبرالية الجديدة من أجل وضع السوق والرأسمالية بصورة أكثر عمومية في قلب الوجود الإنساني. ونتيجة ذلك، بالطبع، إبعاد الطرق الأخرى الموجودة والمرئية عن طريق تهميشها أو نسيانها. إن عمليات المعلوماتية تعد أساسية بالنسبة لهذا.

رغم ذلك، فإن الهيمنة، كما يذكرنا «ويليامز» (1979: 252)، لا يمكن أن تكون كاملة أبدًا، وسوف يوجد هناك دائمًا مجالات وهي ما يسميها «الأفعال البديلة والأهداف البديلة» التي قد

تحدث. علاوة على ذلك، فإننا فقط نعد في بدايات تكوين مجتمع الشبكات. وهذا يعني أنه لا تزال هناك مجالات متخللة حيث قد يتطور كل من النقد وطرح الملاحظات حول خلق الفهم الإعلامي والكفاءة الثقافية سواء كانت شخصية أو جماعية. ورغم ذلك، تعد الحقيقة التي لا شك فيها أن هذه المجالات تعد أكثر صعوبة لإيجادها والتعايش معها.

وفي ميادين هذه النزاعات الثقافية، لا يزال الكثيرون يدركون الهيمنة الثقافية ويقاومونها عندما يرونها ويسمعونها ويقرأونها. ويمكن لهذا الإدراك أن يعمل كحافز للآخرين للبحث والنقد في تفاعلات الثقافة/ الإعلام الخاصة بهم. فعلى سبيل المثال، انتقد المخرج المسرحي الفرنسي «آريان منوتشكاين» Ariane Mnouchkine «باريس ديزني لاند» Paris Disneyland باعتبارها «تشيرنوبل ثقافية» (ويبر 2002 Weber). ورغم ذلك، لم يتعجل آخرون في رفض الثقافة «الأجنبية» في الحال. فهم يحاولون التأكيد على ما هو إيجابي في الصدام الثقافي وما قد يكون في الواقع علامة على نمو التركيب الثقافي الذي يخلق المزيد من التنوع. وفي مقابلة صحفية، ذكر «بيكو آير» Pico Iyer (1996) «الكاتب والرحالة» كيف أن الناس قادرون فقط على قبول التأثيرات الثقافية والإعلامية من الولايات المتحدة وأي مكان آخر، لكنهم يعيدون خلقها لأنفسهم. فعلى سبيل المثال:

> **في اليابان يلعبون البيسبول، لكنهم يبتسمون عندما يخطئون ولا ينزلقون إلى القاعدة الثانية لأنهم لا يريدون أن ينتهكوا الجانب المقابل. وفي الهند ... كانوا يقومون بعمل خمسة إصدارات مختلفة من «رامبو» Rambo ... ويكون في واحد منهم امرأة تلعب دور البطولة.**

يتحدث «آير» هنا بلغة الدراسات الثقافية الكلاسيكية عندما يؤكد أن الناس والثقافات لا يتشربون ببساطة، مثل الإسفنج، السيادة الثقافية للقوة المهيمنة. حيث يكون هناك تفاعل، وجدل في تلك العملية.

ورغم ذلك، فإن «تشكيل الثقافة» الذي يتحدث عنه «آير» يبدو لي بشكل أساسي رد فعل دفاعيًّا، وانسحابًا، ومحاولة لمواجهة عمليات الغزوات الثقافية التي لا يمكن إيقافها بسهولة. ويمكن أن يؤدي التراجع في الحرب إلى التعرض بسهولة للاجتياح والهزيمة المنكرة. مثال

ذلك «ماك هابي» المتلئ باللحوم الحلال في «كوالالامبور»، فإنه من المحتم أن الماليزيين المعرضين بشكل متزايد للثقافة العالمية عبر الإنترنت، والتليفزيون السلكي، وما إلى ذلك سـوف يتساءلون أحد الأيام ما إذا كانوا يتركون شيئًا ما «مثل» «الفطائر المحشوة 100 ٪ باللحم البقري، وكعكة بذور السمسم، وشريحة الجبن الأمريكي، وصلصة بيج ماك، والخس، والمخللات، والبصل، والملح، والفلفل» التي تحتوي على بيج ماك العالمي. ويتمثل تخميني في أن اللحم الحلال، والبيسبول الياباني، و«رامبو» الأنثى تعد أشكالًا من الثقافات التي في تراجع - تآكل الثقافات المحلية المتنوعة بسبب العولمة الطاغية والمتجانسة. وأشكالًا مصغرة من سلاسل أحداث ثقافية متشابهة تم استكمالها عبر العالم اليوم، ولم يفهم الكثيرون من متلقي الدراسات الثقافية والدراسات الإعلامية المقصود بسبب عرض مثل هذه الأشكال من التراجع كدليل على التمكين الثقافي «لما بعد الحداثة» ودليل على التنوع كبديل.

في الفصلين الخامس والسابع سوف أقوم بمناقشة الطرق التي من خلالها قد يتوقف التراجع الثقافي وتتم استعادة المبادرة لإعادة قوى الهيمنة واسترداد مجالات الاختلاف، حيث يمكن أن يعمل كل من التعددية والتنوع. وفي الحروب الثقافية التي تدار من خلال تكنولوجيات الإعلام، كما سوف نرى، فإن «الترتيبات» و«الإستراتيجيات» الهجومية تقدم المزيد من الوعود فيما يتعلق بالبحث عن التعددية والتنوع أكثر مما تقدم فيما يتعلق بالوسطية، والتراجع، والاندماج. ورغم ذلك، فإنه بالنسبة للوقت الحاضر أود أن أقدم تقييمًا أساسيًّا لمجتمع الشبكات بشكل معتمد على التجربة، في محاولة لفهم كثافته ونطاقه المتطرفين، وفهم كيفية تطور الوسائل المادية لمعلوماتية الإعلام والثقافة.

قراءات أخرى

Golding, P. and Murdock, G. (2002) Culture, communications and political economy, in J. Curran and M. Gurevitch (eds) *Mass Media and Society*. London: Arnold.

Kellner, D. (2002) *Cultural Studies, Multiculturalism and Media Culture*. www.gseis.ucla.edu/faculty/kellner/papers/SAGEcs.htm

Lash, S. (2002) *Critique of Information*. London: Sage Publications.

McChesney, R.W. and Herman, E.S. (1997) *The Global Media: The New Missionaries of Corporate Capitalism*. London; Washington, DC: Cassell.

Tomlinson, J. (1999) *Globalization and Culture*. Cambridge: Polity Press.

الفصل الثالث الاتجاه إلى الرقمية: العالم السلكي

أنا أقوم بالاتصال إذن أنا موجود

(لير Leer 2000: 157)

الاتصال...

إن كوكب الأرض مليء بالأسلاك. وتقوم مئات الآلاف من الكيلومترات من شبكة أسلاك بصريات الألياف بربط القارات بحلقات رقمية غير مرئية من البلاستيك والزجاج الرقيق الممتاز. وليس لدى هذه الشبكة الرقمية مصدر أو حدود، أي ليست لها بداية أو نهاية: ومنطقها يرتكز على اتصال، فوق اتصال، فوق اتصال. ومن ناحية أخرى، وللوصف، دعونا نبدأ في «پورثكورنو» Porthcurno في انجلترا، حيث تبـدأ شبكة أسلاك «وصلة الأليـاف الضوئية حول العـالم» Fibre–Optic Link Around the Globe (FLAG) التي تبلغ 28000 كيلومتر حول الكرة الأرضية. تبدأ من هنا وتمضي في طريقها نحو الجنوب الشرقي مرورًا بمضيق «جبل طارق» Gibraltar إلى إيطاليا وتعبر البحر الأبيض المتوسط حتى شمال أفريقيا. ثم تتخلل المياه في ميناء بورسعيد المصري وتسير برًّا عبر الصحراء الأفريقية العربية الشمالية. وعند هذه النقطة تغوص الأسلاك مرة أخرى بطول المحيط الهندي حتى خليج البنغال، ثم تسير شمالًا في قاع «بحر أندمان» Andaman Sea ـ الذي يجري عبر «تايلاند» ثم تسير نحو الشمال الشرقي عبر البحر الشمالي الصيني حتى «هونج كونج». ومن هناك تسير شبكة أسلاك FLAG عبر قاع شمال المحيط الهادي إلى «اليابان».

وتقوم الشبكة الممتدة عبر المحيط الهادي بطول يبلغ 30000 كيلومتر التي بدأ عملها في عام

1997 بربط «الصين»، و«اليابان»، و«كوريا» بالساحل الغربي للولايات المتحدة. وعلى الساحل الشرقي للقارة، تقوم العديد من الوصلات الممتدة عبر الأطلسي بوصل أمريكا الشمالية بأوروبا الغربية، لتكمل الدورة حول العالم. وتتشعب الروابط الفرعية من هذه الخطوط الرئيسية لتتصل بجنوب شرق آسيا وأستراليا، وأمريكا الجنوبية. وفي الواقع، فإن الشبكة سوف تندمج قريبًا مع القطب الجنوبي. وفي نهاية عام 2002 جاء في تقرير أن «المؤسسة الأمريكية الوطنية للعلوم» American National Science Foundation قدمت طلبًا من وزارة الصناعة لإصدار أمر ببناء وصلة بصريات ألياف عبر القطب الجنوبي. وكان من المخطط أن تكون تحت الاستخدام بحلول عام 2009 (وايتهاوس Whitehouse 2002). من هذه «المسارات الرئيسية»[1]، والمناطق، والدول، والمدن، والأعمال، والجامعات، والحكومات المركزية، والحكومات المحلية، والمجالس المحلية، والجماعات، ورابطة الأفراد إلى الشبكات عبر أنظمة الاتصال عن بعد المحلية والمتنامية الخاصة بها. ويعد بالتأكيد نظام بصريات الألياف، الذي يقدم شبكات الخطوط المتصالبة إلى الكوكب، نظامًا آخذًا في التزايد ولا يزال أكثر كثافة في مجال الاتصال اللاسلكي، وروابط القمر الصناعي، والأنظمة السلكية، ورابطة الهاتف ذي الأسلاك النحاسية التي تستخدم في تقديم خدمة الإنترنت والاتصال بالشبكة في كل مكان تقريبًا.

تعد الشبكة شيئًا ماديًا وحقيقيًا لكن بالنسبة لمعظمنا فهي توجد كفكرة مجردة غير مرئية. وبالنسبة لملايين وملايين الناس أصبحت الشبكة امتدادًا لاشعوريًا لأجسادنا كما قال «هربرت مارشال ماك لوهان»[2]، واضع نظريات الاتصالات. لقد أصبحنا مستقبلين وناقلين للمعلومات (قطبا الشبكة) الذين يقدمون فكرًا موجزًا مثل كيف تأتي إلينا أو تتدفق منا. ورغم ذلك، فإن ذلك البريد الإلكتروني المتوقع بلهفة والذي يتضمن ملف تنسيق الصور JPEG[3] لابنة أخيك

(1) المسارات الرئيسية backbones: عبارة عن مجمع توصيل ذي سعة نطاق عالية يربط الشبكات الصغيرة به. وقد كان المسار الرئيسي الأصلي للإنترنت هو شبكة NSF net التي أنشأتها «الشركة الأمريكية الوطنية للعلوم» والتي قامت بربط المراكز الإقليمية الخمسة للحوسبة المتقدمة.

(2) «هربرت مارشال ماك لوهان»: فيلسوف، وأستاذ جامعي في الأدب الإنجليزي، وناقد أدبي، ومُنظِّر في مجال الاتصالات منذ نهاية الستينيات من القرن العشرين حتى وفاته. تعد أعمال «ماك لوهان» أحد أحجار الأساس في دراسة نظرية الإعلام. و«ماك لوهان» هو صاحب عبارة «القرية العالمية».

(3) JPEG: اختصار معناه «مجموعة خبراء التصوير الفوتوغرافي»، يستخدم في وصف معيار عملية الضغط الذي وضعته هذه المجموعة، والذي أصبح الآن مستخدمًا على نطاق واسع في مجال تخزين ونقل الصور الملونة.

المولودة حديثًا من «سان فرانسيسكو»، والفيلم الرقمي الثاني والثلاثين من الجزء الواحد والعشرين من ابن عم لك في «بوندي بيتش» Bondi Beach، والذي نُقل بطريقة غير قانونية إلى MP3 من نوع «أوسيز» Oasis والذي نُقلت من خلاله بيانات من «كازا» Kazaa، أو حتى البريد العشوائي الذي يعرض ثروات فورية التي تقوم بإلغائها أتوماتيكيًا قد وصل إلى وحدة تشغيل القرص الصلب الخاصة بك ووصل إلى وعيك من خلال مسارات غريبة ومذهلة تمامًا. ذلك وصف مرحلة واحدة من الرحلة الرقمية، وتكتب «سوزان دوميت» Susan Dumett (1998):

> **إن للبريد الإلكتروني الذي أرسله إلى صديق في «لندن» بشكل شبه منتظم خط رحلة صارمًا. فبعد المناورة التي تحدث خلال الشبكة المزدحمة بالأسلاك وموجهات المسار، يواصل طريقه إلى المحيط الأطلسي عبر سلك بصريات ألياف مفرد. ولأنه يسافر عبر أرصفة قارية، عند عمق أكثر من 14000 قدم، خلال تيارات عاصفة بل في بعض الأماكن تحت سطح المحيط، فهو يناضل من أجل مساحة في السلك مع مجموعات ضخمة من عمليات نقل البيانات متضمنًا ذلك الصوت، والإنترنت، والفيديو وذلك قبل الهبوط في صندوق الرسائل بالحاسب الشخصي الخاص بصديقي.**

في العالم المتقدم، يعد الاتصال المتبادل في طريقه إلى أن يمثل جوهر حياتنا. وفي «الولايات المتحدة» وحدها، هناك 39 مليون ميل من خطوط بصريات الألياف تتقاطع عبر الدولة، وهو طول كافٍ ليمتد حول كوكب الأرض 1566 مرة (برينر Brenner 2003: 54). ومثل المياه الصالحة للشرب، أصبح شيئًا نحتاج إليه بشكل جوهري، لكننا لا نتنبه كثيرًا إلى ذلك إلا إذا لم يكن هناك اتصالًا متاحًا. والكثير منا الآن يعرف مدى الإحباط في العمل أو المنزل عندما تتعطل الشبكة، أو إذا كانت تعمل ببطء، أو انغلقت تمامًا. ونشعر بالضيق المتزايد عندما لا يتحرك ذلك الشريط الصغير «ناقل البيانات» الذي في أسفل شاشة نقل البيانات بسرعة «100 ٪» تقريبًا، مثلما نقف أمام صندوق الدفع في متجر كبير بجانب عربة مليئة بالاحتياجات ولا توجد أموال نقدية، فيتم إخبارنا فقط بأن الصناديق المالية الإلكترونية EFT معطلة، وينبض ذلك الوريد في صدغك عندما يتعطل الهاتف المحمول عند منتصف الجملة عندما تتحرك بعيدًا للغاية عن العمود اللاسلكي. ولا بد أن يكون لهذا الإحباط أساس من الصحة، وهو في

الواقع يمثل موضوعًا مهمًا. وفي مجتمع الشبكات المتسارع يقوم كل من الأفراد، والمؤسسات، والشركات، والحكومات بإجراء كم ضخم من الأعمال من خلاله. وتعتمد عليه الوظائف، ويتم من خلاله تعزيز أساليب المعيشة ويتم خلاله الكثير جدًا من أشكال التعليم واكتساب المهارات. على سبيل المثال، تحول مقاولو البناء من الباطن إلى العمل الرقمي منذ وقت طويل، يقومون بشراء هواتف محمولة للتأكد بأنهم مستعدون عند الطلب في التعامل التالي وأنها جاهزة للقيام بالاتصال لتمكينهم من إجراء مناقصة عند تعامل آخر. ويحتاج الطلاب إلى الحصول على درجة عادلة في معرفة الحاسب الآلي ليكون لديهم القدرة على الدراسة ويحتاجون بشكل متزايد إلى الحصول على حاسب آلي خاص بهم ووصلة إنترنت لجعل الدراسة ممكن تطبيقها بشكل تام. وفي «الولايات المتحدة»، بوجه خاص، فإن الحاسب الآلي المحمول في طريقه إلى أن يكون إجباريًّا تقريبًا في الكثير من الجامعات، ليشير ذلك إلى أنه لا يمكنك ببساطة المشاركة بشكل كامل في الحياة الجامعية بدونه.

وقد شكلت شبكة الأسلاك الرقمية السريعة هذه تغييرات عميقة في العالم. لم تكن الحواسب الآلية والشبكات الرقمية موجودة بشكل كبير خلال العشرين سنة الأخيرة. اليوم لا نبالغ إذا قلنا إن كل هذا يعد بلا شك جوهريًّا بالنسبة للحياة الاقتصادية. وتنص إحدى الوثائق الحكومية بالولايات المتحدة عام 2002 والتي سميت الإستراتيجية القومية لتأمين الفضاء المعلوماتي The National Strategy to Secure Cyberspace:

> بحلول عام 2002، يعتمد كل من الاقتصاد والأمن القومي [الآن] كليًّا على تكنولوجيا المعلومات والبنية الأساسية للمعلومات. وتقوم شبكة الشبكات بتدعيم العمل في كل القطاعات في اقتصادنا ـ الطاقة (الطاقة الكهربائية، والنفط، والغاز)، النقل (السكة الحديد، والنقل الجوي، والتجارة، والملاحة)، التمويل والصرافة، والمعلومات، والاتصالات عن بعد، والصحة العامة، وخدمات الطوارئ، والمياه، والكيماويات، وقاعدة الدفاع الصناعية، والغذاء، والزراعة، والبريد، والشحن بالسفن.
>
> (حكومة الولايات المتحدة 2002: 9)

بالنسبة للنظام البيروقراطي، من الصعب أن نكون أكثر صراحة ووضوحًا من ذلك.

أن أكثر الاقتصاديات تقدمًا في العالم، وكل الاقتصاديات الأخرى التي تحاول اللحاق بها، تراقب كل شيء يتعلق بـ «شبكة الشبكات»، متضمنًا ذلك ـ كما سنرى ـ أنظمة الدفاع القومي الخاصة بنا. نحن نطلق على ذلك «الاقتصاد الجديد» New Economy. وتعد ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال أكبر من مجرد استخدام للحواسب الآلية لكي نقوم بالعمل بصورة أكثر فاعلية ـ لا يقوم معظمنا بعمل أكثر مما كنا نقوم به. كان يعتمد «الاقتصاد القديم» Old Economy على معايير صارمة للسوق الضخم، والتي كانت تعني أن ما كان ينتج بكميات قليلة غالبًا ما كان باهظ الثمن. أما «الاقتصاد الجديد» فيعتمد على المرونة وبالتالي يكون قادرًا على إنتاج سلع وخدمات خاصة جدًّا دون فقدان اقتصاديات وفورات الحجم. وهذا في حد ذاته يشكل ثورة هائلة في النمط الرأسمالي للإنتاج، مما يصنع الارتباط غير المنطقي بشكل واضح لما يطلق عليه «روبرت ريتش» Robert Reich (2002) «التخصص الضخم» mass specialization. علاوة على ذلك، كان «الاقتصاد القديم» اقتصادًا يعتمد على ملكية «المنافع» الأساسية والتحكم فيها مثل المصانع، والمنشآت، والآلات والمعدات الميكانيكية لإنتاج الصلب، والسيارات، والثلاجات، والسفن، والأحذية، والمنسوجات، إلى آخره. وبالطبع، لا تزال هذه «المنافع» مهمة، لكن الكثير من الإنتاج الصادر من هذه «المنافع» الآن يحدث في الدول النامية، حيث يقوم الأثرياء في الدول المتقدمة والغنية بالشراء بأسعار أرخص. انظر إلى الجزء الخلفي من الكتيب الإرشادي الخاص بك أو هاتفك المحمول، أو الجزء الداخلي من حذاء العدو الخاص بك، أو الملصق الذي يوجد داخل الجزء الخلفي من قميصك. إذا كنت من أبناء دولة «متقدمة تمامًا» في أمريكا الشمالية، أو أوروبا الغربية، أو أستراليا، فإن الفرص تكون هي تلك المستوردة ـ من «الصين»، أو من «المكسيك»، أو من «ڤيتنام»، أو من أي مكان قد توجد فيه حاليًا العمالة الرخيصة.

ومنذ حوالي عشرين عامًا، قامت الدول المتقدمة ـ بما كان في رأي الكثيرين ـ بالتحول الشاق إلى «الاقتصاد الجديد». وهذا يمثل نمطًا شديد الاختلاف للإنتاج عن النمط الراكد والممل السابق له، السوق الضخم. ويطلق «چيريمي ريفكين» Jeremy Rifkin (2000: 30 – 50) عليه «الاقتصاد عديم الوزن». ويعتمد هذا على الأشياء المعنوية مثل الأفكار، والمعرفة، والمعلومات، وهي البنود التي لا تعرف حدودًا ولا تتأثر بالجغرافيا أو المناخ. وفيما تمت قراءته

كبيان «للاقتصاد الجديد»، تصرح مجلة «وايرد» Wired في منشورها بعنوان «موسوعة الاقتصاد الجديد» (وايرد 2002):

عندما نتكلم عن «الاقتصاد الجديد»، فإننا نتكلم عن عالم يعمل الناس من خلاله بعقولهم بدلًا من أياديهم. عالم من خلاله تخلق تكنولوچيا الاتصالات منافسة عالمية - ليست فقط في أحذية العدو والحواسب الآلية المحمولة، لكن أيضًا في القروض البنكية والخدمات الأخرى التي لا يمكن أن تحزم في صندوق شحن وتنقل عبر البحر. عالم يكون الابتكار فيه أكثر أهمية من الإنتاج الضخم. عالم يقوم فيه الاستثمار بشراء أفكار جديدة أو وسائل لخلقها، بدلًا من شراء ماكينات جديدة. عالم يستمر فيه التغير السريع. عالم يختلف على الأقل عما قد أتى قبله مثلما اختلف عصر الصناعة عن عصر الزراعة الذي سبقه. عالم تختلف طريقة انبثاقه تمامًا حيث يمكن فقط أن يوصف بأنه ثورة.

والحقيقة أن «بيل جيتس» Bill Gates يعد الرجل الأغنى في العالم الذي يناقض تغيرًا هائلًا في قيم الرأسمالية. إن لدى «مايكروسوفت» مبيعات سنوية تبلغ 11 بليون دولار أمريكي ومعظم أصولها توضع عليها الأغطية وتقدر سوق الأسهم قيمة الشركة بأكثر من 150 بليون دولار أمريكي - أكثر كثيرًا من قيمة IBM (تبلغ المبيعات 76 بليون دولار أمريكي، ويبلغ غطاء السوق 100 بليون دولار أمريكي) أو «چنرال موتورز (تبلغ المبيعات 160 بليون دولار أمريكي، ويبلغ غطاء السوق 50 بليون دولار أمريكي). لماذا؟ لأن قوانين المنافسة تتغير لصالح شركات مثل «مايكروسوفت» عبر نماذج من عصر الصناعة.

إن مصطلحات مثل «الاقتصاد الجديد» و«الاقتصاد عديم الوزن» تعد مفيدة لنقل جوانب معينة من التغيرات الاقتصادية، والاجتماعية، والتكنولوچية، وكذلك للإشارة إلى «التغير النموذجي» الذي حدث. ورغم ذلك - كما تضمنت الآراء خلال هذا الكتاب - فما يصفونه كان لا بد أن يطلق عليه مجتمع الشبكات ليكون أكثر دقة. ويعد التمييز مهمًا، لأن هذه العمليات الثورية تتغلغل أكثر من أن تكون مجرد جزء من الحياة. فنحن نتكلم عما هو أكبر من أن يكون «اقتصادًا». ونحن نتكلم أيضًا عن التحول التكنولوچي للثقافة، والمجتمع، والسياسة. وكما

كتب «فريدريك چيمسون» Frederic Jameson، إن هذا الشكل القوي من العولمة المتعلق بتكنولوچيا المعلومات والاتصال يمثل أيضًا مجالات مهيمنة في الحياة «... حتى الآن تتم حمايته منها [العولمة] بالنسبة للجزء الأكبر المتعارض معه والذي يتضارب مع منطقه» (1996: 9).

يمكننا فهم المزيد حول العملية، وربما يحدث ذلك عندما ندرك أن الحياة ذاتها أصبحت ملائمة ونافعة من خلال منطق كل من السوق وتكنولوچيات المعلومات والاتصال. وتعد التكنولوچيا الحيوية فرعًا من العلم يعتمد على الحواسب الآلية ذات الإمكانات العالية للقيام بكم هائل من عمليات معالجة البيانات الضخمة التي تتطلبها السلسلة المتعاقبة من الچينات. وفي الواقع، كان لا يمكن لمسودة «مشروع خريطة العوامل الوراثية» 2000 Genome Project الشهير والخاص بمجموعة العوامل الوراثية البشرية أن يتم دون قدرات حاسوبية ضخمة. ورغم ذلك، فإنه كلما حصل العلماء ـ الذين ساعدتهم الحواسب الآلية ـ على المزيد من المعرفة حول الجوهر الحقيقي لحياة الكائنات الحية، كان السوق أكثر متابعة لمسيرتهم. وقد أصبحت «الملكية الفكرية» ـ تخصيص ملكية الخلق والابتكار الإنساني إلى صاحبها ـ إحدى سمات الرأسمالية منذ بداياتها الأولى. ورغم ذلك، فبموجب قانون الليبرالية الجديدة واقتصاد السوق فقد تفجرت لتغمر كل مجالات الحياة. وخلال تحقيق أشكال التقدم في التكنولوچيا الحيوية ـ الحياة ذاتها ـ فقد تم وضع إطار حول الچينات «الوراثة البشرية»، وتم تطبيق الملكية الفكرية بشأنها، وأصبحت جاهزة للسوق. وفي مقال لصحيفة «لي موند دبلوماتيك» Le Monde Diplomatique قدم لنا «چون سالستون» John Sulston ـ الحائز على جائزة نوبل لاكتشافاته في مجال الچينات ـ توضيحًا لهذا الهوس التجاري بالتكنولوچيا الحيوية حينما ذكر أن «عدد تطبيقات براءات الاختراع الخاصة بچينات الإنسان والكائنات الحية الأخرى قد تجاوز نصف مليون علامة» (2002: 12). وقد تحول العالم خلال كل هذا وخلال الطرق الأساسية الكثيرة الأخرى عبر آخر جيل، ودون الشبكات الرقمية في العالم ومجتمع الشبكات الذي خلقته، لا بد أن يكون هذا التحول مستحيلًا.

آسيا الحاسوبية

يرى «كاستيلز» Castells (1996) أن مجتمع الشبكات يتميز بـ «التدفقات». وهذه

«التدفقات» من رأس المال، والمعلومات، والثقافة، وأنظمة الإنتاج المرنة لم تعد تأخذ في الاعتبار الحدود الجغرافية وأصبحت تشكل قوام حياة العولمة. ووفقًا لذلك، فإن بقية العالم غير المنضم إلى «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» OECD ـ الذي يمكن أن يطلق عليه «الأسواق حديثة النشأة» في أمريكا الجنوبية، والصين، وجنوب شرق آسيا ـ يمكن أن يتصل ويندمج بسرعة في مجتمع الشبكات. وفي الواقع، فإن «اقتصاديات النمور» مثل «تايوان»، و«هونج كونج»، و«سنغافورة»، و«أمريكا الجنوبية»، على الأقل في مدنها الرئيسية، أكثر ازدحامًا بـ «شبكات الأسلاك» من «أسبانيا» أو «إيطاليا» أو «فرنسا». وتتزايد كثافة الإنترنت بشكل سريع في معظم آسيا إلى جانب ـ على سبيل المثال ـ 46 في المائة من سكان «سنغافورة» لديهم وصلة داخلية إلى الإنترنت ذي نطاق التردد الواسع (الجمعية الدولية للتنمية IDA «سنغافورة» 2001: 6)، في حين أن 18 في المائة فقط من الأسبان لديهم وصلة داخلية من جميع الأنواع (تقييم نيلسين للشبكات 2002 Nielsen Net Ratings). رغم ذلك، يتمثل الاتجاه في أن الحركة نحو الاتصال المترابط الرقمي تتنامى في كل مكان . وفي جزء كبير من قارة آسيا هناك سباق للاتصال من أجل اللحاق برواد العولمة مثل سكان أمريكا الشمالية ودول غرب أوروبا مثل «بريطانيا»، و«السويد»، و«ألمانيا»، و«فنلندا». ويدرك جيدًا كل من الحكومات ورجال الأعمال بالدول التي تسمى بـ «نمور الجيل الثاني» في المنطقة الآسيوية مثل «ماليزيا»، و«أندونيسيا»، و«تايلاند» أهمية تكنولوجيات المعلومات والاتصال كمفتاح رئيسي لتقدمها. وطبقًا لذلك، يتم إعطاء أولوية كبرى إلى استثمار كل من التدعيم السياسي ورأس المال في تكنولوجيات المعلومات والاتصال لإمداد المعلومات إلى اقتصادياتها. ويمكن رؤية مدى هذا الالتزام في المسار الضخم للوسائط المتعددة (MSC). ويعد هذا مشروعًا طموحًا للغاية يهدف إلى جعل إقليم «كوالالامبور» جاذبًا لـ «الاستثمار التقني» العالمي و«المحور الرقمي» لمنطقة جنوب شرق آسيا بأكملها. وقد قام بجذب الكثير من شركات تكنولوجيا المعلومات الكبرى مثل «مايكروسوفت»، و«صن مايكروسيستيمز» Sun Microsystems، و«إنتيل» (انظر على سبيل المثال، www.mdc.com.my).

يوجد الإدمان الرقمي على مستوى العالم ويمثل سباقًا محمومًا للاتصال واللحاق بالأحداث على كل مستويات التطور تقريبًا. ويمكن اعتبار «الصين»، على سبيل المثال، «نمر

الجيل الثالث»، لكن توازن ومسار الاتصال الرقمي المتبادل الذي تتضمنه هذه الدولة يبدو أنه يتفوق على بقية قارة آسيا ـ وربما العالم. وخلال التجمد السياسي والاجتماعي والثقافي والتكنولوجي العميق الذي تعرضت له «الصين» عام 1979 كان هناك 2.03 مليون هاتف فقط لدى عدد سكان يبلغ بليون نسمة تقريبًا. وبحلول عام 1998 ازداد عدد الهواتف إلى 100 مليون وتضاعف هذا الرقم إلى «200 مليون هاتف إلى جانب 65 مليون من الهواتف المحمولة» وذلك في عام 2002 ـ أي خلال أربع سنوات فقط. (پيپول دايلي أون لاين People Daily Online 2002). ويعد النمو المتدفق والذي من الواضح أنه لا يمكن إيقافه في مجال الإرسال التليفوني واحدًا من مجالات نمو «الصين» فيما يتعلق بالاتصال. وفي وثيقة جديرة بالملاحظة تقوم بتحليل تغلغل الإنترنت في كل مكان بالصين، كتب كل من «ويليام فوستر» William Foster، و«سيمور إي. جودمان» Seymour E. Goodman من «مركز التعاون والأمن الدولي» Center for International Security and Cooperation بجامعة «ستانفورد» Stanford:

> **يتغلغل الإنترنت في أنحاء «الصين» بشكل سريع وواسع. وقد تزايد عدد المستخدمين الذي كان يبلغ خمسة آلاف مستخدم عام 1994 إلى أكثر من ثمانية ملايين في نهاية عام 1999. وبين شهري يناير ويوليو من عام 2000، تزايد هذا الرقم من 8.9 مليون إلى 16.9 مليون. وبالرغم من أنه ليس من المحتمل أن يستمر هذا العدد من المستخدمين في التضاعف كل ستة أشهر، فإنه يمكن للنمو أن يظل قريبًا من ذلك المستوى في أي مكان ـ و«إذا» ـ أصبح لدى «الصين» خلال عدة سنوات عدد مستخدمين للإنترنت أعلى من أي دولة أخرى على كوكب الأرض.**
>
> (2 :2000)

يعبر جزء كبير من كلمة «إذا» السابق ذكرها «الحزب الشيوعي الصيني» (CCP) وسيطرته على كل أنحاء تلك الدولة. ورغم ذلك، يميل «الحزب الشيوعي الصيني» إلى دمج الإنترنت والشبكات الرقمية في خطط التطوير الاقتصادي الإستراتيجي الخاصة به وتدعيمه ليصبح عنصرًا حيويًا في مجتمع الشبكات. إذن، فقد نقل عن الرئيس «جيانج زيمين» Jiang Zemin في وثيقة كتبها كل من «فوستر وجولدمان» (2000: xii) حيث يقول إن «تكنولوجيا الإنترنت

في طريقها لتغيير الوضع العالمي، والنزاع العسكري، والإنتاج، والثقافة والجوانب الاقتصادية لحياتنا اليومية وذلك بشكل كبير». ولم يشر إلى «السياسة» في قائمته ـ بالطبع ـ صراعات «الحزب الشيوعي الصيني»، وذلك للتحكم، بلا جدوى، فيما يمكن أن يؤدي إلى زيادة أعداد قارئي ومشاهدي ومستمعي الإنترنت في المدن الرئيسية الصينية. وعلى سبيل المثال، فإن مستخدمي الإنترنت الصينيين يفضلون محرك بحث الإنترنت «جوجل» Google لأنه يقوم بقراءة الحروف الصينية. وفي منتصف عام 2002 أغلقت الحكومة الصينية مدخل «جوجل» وحاولت أيضًا تقييد الدخول إلى موقعيّ CNN، وBBC (سلون Sloan، 2002). ورغم ذلك ـ بالنسبة للمستخدمين الصينيين الذين لديهم الحد الأدنى من المعلومات حول الإنترنت والاستعداد لتحدي حكومتهم ـ فقد كان الأمر يتلخص ببساطة في القليل من نقرات فأرة الحاسب الآلي للدخول بشكل غير مباشر إلى هذه المواقع المغلقة والمقيدة من قِبل السلطات ثم البحث أو التصفح من خلال الموقع العاكس لـ «جوجل»، و BBC، CNN. ويبدو أن مراقبة محتويات الإنترنت ـ خاصة محتوياته السياسية ـ قد وضعت لتكون عملية ثابتة (وغير ناجحة في النهاية) ولا بد أن يعاد النظر بشأنها من قِبل «الحزب الشيوعي الصيني».

ومع افتراض الإمكانية الضخمة للاقتصاد الصيني، وكذلك جاذبيته الواضحة كسوق لشركات تكنولوجيا المعلومات والاتصال، يعد «الحل» المتعلق بالأزمة الخاصة في طريقه إلى أن يكون واحدًا من أكثر الجوانب أهمية وتأثيرًا في عالم الشبكات خلال السنوات المقبلة.

التواصل مع مجتمع الشبكات

إن النمو الهائل والسريع لمجتمع الشبكات يعتمد في جزء كبير منه على **حلقة التغذية المرتدة الإيجابية**. ربما يكون هذا واضح جيدًا من خلال نظرية حلقة التغذية المرتدة الإيجابية في الاقتصاديات. وتعد هذا الفكرة بسيطة بالشكل الكافي وتشير إلى أنه بقدر ما يكسب الناس المزيد من المال، بقدر ما ينفقون. وهذا يؤدي بدوره إلى تنمية الاقتصاد، وخلق المزيد من فرص العمل، مما يصنع المزيد من المستهلكين الذين يقومون بالإنفاق، أي المزيد من النمو الاقتصادي، وبالتالي يمضي الاقتصاد قدمًا ويتجه نحو الصعود. وفي تكنولوچيا الاتصالات يمكننا تتبع التأثير الإيجابي الناتج للتغذية المرتدة حيث تقول فرضية «ماك لوهان» McLuhan

التي ناقشناها في الفصل الثاني «يتمثل الوسيط في الرسالة». وهناك شيء خاص يتعلق بطبيعة الاتصال الإنساني. ويمكننا القول بشكل عام إنه إذا كان الناس قادرين على الاتصال بطريقة أكثر ملاءمة ومباشرة، فإنهم سوف يفعلون. ويقترن هذا بفكرة أن تكنولوجيات المعلومات ذاتها تجبر الناس تقريبًا على استخدامها ويصبح الدافع قويًا ولا يمكن الاستغناء عنه. كم منا، على سبيل المثال، دخل سوق الهواتف المحمولة ليخبرنا «سوف أحتفظ به للطوارئ فقط» ثم نجد أنفسنا نستخدمه بشكل مستمر، في أي شيء تقريبًا عدا «الطوارئ» التي نادرًا ما تحدث! ويقوم الناس في المكاتب بإرسال البريد الإلكتروني لزملائهم الذي يجلسون على بعد أقدام منهم، ويتبادل التلاميذ بشكل سري الرسائل النصية في الفصل المدرسي، ليس لمجرد أن ذلك مسلٍ أو لأن لديهم أشياء مهمة يقولونها ـ لكن لأنهم يستطيعون فعل ذلك.

نحن في حاجة إلى الاتصال. إننا كائنات اجتماعية ويمثل الاتصال جزءًا من «جوهر جنسنا»، كما أشار «ماركس» Marx. وتعد هذه السمة البشرية ميزة هائلة بالنسبة لصناعات تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وتعد تكنولوجيات المعلومات والاتصال مجالًا مثمرًا ويتولد ذاتيًا. وكلما كان هناك إجراء المزيد من الاتصالات، كان هناك مزيد من الحاجة لإجراء الاتصالات، أي كلما كان الاتصال يمثل جزءًا كبيرًا من جوانب حياتنا، احتجنا إلى المزيد من الوسائل المطلوبة للاتصال لمجاراة احتياجاتنا الواضحة للاتصال. وتتم ترجمة فكرة أننا في حاجة إلى إمكانية الاتصال في كل الأوقات إلى عمل ضخم ومشروعات طموحة. وفي عام 2002 أعلن عمالقة تكنولوجيا المعلومات والاتصال AT&T، وIBM، و«إنتيل» عن خطط لزيادة كثافة الاتصال المتبادل، مع إنشاء شبكة ذات نطاق تردد واسع عبر أنحاء الدولة من «نقاط التوصيل»(1) اللاسلكية. وسوف تسمح نقاط التوصيل هذه للأفراد أو الشركات بالدخول إلى الشبكة في كل مكان، وفي أي وقت تقريبًا. وكما يوضح «جاي رولستاد» Jay Wrolstad (2002) ذلك، «الهدف النهائي ... هو امتلاك نقاط توصيل خلال مدة خمس دقائق لأي عمل في منطقة حضرية، أو خلال القيادة لمدة خمس دقائق في المناطق الريفية». وما يعنيه هذا المنطق في حياتنا يمكن التعبير عنه بكلمات أخرى (قد ترتبط بالكتاب المقدس): الحاسب الآلي بالمكتب يتولد

(1) نقاط التوصيل: تمثل الأماكن المخصصة التي يمكن من خلالها الوصول لشبكة الإنترنت اللاسلكية Wifi لإرسال واستقبال المعلومات أو الدخول على البريد الإلكتروني.

عنه الحاسب الآلي بالمنزل الذي يتولد عنه جهاز PDA الذي يتولد عنه الاتصال اللاسلكي ذو نطاق التردد الواسع الذي يتولد عنه الصفحة الرئيسية للإنترنت التي يتولد عنها بيان الهوية في «هوت ميل» Hotmail الذي يتولد عنه الماسح الضوئي الذي يتولد عنه الهاتف المحمول الذي يعمل عن طريق 3G الذي يتولد عنه مشغل MP3 الذي يتولد عنه وحدة CD /RW وهكذا يسير الأمر، إلى ما لا نهاية.

هناك «هدف نهائي» آخر غير معلن لدى شركات تكنولوچيا المعلومات والاتصال، رغم ذلك، ويعد هذا خلقًا لبيئة، عالم، حيث لا يكون هناك مفر فيه من بالاتصال. وهذا يمثل منطق عمل جاد للغاية وأكثر عمقًا والذي من خلاله تتصور صناعات تكنولوچيا المعلومات والاتصال أن تتغلغل بعمق في أرجاء كوكب الأرض عن طريق الاتصال المتبادل. وكما سوف نرى لاحقًا، يعمل كل من البحث والتطوير (R&D) ـ عمودا صناعة تكنولوچيا المعلومات والاتصال ـ يوميًا لتحويل هذا التصور إلى واقع.

وبرؤية الكتابة على الحائط، واستخدام الإنترنت كمثال لها، وصف كل من «مارك ويزر» Mark Weiser، و«چون سيلي براون» John Seely Brown واضعا النظريات في مجال تكنولوچيا المعلومات، عملية انتشار تكنولوچيا المعلومات والاتصال بأنها تطور لما أطلقا عليه «عمليات الحاسب الآلي المنتشرة في كل مكان» (1997: 5). كتبا:

> **يتقلنا الإنترنت اليوم عبر عصر عمليات الحوسبة الموزعة بصورة واسعة الانتشار نحو علاقة عمليات الحوسبة المنتشرة في كل مكان، والتي تم تمييزها بشكل عميق من خلال عمليات الحوسبة المحيطة بكل أنحاء العالم.**

ولا تمثل «عمليات الحوسبة المنتشرة في كل مكان» ـ بالطبع ـ الإنترنت فقط. إنها تمثل كل شيء يتصل به ويتفرع منه. توجد عمليات الحوسبة في كل مكان، من الثلاجات «الأنيقة» التي يمكن أن تكون متصلة بشبكة الإنترنت، إلى نظام التموضع العالمي Global Positioning Satellite (GPS) الذي يُمكِّن السيارات من إخبارنا بمكاننا وزماننا بدقة. وتعني أيضًا «عمليات الحاسوبية المنتشرة في كل مكان» عمليات حاسوبية قوية نعرفها جيدًا. ان ذلك الهاتف المحمول الموجود في جيبك أو حقيبتك، على سبيل المثال، لديه طاقة حسابية أعلى من

سفينة «أبوللو» 11 الفضائية التي جاءت بأول رجال على القمر في عام 1969. وبشكل مشابه، فإن طاقة المعالجة في «إكسبوكس مايكروسوفت» أو «پلايستيشان» في حجرة النوم لا بد وأنها ضعف طاقة الأنظمة الموجودة على متن سفينة «أبوللو11» بمعدل عشرة أضعاف أو أكثر.

وتعني حلقة التغذية المرتدة الإيجابية أيضًا الانتشار المفرط لعمليات دفع تكنولوچيات المعلومات والاتصال خارجًا نحو كل منطقة ودولة في العالم. وقد أشرت بالفعل إلى شبكة أسلاك بصريات الألياف التي في طريقها إلى التوسع عبر القطب الجنوبي. وتتم أيضًا مساعدة وتحفيز هذا الانتشار المفرط من خلال حاجتنا الفطرية إلى الاتصال ببعضنا البعض وافتتاننا الشديد بالأدوات التي تساعدنا على القيام بذلك بشكل أكثر فاعلية. وقد أرسل لي زميل مقالًا عن طريق البريد الإلكتروني حول موضوع انتشار تكنولوچيا المعلومات والاتصال يشرح بالتفصيل طاقة حلقة التغذية المرتدة وعملية الاتصال «المحيطة بعمق» بكل مكان في أرجاء العالم. وقد جاءت القصة من موقع BBCWorld.com (2002) وتركز على الظهور السريع للهواتف المحمولة الأخيرة في «أفغانستان». وحتى عام 2001 كانت تلك الدولة خاضعة لحكم «طالبان» ـ الحكومة الدينية الإسلامية ذات فكر القرون الوسطى التي حظرت كل شيء من السينما والتليفزيون إلى كرة القدم والراديو باعتبارها «تتعارض مع الإسلام». وكانت تقريبًا الهواتف من كل نوع غير موجودة. واليوم، أصبح هؤلاء الأفغان القادرون على تحمل شرائها يستخدمون الهواتف المحمولة باعتياد. وقد قال المهندس الغربي المشارك في تأسيس البنية التحتية لمشروعات الاتصال عن بعد: إن المشروع قد استغرق ثلاثة أشهر فقط حتى اكتمل وأن تكنولوچيا البيانات اللاسلكية سوف تتبعه سريعًا. وهذا سوف يمكن سكان «كابول» من تصفح الإنترنت، واستخدام «بروتوكول التطبيق اللاسلكي» WAP وتكنولوچيات اتصالات 3G، والكثير من التطبيقات والأجهزة الأخرى. وتقريبًا تحولت «أفغانستان» بشكل سريع (أو عاصمتها، كابول، على الأقل) من حكومة دينية قمعية ناشطة في كل مكان في القرن الحادي عشر إلى دولة على وشك أن تكون أحد أعضاء العالم السلكي.

اختر (أسلوبًا) للحياة

تتزايد حلقة التغذية المرتدة الإيجابية، بالطبع، بصورة ضخمة من خلال أيديولوچيا العولمة،

والأسواق الحرة، وتداول المعلومات والرؤية المشتركة بلا حدود المهيمنة في كوكب الأرض كوحدة واحدة، والسوق المجزأ الذي يتم فيه الاتصال المتبادل. إن هذه المؤسسات القليلة نسبيًا والتي ملأت عالمنا بالشبكات صعدت عاليًا نحو السماء من لا شيء أو من خمول الذكر، لتصبح جزءًا من وجودنا اليومي مثل العلامات التجارية والشعارات في حياة الشبكات. وفي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، بالنسبة لذاكرتنا المشتركة التي لا تزال تحتفظ بأحداث تلك العقود التي ما قبل الرقمية، عندما تسترجع بشكل عرضي، فلا بد أن تسيطر عليها الشركات الصناعية الضخمة مثل «تشيڤرون»، و«بريتيش بيترولیام» و«شيل»، و«جنرال موتورز»، و«جنرال إليكتريك»، و«فورد». اليوم، يوجد لدى «الاقتصاد الجديد» المؤسسات «عديمة الوزن» مثل «نوكيا»، و«آبل»، و«صن مايكروسيستيمز»، و«كومباك»، و«ديل»، و«مايكروسوفت» التي أقحمت نفسها داخل عالمنا الرقمي ووعينا الشبكي. ونحن نعتبر أطرافًا في الشبكة التي قاموا بتأسيسها. إن استرجاع ذلك كان يعني بدء «مايكروسوفت» الصغيرة الصاعدة في العمل بقوة وبدء استقبال الشعار لمئات الملايين من المستخدمين والترحيب بهم عند بدء يوم عملهم أو بدء وقت فراغهم، أو شعار مستكشف الإنترنت الذي يدور بنشاط وباستمرار في الزاوية العليا ناحية اليمين من برنامج تصفح الإنترنت، مما يملأ كوكب الأرض بين كل حين وآخر بشعار «ويندوز». ولا يحتاج الشخص إلى أن يكون خبيرًا لكي يحلل معناه الرئيسي: يمثل العالم بأكمله «مايكروسوفت» وتمثل «مايكروسوفت» العالم بأكمله.

وهناك شيء يميز مؤسسي «الاقتصاد الجديد» عن مؤسسي الاقتصاد القديم ويشير أيضًا هذا الشيء إلى كيف أصبحت عملية الإمداد بالمعلومات جزءًا من عالمنا وجزءًا منا. ولا يرى الكثيرون من عملائه أن «تشيڤرون» أو «جنرال موتورز» تعتبران (أو كانتا تعتبران) «ملائمتان» أو تمثلان «أسلوب حياة» - ولا ترى حتى كل من «تشيڤرون» أو «جنرال موتورز» أنفسهما كذلك. رغم ذلك، تعد «ڤودافون» «ملائمة»، و«أسلوب حياة». يقول موقعها الإلكتروني ذلك. وتخبر اللافتة الإعلانية المتحركة زائر الموقع الإلكتروني أن «ڤودافون» تعد شركة «ممتازة» ومن هنا، هل إذا أردت شراء أحد هواتفها المدمجة أو الهواتف الجوالة سوف تجدها؟ (www.vodafone.com). وبشكل مشابه، فإن شركة «نوكيا» الفنلندية تعتبر نفسها أساس التصميم الإسكندنافي «الملائم»، مثل شركة «بانج آند أولوفسين» Bang and Olufsen

للمنتجات الرقمية ـ مبتكرة المنتجات الملساء والتي تتضمن أشخاصًا يتميزون بالجمال والشعر الأشقر من مستخدمين وموردين لأساليب الحياة التي يمكن للعالم بأكمله أن يتأثر بها. وبالطبع، فإن تطبيقات وخدمات شركة «آبل» ـ من خلال أكثر الطرق ملائمة ـ سوف «تتزامن مع حياتك الرقمية» عن طريق الارتباط بجهاز PDA، والهاتف المحمول، ومشغل iTunes MP3، وiMac في اتصال متبادل متناغم (www.apple.com). وتعد تلك أمثلة منتقاة عشوائيًّا لتصور البداية الفعلية للمشكلة الضخمة. وما تقدمه أيضًا هذه الأمثلة هو مصطلح «كلاين» Klein «انطلاق العلامة التجارية» في الميزان العالمي، والتي تمثل ضربات متتالية لوعينا إلى جانب فكرة أننا لا نقوم بمجرد شراء حاسب آلي، أو أسطوانة مدمجة تحوي تطبيقًا لبرنامج إلكتروني، أو هاتف محمول، أو جهاز PDA ، لكننا نقوم بشراء فكرة وأسلوب حياة (فرانك Frank، كلاين 2000). وتصب «مناقشة الهدف» هذه في حلقة التغذية المرتدة مباشرة، وتقوم بتقوية مجال وطاقة عملية الإمداد بالمعلومات عن طريق الاتصال بكل من تكنولوجيات المعلومات والاتصال ومجتمع الشبكات اللذين نتخيل أنفسنا من خلالهما، حيث يرتبط الاتصال بهما، في الواقع، بوجودنا الفعلي.

عالم سلكي يسبب الخطر؟

إلى أين تقودنا العملية المحمومة لإنشاء الشبكات ؟ يعد امتداد وعمق الاتصال الشبكي الرقمي ـ كما يراه «بيتر لونينفيلد» Peter Lunenfeld ـ «جزءًا فريدًا في تاريخ الإعلام التكنولوجي» (2000: xix). والمشكلة التي نواجهها هي أنه ليس لدينا شيء لقياس مجتمع الشبكات هذا وبالتالي فإن كل يوم يأتي علينا نجده ينغمس في مستقبل غير معروف ولا يمكن التنبؤ به. لقد أدت كل من حلقة التغذية المرتدة، والمنافسة المتأصلة في التراكم الرأسمالي، ومسألة شغفنا الشديد بتكنولوجيات المعلومات إلى الإسراع من عملية تأسيس شبكة الأسلاك في العالم. وقد وصف «أولريش بيك» Ulrich Beck هذه العملية الجماعية الطائشة غير المعروفة بأنها «عدم مسؤولية منظمة» (1998: 15). ولا أحد يمكنه السيطرة لأن مسؤولياتنا الاجتماعية والديمقراطية والاقتصادية تم التخلي عنها لصالح قوى السوق والفائدة العالمية المزعومة لتكنولوجيات المعلومات والاتصال. لقد ابتكرنا «مجتمع الخطر العالمي» world risk society،

كما يقول «بيك»، والذي يمكن فهمه وتبسيطه فقط من خلال «الإصلاح المؤسسي» عبر عمليات صنع القرار في الحكومة، وفي الشركات الخاصة، وفي المعامل (1995: 5). باختصار، لا بد أن يعيد الناس السيطرة على ما يطلق عليه «أنتوني جيدينز» Anthony Giddens «العالم الجامح» runaway world (1999a).

ويؤخذ في الاعتبار عنصر واحد للخطر ـ حلقة التغذية المرتدة. ينظر إلى حلقة التغذية المرتدة في الفيزياء وكذلك في الاقتصاد على أنها شيء متقلب في جوهره. وإذا اتخذنا الاقتصاد كمثال، ربما يصبح منطق هذا التقلب أكثر وضوحًا. فعندما يقوم شخص ما بالشراء والإنفاق والاستهلاك للوصول إلى مستويات أعلى دائمًا، فإن التضخم يحدد ذلك. نحن نعيش في عالم محدود الموارد. وفي اقتصاد السوق يمكن أن يسبب الطلب الشديد على المورد المحدود في ارتفاع سعره. ويؤدي ارتفاع الأسعار خلال نطاق كامل من البضائع والمواد الخام إلى المطالبات بأجور أعلى، والتي تضع عبئًا على أصحاب الأعمال، مما يضطرهم إلى ضغط التكاليف، وتسريح العمال من العمل، وذلك يؤدي بدوره إلى الانهيار أو الركود الاقتصادي.

وبالطبع، فإن المورد الذي نتناوله في مجتمع المعلومات، هو المعلومات وتعد المعلومات، نظريًا، محدودة. أليس هذا يبدو شيئًا جيدًا، مثل الطاقة الشمسية، ربما، حيث يمكن لأي شخص أن يستخرج الخامات؟ فلأول مرة في تاريخ البشر يكون لدينا اقتصاد يعتمد على مورد لا ينضب. كم تشعر أنك سعيد الحظ؟ في البداية ليس لدينا فكرة عن كم المعلومات «الخارجية» (المخزنة عن طريق البيتة والبايت). ويمكننا أن نخمن بالكاد عدد صفحات شبكة الإنترنت، وتنسيق PDF[1]، ولغة كتابة النصوص على الإنترنت HTML[2]، وروابط النصوص على

---

(1) PDF: اختصار معناه «تنسيق مستند ممكن حمله»، وهو تنسيق للملف تم إنشاؤه بواسطة نظام أكروبات الذي أنتجته شركة «أدوب». وهذا التنسيق يحتفظ بكافة محتويات المستند الإلكتروني (بما في ذلك التخطيطات ورسوم الجرافيك والنصوص المنمطة والمقالات المستعرضة) وذلك بغض النظر عن نظام الحاسب الذي يعرض عليه المستند. ونظرًا لأن ملفات تنسيق المستند الممكن حمله تعمل بشكل مستقل عن أنظمة التشغيل، فإنها تعد طريقة جيدة لإرسال المستندات على شبكة الإنترنت.

(2) HTML: اختصار معناه «لغة ترميز النص التشعبي المترابط»، وهي اللغة القياسية المستخدمة في بناء وتوصيف صفحات شبكة الويب العالمية. وتعمل هذه اللغة على تحديد عناوين للأجزاء المكونة للصفحة (مثل العناوين الجانبية وعناوين الفقرات)، وتسمح بتضمين الصوت والصورة وروابط تشعبية للصفحات الأخرى. وتعتبر «لغة ترميز النص التشعبي المترابط» تطبيقًا خاصًا من المعيار الدولي لترميز النصوص يتم تطويره باستمرار.

الإنترنت، النص، والصوت، والبيانات التي تتدفق عبر الشبكة مثل تدفق الدم عبر الجهاز الدوري مفرط السرعة. ونحن نعرف بالتأكيد أن هذا يضاف بشكل خطير إلى كل دقيقة من كل يوم. أنا أضيف إلى ذلك وأنت تضيف إلى ذلك. يكون هناك مئات الملايين من الناس على اتصال بشبكة الإنترنت مباشرة، وهم في البنوك، وهم يقومون بالتسوق، أو يعملون مع البيانات التي يجب أن توضع على شبكة الإنترنت أو ترسل عبر العالم في شكل بريد إلكتروني، أو من خلال JPEGS، أو الواجهة الرقمية للموسيقى MIDI[1]، أو شكل موجة الويندوز WAV[2] أو جهاز MP3، أو البريد الإلكتروني العشوائي، وما إلى ذلك، يشارك كل هؤلاء في الزيادة التدريجية لهذه المعلومات بشكل لا يحصى. وهذا بالضبط هو الإنترنت! لذلك فهل كل هذه المعلومات التي تدور حول كوكب الأرض مهمة بالفعل؟ إذا قمنا بالعيش أنت أو أنا في قرية بعيدة على جزيرة «إيجه» ـ وسط بحر «إيجه» ـ نرعى الخراف ونصيد الأسماك من أجل الحصول على غذائنا، ربما تكون الإجابة لا. ورغم ذلك، فإنه بسبب تزايد أعدادنا أصبحت الشبكات وتكنولوجياتها تمثل امتداداتنا، لقد جعلتنا جزءًا من شبكة الإنترنت وجعلت شبكة الإنترنت جزءًا منا. وتعد الشبكات والمعلومات التي تتولد وتنقل عن طريق شبكة الإنترنت، كما يقول «ماك لوهان» McLuhan، هي «الوسيط الذي يكوّن ويتحكم في التوازن ويشكل التعاون والعمل الإنساني» (1995: 152). وبالرجوع مرة أخرى إلى مقولتي التي أكررها دائمًا: لذلك السبب تأتي أهمية أن نطلق على هذا شبكة أو مجتمع معلومات. ويتسارع أيضًا الكم الضخم من المعلومات التي تولدها الشبكة، عن طريق التداول من خلالنا ومن خلال الشبكة ذاتها. وقدرت دراسة بجامعة «كاليفورنيا» في «بيركيلي» Berkeley في عام 2002 أنه خلال السنوات الثلاث القادمة وحدها، سوف يتم الحصول على المزيد من المعلومات أكثر

(1) MIDI: اختصار معناه «واجهة رقمية للموسيقى»، وهو معيار للمصنعين يتيح حرية الاتصال البيني لمختلف الآلات الموسيقية ذات المعدات الرقمية، والتي تستخدم في التلحين والتسجيل. ويمكن نقل درجة الصوت ومعدل الانخفاض وموضع الاستريو عبر تلك الواجهة. ويمكن للحاسب الذي يحتوي على هذه الواجهة إدخال وتخزين الأصوات التي تنتجها الأدوات المرتبطة ببعضها ثم التعامل مع هذه الأصوات بطرق مختلفة كثيرة. وعلى سبيل المثال، قد تعمل ضغطة مفتاح واحدة على تغيير لحن بأكمله، حتى أنه يمكن كتابة تسجيل اللحن تلقائيًا.

(2) WAV: اختصار معناه «شكل موجة ويندوز»، وهو تنسيق ملف سمعي للحاسبات الشخصية المتوافقة مع IBM، ويكثر استخدامه في توزيع الأصوات على الإنترنت. وتنتهي ملفات هذا التنسيق، التي تحتوي على تسجيل رقمي للأصوات، باللاحقة (wav).

مما تم الحصول عليه من معلومات خلال الأربعين ألف سنة الماضية (كوتشرين Cochrane 2002). شيء مذهل؟ والآن دعنا نتحدث قليلًا عما يشكل عملية الاتصال المتبادل في الشبكة: في «المملكة المتحدة» تم تقدير 16 بليون رسالة نصية تم إرسالها في عام 2002 (MDA 2002) «جوبسماكينج» Gobsmacking»؟ في الواقع، ربما تتحول الزيادة المستمرة في سرعة وحجم المعلومات لتصبح مشكلة خطيرة. ويرى «ديڤيد شينك» David Shenk (1997) أنها مشكلة نواجهها بالفعل (إذا لم يتم التصدي لها). ويطلق عليها «الحمولة الزائدة للمعلومات»، نتيجة التقلب في حلقة التغذية المرتدة. وبالفعل، هناك الكثير جدًّا من المعلومات المتاحة حيث من الممكن أن تتقادم بمرور الوقت مثل الإنسان، وتعني الحمولة الزائدة للمعلومات أن قدرتنا على التمييز بين الجيد والرديء، وبين التافه والثمين، وبين المفيد وعديم الجدوى تقل تدريجيًّا. وهناك الكثير جدًّا منها وهي تنتقل بسرعة فائقة، وكما يقول «پول ڤيريليو» Paul Virilio: إن الزيادة في السرعة تؤدي إلى مضاعفة الازدحام الشديد في المعلومات المتاحة (1995a).

يستشهد «شينك» بقول «مايكل ديرتروزوس» Michael Dertrouzos - مدير معمل علوم الحاسب الآلي في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» MIT - حيث يقول: إن تكنولوچيا المعلومات «تعد نافذة مفتوحة نحو جهازك العصبي المركزي» (تستخدم استعارة «الإدمان» كثيرًا في الكتابات النقدية حول مجتمع الشبكات). النقطة التي كان يركز عليها - والتي نتجت عنها استعارة «الزحام الشديد» التي استخدمها «ڤيريليو» - هي أن الحمولة الزائدة للمعلومات «تحتل العقل وتقلل الإنتاجية» (1997: 30). ولا تعد هذه مفارقة بسيطة في عالم مفترض أنه مليء بالفاعلية الفائقة من خلال تكنولوچيات المعلومات والاتصال. فما هو الامتداد المنطقي للحمولة الزائدة للمعلومات؟ أو انهيار الشبكات أو انهيار المجتمع؟ أو الكثير من الانهيارات الإنسانية؟ إذا لم نستطع إدراك العالم بشكل أكبر - ولا يبدو أن أحدًا يمكنه السيطرة بعد - فما نوع المستقبل الذي سوف يوفره مجتمع الشبكات؟ هل نضع مصيرنا في السوق وفي «يده الخفية» لإعادة تخزين «التوازن» عند نقطة غير محددة؟ هل نحاول إيجاد طرق لقياس المخاطر المحتملة - كما يرى «بيك» - عبر الإصلاحات الديمقراطية؟ أو - كما يوصي «توماس هايلاند إريكسون» Thomas Hylland Eriksen (2001) - هل نختار «الوقت البطيء» بدلًا من ذلك؟ نقرأ القليل من البريد الإلكتروني، ولا نستخدم الحاسب الشخصي بالمنزل، ونقرأ المزيد من

النصوص التي على الورق بدلًا من تلك التي على الشاشة ونغلق ذلك الهاتف المحمول المزعج لفترات أطول؟ سوف أتناول كل هذا وأسئلة أخرى في الفصول القادمة.

أود الآن الالتفات إلى هؤلاء الذين يبدون خارج المعادلة، مئات الملايين في الدول المتقدمة والدول النامية الذين بسببهم لا يجد مجتمع الشبكات مكانًا. هؤلاء الذين خارج المعادلة والذين لم يسمعوا من قبل صوت سماعة الهاتف عند رفعها، أو لم يستخدموا الإنترنت مطلقًا، هؤلاء الملايين الذين من أجلهم سوف يصبح ذلك الرنين اللطيف للهاتف المحمول في جيوبهم اهتزازًا عجيبًا - هؤلاء الذين تم إلغاؤهم من مجتمع الشبكات، هؤلاء الذين في الجانب الخطأ فيما أطلق عليه بعد ذلك «الفجوة الرقمية».

الفجوة الرقمية المُلغاة

بمجرد أن بدأت تقريبًا ثورة تكنولوجيا المعلومات في التطور وتشكيل ذاتها كـ «تغير نموذجي» اجتماعي، وثقافي، وتكنولوجي، واقتصادي كبير، بدأ الناس في ملاحظة أن المنافع لم تكن تتدفق بشكل مباشر وسلس، سواء داخل الدول أو عبر العالم ككل. كانت الثورة الرقمية تقوم بإحداث ما جاء سريعًا ليطلق عليه «الفجوة الرقمية». في الواقع، وكان قد انطلق سريعًا وبشكل مفاجئ كل من الحكومة والحياة العلمية والثقافية في هذا المجال. وقد ذكرت في الفصل الأول أن عام 1995 كان عامًا مهمًا في حياة الإنترنت مع انطلاق Windows 95 وبرنامجه المجاني الخاص بتصفح الإنترنت ليساعد ذلك في عمل معدلات اتصال هائلة. وفي نفس العام أعلنت حكومة الولايات المتحدة عن إدراكها للفجوة الرقمية الناشئة. ونشرت «الإدارة الوطنية للمعلومات والاتصالات السلكية واللاسلكية» The National Telecommunications and Information Administration (NTIA) التقارير الخمسة السنوية الأولى المسماة «التغلغل عبر الإنترنت» (NTIA 1995) التي دعمت بالوثائق امتداد هذه الظاهرة الجديدة.

وقد تزعمت الولايات المتحدة طريقة تحديد القضية وتبعت الدول الأخرى القضية بسرعة. وأدركت اليوم كل دولة في العالم تقريبًا الفجوة الرقمية الخاص بها ووضعت دول كثيرة موارد أساسية من أجل المجهودات التي يمكن أن «تسد النقص» فيه. وفي الواقع، كان

المدخل المركزي إلى تكنولوجيا المعلومات يميل إلى أن يكون ذلك الذي صنفته الأمم المتحدة على أنه تقريبًا قضية حقوق إنسان. وفي عام 1999 اختصر «كوفي عنان» Kofi Annan ـ الأمين العام للأمم المتحدة ـ الفكر العالمي الجديد حول مركزية تكنولوجيات المعلومات على أنه وضع إنساني. وقد ذكر:

> **ينقص الناس أشياء كثيرة: الوظيفة، والمأوى، والغذاء، والرعاية الصحية، والمياه الصالحة للشرب. اليوم، يعد قطع الخدمات الرئيسية للاتصال عن بعد حرمانًا شديدًا مثل أشكال الحرمان الأخرى تقريبًا وربما تقل بالفعل فرص إيجاد العلاج لها. إن الاتصال عن بعد لا يعد قضية وزير الاتصالات فقط، لكنها تمثل أيضًا قضية وزراء التعليم، والصحة، وكثيرين آخرين.**
>
> (عنان 1999)

وكان مثل هذا الاهتمام الرسمي العالمي يعني أن الكثير من تمويل الأبحاث تم تخصيصها من أجل القضية منذ منتصف التسعينيات من القرن العشرين. وقد شاركت كل من الحكومات، والدوائر العلمية والثقافية، والمجتمعات المدنية بشكل جدي في تعريف الفجوة الرقمية واقتراح الحلول لها. ويمكن للشخص أن يحصل على معرفة طفيفة حول ميزان الاهتمام عن طريق «الفجوة الرقمية» في أحد برامج تصفح الإنترنت. وفي إحدى المرات اقترب محرك بحث «جوجل» الخاص بي من 667,000 مرجع (في 0.26 ثانية). وقد أدى ذلك إلى تعويض 740,000 (في 0.18 ثانية) خلال الأسبوع اللاحق. ورغم ذلك، فإن إجراء مسح لجزء من تلك المواقع ونظرة مفصلة حول ما نشر من كتب وصحف يوضح أن كمية كبيرة من الأبحاث لا تصل إلى الهدف وأنه قد فقد الكثير من الاهتمام الإيجابي وكذلك ملايين الدولارات منذ عام 1995. وتتمثل القضية الرئيسية في أن الكثير جدًا من هذه الكتابات ترى أن مشكلة الفجوة الرقمية تعد واحدة من «فجوات التكنولوجيا». ويعد هذا سائدًا بشكل خاص في الفكر الحكومي الرسمي. وبالتالي، يميل «الحل» إلى التركيز على طرق سد هذه الفجوة، من خلال المزيد من الحواسب الآلية في المدارس والكليات على سبيل المثال، مما يتوسع بالشبكة نحو الريف والمناطق النائية، ويمد أيضًا بمدخل البيانات المجاني وزهيد التكلفة إلى المراكز الثقافية الاجتماعية في المناطق الفقيرة، أو يوفر الإنترنت والحواسب الآلية المجانية أو زهيدة التكلفة للأفراد والأسر الفقيرة

في منازلهم. وتم التركيز على التدريب أيضًا: تقديم مهارات الحاسب الآلي إلى الكبار والشباب والعاطلين، من هنا يقوم هذا المدخل بالتدعيم، حتى يتم الكشف عن إمكانياتهم.

كان هذا الفكر دليلًا في أول تقرير حول التغلغل عبر الإنترنت في عام 1995 ـ الجزء المؤثر من البحث الذي كان يعتمد على الاحتياطي من عقلية «الخدمة العالمية» التي نشأت في عصر الهواتف وساعدت في تشكيل المدخل العام في «الولايات المتحدة» عبر العالم. وشهد التغلغل عبر الإنترنت المشكلة كمدخل معلومات، الفصل بين «مالكي» المعلومات و«المفتقرين» إلى المعلومات. وينص التقرير على أن «المفتقرين» إلى المعلومات يتواجدون بشكل غير متناسب في المناطق الريفية في [الولايات المتحدة] ومدنها المركزية» (NTIA 1995). إن كل تقرير حول التغلغل عبر الإنترنت وضع الأساس الذي يمد بالمدخل نحو خدمات المعلومات (نموذج «الخدمة العالمية») يعد أكثر الطرق فعالية لسد الفجوة الرقمية. وبشكل عام، أصبحت المداخل إلى الفجوة الرقمية «محاولة جذب الموارد نحو المشكلة» ـ وهي المداخل التي كان لها بالكاد تأثير ما.

وذكر «براين لودر» Brian Loader (2002) تجربة مراكز المملكة المتحدة المتصلة بشبكة الإنترنت في بريطانيا، «الحل» الحكومي للفجوة الرقمية والذي يهدف إلى إمداد الجميع بخدمة الإنترنت. ويكتب:

> ربما يكون من المفاجئ إلى حد ما، تلك الصورة النادرة التي تنبثق في «المملكة المتحدة» لعدد ضخم من المراكز المتصلة بشبكة الإنترنت غير المستخدمة بشكل عام التي قد تشابهت مع حالة المعدات الرقمية وتمد بالتدريب الرسمي الذي لا علاقة له باحتياجات مستخدميها المستهدفين.

ورغم عنوانه غير المبتكر، يقدم كتابًا بعنوان «عبور الفجوة الرقمية» Bridging the Digital Divide (2002) تصحيحًا مفيدًا للتوجه الفكري الخاص بـ «تقديم الحواسب الآلية لهم». ترى المؤلفة، «ليزا سيرفون» Lisa Servon، أننا في حاجة إلى إعادة تعريف ما عرف بمصطلح «الفجوة الرقمية». وترى «سيرفون» أن القضية الحقيقية لا تعد مدخلًا لتكنولوجيات المعلومات والاتصال. ويعد النقص في المدخل أحد ظواهر قضية أكثر عمقًا بكثير، والتي تمثل «مشكلة الفقر وعدم المساواة الدائمين» (2002: 2). وتستمر قائلة:

بشكل واضح، تعد الفجوة الرقمية أكثر تعقيدًا بكثير من مجرد النقص في الحواسب الآلية. لذلك أدت الحلول السطحية إلى الغموض أو ربما أدت إلى تفاقم المشكلة بشكل كبير. وعندما نمد الناس بالحواسب الآلية، نجد أن ذلك لا يمثل تغيرات كبيرة. ولا تعمل تكنولوجيا المعلومات في حد ذاتها كوسيلة ارتقاء بعيدًا عن الفقر.

(سيرڤون 2002: 6)

إن التوصل إلى تعريف فوري، كما ترى «سيرڤون»، يعد بلا شك شيئًا جوهريًا. وبمجرد أن ندرك القضية جيدًا وأين تكمن المشكلة بالفعل، يمكننا البدء في التفكير في الطرق التي ربما تعالجها بفاعلية. وهي تستمر في التأكيد على أن تكنولوجيات المعلومات والاتصال يمكنها أن تكون جزءًا من الحل، لكونها قادرة على تقديم طرق جديدة لعلاج مشكلات الفقر وعدم المساواة. وتستمر قائلة إنه رغم ذلك، و«للقيام بأي عمل مؤثر» «فإنه لا بد من تمكين التكنولوجيا عن طريق السياسة العامة الفعالة بالتعاون والمجهودات المكثفة من خلال القطاعات الخاصة سواء الهادفة للربح أو غير الهادفة للربح» (2002: 6، تأكيد مضاف).

ويعد كتاب «سيرڤون» كتابًا قيمًا حيث تقوم فيه بتحديد طبيعة المشكلة بشكل مناسب، وترى أن الفجوة الرقمية تعد مؤشرًا لقلق أكثر عمقًا فيما يتعلق بالفقر والتهميش الاقتصادي. ورغم ذلك، يتمثل مضمون رأيها في فكرة أن تكون المسألة ببساطة متعلقة بحسن النية لدى كل من الجبهة العريضة للحكومة، وأصحاب الأعمال، والمنظمات غير الهادفة للربح. ومع شخصياتهم «الملغاة»، لا بد أن يأتي أصحاب الحق هؤلاء معًا لتعديل السياسة العامة بحيث تتكيف مع عصر المعلومات. وهذا سوف يساعد بشكل افتراضي في خلق وظائف ذات قيمة يمكن أن ترتبط بفرص تدريب ذات قيمة. وسوف يتطابق مثل هذا المدخل مع وصول سهل نحو تكنولوجيات المعلومات والاتصال إلى الأشخاص الذين يتم تدعيمهم، لتبعدهم عن الفقر المستوطن ولتسد فجوات الثروة والتكنولوجيا. ومنطقيًا، يبدو هذا بسيطًا، وبافتراض وجود الحماس بين أصحاب الحق، لا بد أن تظهر هناك فرصة جيدة للنجاح عبر مثل هذا المدخل. ورغم ذلك، أعتقد أن «سيرڤون» لم تحسن في الأساس القراءة عن طبيعة الرأسمالية في مجتمع الشبكات.

ناقشنا في الفصل الأول كيف تطور مجتمع الشبكات من الرابطة التي بين ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال وبين صعود الليبرالية الجديدة كقوة سياسية، واقتصادية، وثقافية. وكان المدخل إلى إعادة الهيكلة، كما رأينا أيضًا، يتمثل في «مرونة» العمل، والاتجاه الحر لرأس المال، وإنهاء العمل الحكومي المنظم لما لكل هذا من دور مؤثر في إدارة الاقتصاد. وكانت قوى السوق تقوم بضبط خطواتها وتحديد شكل «الاقتصاد الجديد». وتعد بالفعل بعض التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية لليبرالية الجديدة معروفة جيدًا (مارتن Martin 1998). دعونا إذن ننظر إلى ما أعتبره ثلاثة تأثيرات رئيسية للرابطة بين الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال ثم نضع مدخل «سيرڤون» لأصحاب الحق في إطار كل هذا.

الأول: هو ما يسمى «فجوة الثروة». إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء قد اتسعت إلى مستويات غير مسبوقة تقريبًا وذلك في مجتمعات الليبرالية الجديدة والمعاد هيكلتها. هذه الحقيقة وحدها تجعل المشروع الديمقراطي لـ «سيرڤون» أكثر صعوبة للبدء فيه. لماذا؟ لأنه كلما اتسعت الفجوة، ازداد احتمال أن يتذكر المزيد والمزيد من الناس كلمات قاضي القضاة الأسبق بالمحكمة العليا الأمريكية، «لويس دي. برانديز» Louis D. Brandeis، الذي قال عام 1941 إنه «يمكننا الحصول على الديمقراطية في هذه البلاد، أو يمكننا الحصول على ثروات طائلة متركزة في أيدي القليلين، لكن لا يمكننا الحصول على الاثنين معًا». ويمتلك اليوم في «الولايات المتحدة» 1 في المائة من السكان 40 في المائة من ثروة البلاد ـ ذلك يعود بنا إلى مستويات عدم المساواة التي مررنا بها في الماضي خلال العشرينيات من القرن العشرين. الثاني: إن قوة البلاد في معظم الدول المتقدمة قد انتقلت إلى قوة السوق والشركات الكبرى. إن العولمة الليبرالية الجديدة كانت تعني ـ وفقًا لرأي «ريتشارد فالك» Richard Falk ـ أن « نظام الدول في الحياة السياسية يعد مثل إطار العمل المنظم المكتفي ذاتيًا بالنسبة للحياة السياسية على المستوى العالمي قد انتهى بشكل أساسي» (1999: 35). وما يعنيه هو أن كلًا من العولمة الاقتصادية، وقوة السوق، وفوضى أسواق الأسهم، والشركات الضخمة متعددة الجنسية التي يمكنها نقل البضائع، والخدمات، والإنتاج، ورأس المال عبر الحدود القومية قد أصبح بشكل متزايد مركزًا للجذب في «الاقتصاد الجديد». تبقى الدول «عاملًا سياسيًا ما قبل البروز»، كما يحذر «فالك»، لكنها الآن لا بد أن تتهيأ لرد فعل الأسواق عند صياغة السياسة. وفقًا لذلك، فقدت الدولة كمًا كبيرًا

وجيدًا من سلطتها لتشكيل وتنفيذ السياسة التي قد تبدو أنها مضادة للسوق أو «سيئة بالنسبة لمجال الأعمال». أخيرًا، فإن الاتصال المتبادل لهذه العمليات يمثل تقسيمًا للمجتمع. ويمثل ذلك «إعادة هيكلة» لمواطني وأعضاء الجماعات المختلفة والمجتمعات ليصبحوا مستهلكين مستهدفين، حيث تعد المشاركة المدنية في حالة انحدار وحيث تقلص «رأس المال الاجتماعي» - أي جوهر اتصالاتنا الإيجابية، والاجتماعية، والمكونة للمجتمع مع بعضنا البعض - (على سبيل المثال «سينيت 1999 Sennett، بوتنام 2000 Putnam).

يتمثل مفتاح مدخل «سيرفون» في «السياسة العامة الفعالة»: السياسة المركزية التي تقوم بصياغة وتنسيق الدور الذي يتم لعبه من قِبل الدولة على المستويات المحلية، والإقليمية، والقومية. وهنا، لا بد أن تلعب الحكومة دورًا رياديًا في توفير البيئة الملائمة من أجل خلق وظائف ذات قيمة لفترة أكبر من أن تكون قصيرة الأجل، وذات رواتب مجزية، وتحث على استخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصال بطرق مفيدة ومؤثرة في الحياة اليومية للناس. وعند مدى معين، فإن هذا يستلزم على الأقل المزيد من التنظيم والحماية للعمل، وهي الأشياء التي تزعج الأسواق والتي لا ترغب فيها الحكومات الليبرالية الجديدة في الوقت الحاضر. وتحتاج «السياسة العامة الفعالة» أيضًا في «الاقتصاد الجديد» إلى أن تأخذ بعين الاعتبار ما تستعد له الأسواق والمشروعات الكبرى لتتماشى معه. وإذا كان هذا يعني أجورًا أعلى، ويعطي المزيد من الحقوق للعمال، ويجعل الرؤساء أكثر مرونة وكذلك العمال، إذن، ومرة أخرى، لا يكون هناك داعٍ لأن نكون أكثر حماسة. وقد أصبح منطق العولمة الليبرالية الجديدة وثورة المعلومات والاتصال، منذ أيامها الأولى، يقوم على استبدال العمال، وإلغاء الوظائف، وجعل هؤلاء الذين لديهم عمل يتمتعون بمرونة عالية وجعل ظروف عملهم غير مؤكدة. وهذا ما يجعل الأعمال «تنافسية» في «الاقتصاد الجديد». ويعد هذا المنطق غير ديمقراطي، واستغلالي، وقد أدى إلى توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء إلى مستويات عالية للغاية. وقد خلق هذا المنطق أيضًا كمًّا ضخمًا من الثروة وإمكانيات مفرطة وبالتالي لا بد أن يكون من السهل نسبيًا إمداد الفقراء والعاطلين بالحواسب الآلية ووسائل الاتصال ذات التردد واسع النطاق - مجانًا. وأصبح هذا هو رد الفعل العام للفجوة الرقمية، ويعتبر هذا شيئًا يمكن القيام به بسهولة، وإيجابية سياسيًا، وغير ضار اقتصاديًا. وذلك لا يحدث. ولن يبعدهم عن الفقر أو يسد الفجوة

الرقمية، لأن تغير رأس المال الذي يهيمن حاليًا على مجتمعاتنا واقتصادياتنا يخلق بالفعل ويعتمد على الظروف التي تخلق الفجوة.

قبل البدء في تناول الفجوة الرقمية نحن في حاجة إلى إعادة تعريف ما تعنيه الفجوة الرقمية وتحديد موضعها. لا بد أن تبدأ «السياسة العامة الفعالة» من المقدمة التي تنشأ منها الفجوة ومن النظام الاقتصادي الاستغلالي وغير العادل وليس من النقص شديد الوضوح في الدخول إلى تكنولوجيات المعلومات والاتصال. ودائمًا ما يكون رأس المال معتمدًا على الاستغلال وعدم المساواة. ورغم ذلك، ومع صعود الليبرالية الجديدة، وقانون الأسواق، وإلغاء الدولة كجهة تعمل على تحسين أسوأ الجوانب في النظام، ازداد الظلم الاجتماعي والاقتصادي بشكل متواصل. وإلى أن أصبحت قوانين السوق والأعمال لصالح السياسات الاجتماعية الديمقراطية الشاملة لتناول الفجوة الرقمية، يمكن للفجوة ذاتها أن تنمو وحدها وتصبح أكثر تحديًا. إن هؤلاء الذين تم إلغاؤهم من الفجوة الرقمية (أغلبية البشر على الكرة الأرضية) سوف يكونون بذلك خارج مجالات القوة، وخارج مدار الفرصة الاقتصادية، وبدون مداخل نحو أدوات التغيير (تكنولوجيات المعلومات والاتصال) التي ـ داخل إطار القوة الاجتماعية والفرصة الاقتصادية ـ لا بد أن تتجه إلى مجتمع شبكات أكثر شمولًا وتنوعًا.

الحروب العالمية السلكية

لا يعد التطور المتواصل في «الفجوة الرقمية» إلى «الحروب العالمية السلكية» شيئًا غامضًا كما ظهر في البداية. ولدى الفجوة ـ كما رأينا ـ مكانها في الرابطة بين العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال والقوى المحركة الاستغلالية والقمعية اجتماعيًا التي تنبع منها. وتتدفق «الحروب العالمية السلكية» أو ثورة النزاع المسلح في مجتمع الشبكات بشكل منطقي من طبيعة رأس المال أو «المصادر العسكرية لثورة المعلومات» التي يرى كل من «روبينس» و«ويبستر» أنها تمثل أبعادًا مهمة يجب ألا يُستخف بها (1999: 150). وقد بدأت تتقلص مشكلة كل من التهميش والحرب مع السمات الرقمية الجديدة لعصر المعلومات. وأود استخدام هذا القسم القصير بعض الشيء لبيان كيف أن النزاع المسلح قد تغير من خلال استخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصال ثم مناقشة ما قد يعنيه هذا لفهمنا الجماعي

للصراع وكيف تم وضع «الحروب العالمية السلكية» داخل التركيبات العامة للقوة العالمية في هذه المرحلة المبكرة من القرن الواحد والعشرين.

وقد أدى كل من ثورة تكنولوچيا المعلومات وتطور مجتمع الشبكات إلى التغيير ليس فقط في الطرق التي من خلالها نؤدي العمل ونتصل ببعضنا البعض، لكن أيضًا في الطرق التي من خلالها يتم تنظيم وإدارة وفهم الصراع. وفي رأيي، أن النزاع المسلح قد تحول إلى ثورة على الأقل في ثلاث طرق مختلفة (ورئيسية). وهي:

- في آلة الحرب،
- في الطرق التي من خلالها تتم إدارة الحرب،
- في الطرق التي من خلالها يتم تمثيل الحرب.

وسوف أعرض كل ذلك في وقته. لكن لا بد أن نذكّر أنفسنا أولًا بما قد حل محل أشكال النزاع في الدول الغربية المتقدمة خاصة في «الولايات المتحدة» ودول أوروبا الغربية.

في الفترة التي تلت «الحرب العالمية الثانية» ـ وحتى الوقت الحالي ـ تم تشكيل وتنظيم وتمثيل الحرب بين الأمم عبر خطوط الإنتاج الضخم. وكانت الجيوش الضخمة النظامية أو الإلزامية ـ المجهزة بمعدات مطابقة للمواصفات القياسية مثل الدبابات والمدافع والصواريخ ـ تمثل آلة الحرب، وكانت الحروب الإقليمية للمناورات والاشتباكات المسلحة بين الأعداء الباحثين عن النصر من خلال قوة ساحقة تمثل طريقة إدارة الحرب، وكان يتم تمثيل الحرب من خلال الإعلام كحروب أيديولوچية (الرأسمالية في مواجهة الشيوعية)، أو حروب تقاوم الاعتداء (عادة اغتصاب الأراضي الإقليمية) من قِبل قوى خارجية. وبالنسبة لكل هذه الفترة، فقد تم تجنب الحرب الرئيسية بسبب عدم الوصول إلى تسوية بشأن الملف النووي بين «العالم الحر» الرأسمالي وبين الأنظمة الاستبدادية «الشيوعية». ورغم ذلك، فإن القوى العظمى التي نشأت بعد الحرب ـ «الولايات المتحدة» و«الاتحاد السوفيتي» ـ قامت بإدارة عدد من حروب التحالفات من خلال الأنظمة الخاضعة لدول أخرى في أرجاء العالم في أفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وجنوب شرق آسيا. حيث أصبحت القوى العظمى طرفًا فعليًا في الحرب المفتوحة، مثلما الحال في «فيتنام» ضد الأمريكيين

(1965 – 1973) و«أفغانستان» ضد الروسيين (1979 – 1989)، هزيمة مخزية وفترة طويلة من الأزمات القومية الاجتماعية والسياسية.

وفي فترة قصيرة من الزمن تم القضاء على هذا الإطار العام الفاشل بشكل نهائي (من وجهة نظر القوى العظمى). وبالفعل، يقوم «كاستيلز» بعرض تجارب «ڤيتنام»، و«أفغانستان» كما يلي:

> ... نقاط التحول في مقدرة الدول على تدمير مجتمعاتها من أجل أسباب واهية. ومنذ الحرب والتهديد الفعلي لعودتها، لا تزال تمثل جوهر قوة الدولة، بعد أن أصبحت منذ نهاية «حرب ڤيتنام» مستغرقة في إيجاد طرقٍ لا تزال تصنع الحرب. وقد توصلت الدول الديمقراطية المتقدمة إلى ثلاثة استنتاجات، مع الأخذ في الاعتبار الشروط الضرورية لصناعة الحرب المقبولة إلى حد ما لدى المجتمع:
>
> 1. لا يجب أن تورط المواطنين العاديين، وبالتالي يقوم بها جيش نظامي، لذلك لا بد أن يتم تخصيص الهامش الإجباري للظروف الاستثنائية، وينظر إليها على أنها بعيدة الاحتمال.
> 2. لا بد أن تكون قصيرة المدة، بل لحظية، لذلك لا بد ألا تكون العواقب بطيئة بحيث تستنزف الموارد البشرية والاقتصادية وتتزايد التساؤلات حول مبرر قرار الجيش.
> 3. لا بد أن تكون شريفة، وأن تهتم بعلاج الجرحى حتى مع الخصم، وأن يكون لديها حدود معقولة وأن تكون محجوبة بقدر الإمكان عن الرأي العام، مع الاتصال عن قرب في معالجة المعلومات، وصناعة الصور، وصناعة الحرب.

إن تكنولوجيات المعلومات والاتصال في كل أشكالها تلائم هذا النوع الجديد من أنواع شن الحرب (أو على الأقل تظهر، عندما يتم إعداد التقارير بطريقة الإعلام العالمي)، أو الجسر «الإستراتيجي، أو برج الرادار ـ أو كل ما أخبرنا به ضابط التعليمات بالجيش الذي ظهر في محطة «سي إن إن» ليخبرنا عما كانت عليه بالفعل هذه الصورة المجزأة والتي تفتت سريعًا. لم تعد

أجولة الجثث تذهب بشكل متواصل إلى المنازل علنيًّا، بتحميلها بالطائرة كما فعلوا في «ڤيتنام». وتدار الحرب الآن على مستوى تكنولوچي أعلى. «أطلق النار واذهب»، ذلك ما يقال في اللغة العسكرية. إنها تدار، بشكل افتراضي، عبر هجمات شريفة، وتهتم بعلاج الجرحى، ومرنة، ومكثفة، ومدمرة بشكل هائل باستخدام صواريخ «كروز» التي يتحكم فيها رجال ونساء في مكاتب على بُعد أميال من ضربات المدفعية ـ أطلق النار واذهب. عندما يطير قائدو الطائرات فعليًّا نحو أهدافهم، فإنهم يطيرون أيضًا عاليًا جدًّا داخل B52 التي لا يمكنهم رؤيتها (أو لا يمكن أن تهاجم من قِبل) العدو فيقومون بإطلاق الهجمات الساحقة، أو يكونون في غرفة قيادة الطائرة النفاثة ذات السرعة الفائقة، أو قاذفة القنابل «ستيلث» Stealth حيث يتم تحديد موقع الأهداف على شاشات الڤيديو وتثبتها الحواسب الآلية ثم تقوم بالقصف بالقنابل.

ويوجد لدى مثل هذه الحرب «الوسيطة» في مجتمعنا الوسطي للغاية بُعدان مركزيان يفصلانها بعيدًا عن أشكال الحروب الأخرى «التقليدية». يتمثل البعد الأول في أن مجتمعنا الوسيط بشكل بالغ يسمح لأشكال القتل الوسيطة بشكل بالغ خلال هذه الحروب وذلك بسيطرتها على أشكال الحرب عالية التقنية. وصل كل من الموت والدمار إلى درجة مذهلة غير مسبوقة. ويمثل العدو ـ بالنسبة لتلك الحروب التي تستخدم فيها التكنولوچيا ـ ظلالًا على شاشات الرادار، أو نظمًا إحداثية على الخريطة الإلكترونية. فهم يمثلون أهدافًا محددة من خلال الأقمار الصناعية وتخزن تلك الأهداف في الحواسب الآلية الخاصة بوزارة الدفاع، لذلك يجب أن يقوم شخص فقط (قائد الطائرة داخل حجرة القيادة الخاصة به أو ضابط أركان حرب الجالس على مقعد مريح في «مركز القيادة والتحكم» وفي يده فنجان القهوة) بنقرتين مزدوجتين بفأرة الحاسب واللتين تمثلان تنفيذ الأمر العسكري فيتحول هذا الإجراء إلى فعل مدمر من مسافة بعيدة. ويتمثل البعد الثاني في كيف أن تلك العملية الوسيطة تعد وسيطة في حد ذاتها (يتم تمثيلها) كأخبار وكمعلومات يمكننا استخدامها. وفي الحروب الرقمية ضد «العراق» عام 1991 و2003، وضد «صربيا» في عام 1999، وضد «أفغانستان» في عامي 2001-2، حصل العالم ككل على نافذة مُصفاه، ونقية، وأيديولوچية بدرجة كبيرة حول ما حدث. وقد وصلت إليك الأحداث الوسيطة تكنولوچيًّا عن طريق إعلام منظم ووسيط بدرجة كبيرة. وفي حرب «العراق» الثانية، وصلت هذه العملية إلى مستويات جديدة من التعقيد مع ابتكار «الإعلام غير المباشر». وفيما يجاوز خمسمائة صحفي

هنا ـ الغالبية العظمى من هؤلاء الذين كانوا لا بد أن يروا، ويسمعوا، ويكتبوا التقارير عن الحرب كانوا «يعملون بشكل غير مباشر» مع وحدات الجيش، والقوات الجوية، والقوات البحرية للولايات المتحدة. لقد كان يرافقهم طوال الوقت «المفكرون» العسكريون ـ نظراء مفوضي الجيش الأحمر[1] ـ الذين كانوا يطبقون قواعد صارمة فيما يتعلق بما يجب أن يكتبوا عنه في التقارير وما يجب ألا يكتبوا عنه. علاوة على ذلك ـ كما كان يشكو صحفيون كثيرون فيما بعد ـ فلم يكونوا يعرفون ما يحدث في أي مكان آخر، وكانوا قادرين فقط على تقديم ما أسماه وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» Donald Rumsfeld نفسه «شكل شاروقة الصودا» للحرب، أي وصف جزء صغير ومنفصل عن الصورة الكبيرة (مارشال Marshall 2003). وقد شعر الكثير من الصحفيين المستقلين بأن هذا يعد قيدًا خطيرًا على نظام الحرية الخاص بهم في كتابة التقارير وإتمامها وحدهم، متجولين حول القرى والمدن في مركبات ذات أربع عجلات، ومعتمدين على المبادرة والتجربة. لقد فعلوا ذلك معرضين أنفسهم للخطر. ذكر «الاتحاد الدولي للصحفيين» The International Federation of Journalists (IFJ) أن الصحفيين غير المباشرين قد قتلوا بمعدل نسبي أعلى من جيش الولايات المتحدة، على الأقل أربعة عشر عند «المرحلة الأساسية» للقتال التي كان قد أعلن من قِبل الرئيس «بوش» في 1 مايو. علاوة على ذلك، طالب «الاتحاد الفيدرالي الدولي للصحفيين» بالتحقيق في «جرائم الحرب» حول بعض من هذه الحالات من القتل، مفترضًا أن الضحايا ربما كانوا مستهدفين سريًّا وعمدًا من قِبل قوات «الولايات المتحدة» (مار Marr 2003).

وكما يرى «چين بودريلارد» Jean Baudrillard (في) كتابه الشهير «حرب الخليج... لم تقع» The Gulf War Did Not Happen (1995)، تعد تلك حقيقة فعلية تكتمل بالذخيرة الحية والأهداف الحقيقية. وكانت حرب الخليج عام 1991 (وكل الحروب الرقمية اللاحقة)، طبقًا لقول «بودريلارد»، صورة مزيفة، ونسخة من الحقيقة، وصورة رقمية على شاشات تليفزيوننا وعلى شاشات الحاسب الآلي الخاص بالجنود، والبحارة، وقائدي الطائرات، ومقدمة لبرنامج

(1) الجيش الأحمر: يشير رمزيًّا إلى حركة الطبقة العاملة في الاتحاد السوفييتي في نضالها ضد الرأسمالية والمطالبة بالمساواة بين أفراد المجتمع بين عامي 1918–1922 . وفي 25 فبراير عام 1946 تحول هذا الجيش إلى الجيش الوطني للاتحاد السوفييتي وأعيدت تسميته إلى جيش الاتحاد السوفييتي. وقد كان هذا الجيش من أقوى الجيوش في العالم منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991.

«باور بوينت» PowerPoint التي يصممها الموظفون العسكريون لمحطة «سي إن إن»، و«بي بي سي» وباقي الإعلام في أنحاء العالم. وتتمثل وجهة نظر «بودريلارد» في أن حقيقة الحرب قد فقدت لدينا عبر طبقة فوق طبقة من التوسط. إن العدد المنخفض للغاية لإجمالي حالات الموت يدعم هذا الزيف، مع المعنى الضمني لنسختنا الوسيطة للحرب الوسيطة الذي يشير إلى أن هذا يمثل حربًا ونصرًا دون موت تقريبًا.

كانت حروب «العراق»، و«صربيا»، و«أفغانستان»، ثم «العراق» مرة أخرى في عام 2003 تعد حروبًا للتقنية العالية في مواجهة التقنية المنخفضة، وحروب الفجوة الرقمية، ونمط جديد للحرب خلال القرن الحادي والعشرين. وفي الواقع، مثلت «العراق» في عام 2003 مستوى أعلى من التعقيد التقني، وفجوة رقمية أكثر اتساعًا من ذي قبل. واستلزم الغزو لإخراج «العراق» من «الكويت» في عام 1991 قوة أرضية ضخمة من نصف مليون جندي ضد جيش نشط ومسلح بشكل جيد. وفي عام 2003 كان أقل من نصف ذلك الرقم في مواجهة كتلة مجهزة بشكل ضعيف وغير نشطة. وقد ظهرت العواقب الوخيمة لحجم الدمار من خلال القوة الجوية عالية التقنية. ونتيجة ذلك، لم يكن لدى (المدنيين وكذلك الجنود) الضعاف رقميًا فرصة وماتوا بالآلاف، حيث لم تكن لديهم القدرة على تجنب الانقضاض الجوي (انظر www.iraqbodycount.net). وقد أظهرت أغلبية الجيش العراقي الذين كانت لديهم الفرصة، القليل من المقاومة أو حتى عدم المقاومة وذابوا مرة أخرى داخل السكان المدنيين.

ومثلما يقود مذهب الليبرالية الجديدة النظام الرأسمالي وتكنولوجيات المعلومات والاتصال ليدع في أثره الملايين داخل الفجوة الرقمية و«ملغيين»، فقد تركت الحروب العالية التقنية التي أديرت عن طريق الدول المتقدمة (الولايات المتحدة في الأساس) عالمًا واقعيًا من الدمار، والموت، والاستياء في الشرق الأوسط، وفي شمال أفريقيا، وفي آسيا الوسطى. وفيما يتعلق بتأثيرات هذا الفجوة الرقمية العسكرية، يرى «سكوت بيرتشيل» Scott Burchill، المُنظِر الإعلامي، أنه «لن يوجد أي قدر من الولع التكنولوجي ليعزل «الغرب» عن نتائج غير متوقعة لأدائه حول العالم» (2003). وتمثل «النتيجة غير المتوقعة» الرئيسية ما يراه «بنيامين باربر» Benjamin Barber (1996: 23) «الاعتماد المتبادل القوي والمتناقض»، وانقطاع الاتصال

المتزايد داخل العالم السلكي: التقنية العالية والتقنية المنخفضة، الأغنياء والفقراء، المستغِلين والمستَغلين ـ «عالم ماك» McWorld ضد «الجهاد» Jihad.

مع الاعتراف بفشل الخدمات الأمنية في «الولايات المتحدة» ـ رغم الوفرة الهائلة في الطرق عالية التقنية من المراقبة ـ في التنبؤ بالهجمات على «مركز التجارة العالمي»، ومبنى «البنتاجون» أو إحباطها، فإن أكثر اللحظات اللافتة للنظر حتى الآن تتمثل في انقطاع الاتصال بين الأفراد. وفي الواقع، فإن اعتماد «الولايات المتحدة» المفرط على تكنولوجيات المعلومات والاتصال في جمع الاستخبارات على حساب «الأشخاص في موقع النفوذ الفعلي»، الذين يطلق عليهم «الذكاء البشري»، له تداعيات قاسية ـ وهو ما تطلق عليه وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA «عودة العاصفة». ان النقص في كل من الذكاء البشري في المجالات ذات العلاقة، وفي الناس، وفي اللغات، والسياسة، والثقافات، كان عاملًا مشاركًا ومهمًا في الغفلة عن تنامي تهديد «القاعدة». وكانت النتيجة أن الحرب الفعلية عالية التقنية أصبحت واقعًا منخفض التقنية عبر سماء «نيويورك» و«واشنطن» بدلًا من «كابول» و«بغداد».

مجتمع المراقبة: التعايش مع «الديكتاتور» الرقمي

أنهي هذا الفصل ببعض المناقشات حول الموضوع الذي يتدفق منطقيًا أيضًا من الأقسام التي تدور حول «الفجوة الرقمية» و«الحروب العالمية السلكية». وعبر التاريخ، وخاصة في الشكل الأكثر تركيزًا تحت سيطرة الرأسمالية، يتولد دائمًا كل من التهميش والاستغلال ويغرس في الذهن مقدارًا ما من الخوف بشأن كل من التهميش والاستغلال. إن إنشاء التقسيم الاجتماعي يخلق بالضرورة «آخر» اجتماعيًا، واقتصاديًا، وأحيانًا ثقافيًا. وعادة يكون هذا «الآخر» غير معروف إلى حد ما، ومن المحتمل أن يكون مدمرًا وخطيرًا إلى حد ما، وبالتالي يحتاج ذلك إلى المراقبة والضبط. وقد أصبحت هذه العملية قاسية خاصة تحت سيطرة الليبرالية الجديدة. وبالتالي أرى أن ثورة تقنيات المراقبة المعتمدة على تكنولوجيا المعلومات والاتصال مثل كاميرا الفيديو closed circuit television (CCTV)، على سبيل المثال، يمكن أن ينظر إليها كأحد التناقضات الجوهرية للرأسمالية الليبرالية الجديدة. كما يرى «دين ويلسون» Dean Wilson و«آدم ساتون» Adam Sutton (2002: 7)،

> تعد كاميرا الفيديو CCTV صورة مصغرة للمتناقضات الثقافية لمرحلة الحداثة الأخيرة، فقد كان اختراعًا جديدًا في ذلك الوقت. وفي المجتمعات التي يعد كل من الخطر وعدم الاستقرار جزءًا متأصلًا فيها ـ حيث تكون العلاقات الاجتماعية والاقتصادية متغيرة ومتقلبة بلا حدود ـ هناك دافع مشابه للتحكم، والعزل عن المجتمع، والتدعيم، والتهميش. ويتم توجيه المراقبة العامة نحو واحدة من الأزمات المركزية في مجتمعاتنا: كيفية الحفاظ على اللعبة الحرة لقوى السوق إلى جانب التحكم والرقابة على الخطر الاجتماعي.

وأشار الفيلسوف والعالم الاجتماعي «زيجمونت باومان» Zygmunt Bauman بشكل أساسي إلى نفس أشكال الاتصال في كتابه الذي صدر عام 1998 «العولمة: الاعتبارات الإنسانية» Globalization: The Human Consequences. وقد كتب فيه أن «القضية المعقدة بشأن توافر الأمان التي نشأت من عملية العولمة تتجه نحو التقلص إلى قضية صريحة وواضحة بشأن «القانون والنظام» (1998: 5). بمعنى آخر، فإن العالم «المليء بالمخاطر وغير المستقر» الذي نشأ من خلال قانون السوق ودعمته تكنولوچيات المعلومات والاتصال لم يظهر كقضية تطالب بإعادة التفكير في كيفية هيكلة مجتمعنا ـ لكن كأحد الأعمال الإجرامية غير المعقدة التي تتطلب التحقيق والعقاب. علاوة على ذلك، فإن اختزال قضايا المجتمع المدني المعقد مثل الحق في الخصوصية إلى شأن بسيط للغاية «القانون والنظام» أصبحت عملية ناجحة بشكل كبير. وتعد كاميرات الفيديو CCTV أيضًا متاحة بشكل كبير أو يتم التعامل معها بلامبالاة (ويبستر Webster 1999: 122). إن الذين يعلنون عن قلقهم يقومون بإدارة الخطر الذي قد يعامل بمنطق «التساهل مع الجريمة» أو يخضع للتعبير المكرر القديم والماكر بأنه «إذا لم يكن لديك شيء لتخفيه، فإنه ليس لديك شيء تقلق عليه». إن المراقبة باستخدام كاميرات الفيديو CCTV في المراكز التجارية للتسوق، وفي الشوارع الرئيسية، وفي المناطق التي «يرتفع فيها معدل الجريمة» مثل المجمعات السكنية المتهالكة تستخدم بالفعل كأدوات لـ «للتحقيق في الجريمة ومنعها» (ويبستر 1999: 116). ورغم ذلك، فإن فعالية كل هذا تعتبر على الأقل غير مؤكدة، إلى جانب النتائج الناجمة عن الدراسات التي تميل إلى أن تكون مختلطة أو غير حاسمة (انظر على سبيل المثال ديتون Ditton وشورت Short 1999). لكن هناك قضايا أكبر حجمًا تتصل بالحريات

المدنية، خاصة حق المواطن في الخصوصية وإتاحة كاميرات الڤيديو CCTV والتقنيات المرتبطة بها لكي تستخدم كأدوات للرقابة الاجتماعية، والقمع السياسي، وتحديد ومراقبة ما يسميه «تشارلز راب» Charles Raab «الجماعات الاجتماعية المشبوهة» (1998: 157).

إن وجود التقنيات واسعة الانتشار من أجل المراقبة الرقمية عبر المجتمع يمكن بسهولة أن يتحول إلى إساءة لاستعمال الحريات المدنية. ومع كل من التقنية والقوانين المطبقة بالفعل في «المجتمعات السلكية» المتقدمة يمكننا أن نرى أمثلة حيث يحدث هذا. بعد الهجمات على «برج التجارة العالمي» ومبنى «البنتاجون»، أصبحنا في خطر الدخول إلى ـ وفقًا لقول «توماس هايلاند إيريكسين» Thomas Hylland Eriksen ـ «مرحلة الشك في العولمة» (2002: 1). وبموجب القاعدة العامة لـ «الحرب ضد الإرهاب»، أعادت معظم الدول في أرجاء العالم تقييم طرق الأمن الداخلي الخاصة بها بعد هجمات «القاعدة»، وبالتالي فإن الدول ذات التعقيد التكنولوجي التي يجب أن تمكنها من ذلك، تحولت إلى تكنولوچيات المعلومات والاتصال كأدوات مراقبة لتوفير طرق جمع للاستخبارات بمقدار أكبر من ذي قبل. وكما كتب «آدم پينيبرج» Adam Peneberg (2002):

> **خلال ساعات من الهجمات على «مركز التجارة العالمي» و«البنتاجون» ـ بينما أغلق الموظفون الفيدراليون المطارات وبدأ واضعو الإستراتيچيات في «الولايات المتحدة» في التخطيط لرد الفعل العسكري ـ كان «چون أشكروفت» John Ashcroft يقوم بتعبئة القوات الخاصة به. وفي الاجتماعات مع كبار الضباط في «مركز المعلومات والعمليات الإستراتيچية» Strategic Information and Operations Center التابع لـ «مكتب المباحث الفيدرالي» FBI ـ التي خلالها قام كل من البيت الأبيض وكذلك وزارة الخارجية الأمريكية ووزارة الدفاع بالاتصال بأجهزة الحاسب الآلي عن طريق الڤيديو كونفرانس» الآمن ـ أكد «أشكروفت» على مجموعة من الطرق المضادة للإرهاب. وبعد ذلك بأيام، أرسل النائب العام إلى «مجلس النواب الأمريكي» لائحة تسهل للحكومة التجسس على الهواتف الخلوية، وتمنح العاملين بمكتب المباحث الفيدرالية السلطة لمراقبة البريد الإلكتروني وعمليات تصفح الإنترنت، وتدعم قوانين غسيل الأموال**

وتضعف من حقوق المهاجرين. وكانت هناك أقاويل حول بطاقة الهوية القومية وحول استخدام البرامج الإلكترونية وعمليات المسح الشبكي في المطارات وفي أماكن عامة أخرى. والأهم من ذلك فإنه لا بد من إنشاء «مكتب لأمن أرض الوطن» Office of Homeland Security...

إن «الآخرين» في هذا المثال الذين يحثون على الشك كانوا «العرب» أو الذين يحملون «الملامح الشرق أوسطية». ورغم ذلك، فإن النقطة الأساسية هي أنه قد تقوم بذلك أية جماعة ـ ومن خلال قوانين متنوعة تم سنها في «الولايات المتحدة» وفي «الاتحاد الأوروبي» في «مرحلة الشك في العولمة» ـ قد يكون، الآن، نظريًّا، أية جماعة أو أي فرد.

وبالطبع كان «مجتمع المراقبة» الإلكترونية يعمل جيدًا قبل 11 سبتمبر. إن الشبكة التي تعمل كـ «امتداد» لنا في العالم السلكي تترك آلاف الآثار عند مرورنا من خلالها أو عند عملنا اعتمادًا عليها يوميًّا ـ غالبًا بطرق لا ندركها. وتعد شبكة الشبكات وسيلة مراقبة إلكترونية من نوع كاميرات الفيديو CCTV الأكثر وضوحًا، أي «الجامع» الرقمي الذي يعني أن كل نقرة مفتاح نقوم بها في الحاسب الآلي خلال الاتصال المباشر بالإنترنت، وكل بريد إلكتروني (سواء شخصي أو غير شخصي)، وكل مكالمة هاتفية أو رسالة نصية، وكل جزء من الرسائل التي ترسل عبر الإنترنت عن طريق جهاز PDA، وكل موقع إلكتروني تتم زيارته، وكل عبارة بحث ندخلها في محرك البحث، وكل ملف يتم نقله من حاسب ذي ذاكرة كبيرة إلى حاسب آخر ذي ذاكرة أصغر وبالعكس أو الملفات التي يتم نقلها بالتبادل، وكل «مجموعة تصوير فوتوغرافي» نقوم بإرسالها أو استقبالها كل ذلك معرض إلى التوقف والقرصنة بشكل سهل نسبيًّا. وبشكل سهل للغاية يمكن أن يكون عملك أيضًا غير مرتبط فقط بعمل «موفر خدمة الإنترنت» ISP الفضولي أو عمل رئيس العمل الذي يتصف بالشك، لكنه يمكن أن يكون أيضًا محل اهتمام وكالات الأمن مثل «مكتب المباحث الفيدرالي»، و«وكالة الاستخبارات الأمريكية»، ونظرائهما في الاقتصاديات المتقدمة.

وفي عالم متأثر بالعولمة حيث تعد «تدفقات» المعلومات التي تمثل قوام حياة «الاقتصاد الجديد» وأكسجين المنافسة بين الشركات وبين الدول أو دوائر الاستخبارات السرية عنصرًا حيويًّا. ويمكنها أن تمد وسائل التقدم للأمام في لعبة كل من الحرب التجارية بين الشركات من

أجل الهيمنة على السوق العالمية و«الحرب ضد الإرهاب» التي شنت بعد 11 سبتمبر. وكما ذكر «ديفيد ليون» David Lyon في كتابه «مجتمع المراقبة» Surveillance Society (2000)، إن عصر العولمة وثورة تكنولوجيا المعلومات يعنيان أن «المراقبة أصبحت عالمية». و في نهاية التسعينيات من القرن العشرين تم تسليط القليل من الضوء على المدى الفعلي لأنظمة «دائرة الاستخبارات» التي تتحكم فيها القليل من الدول الغنية المختارة والتي تتحدث اللغة الإنجليزية فقط. ويعرض «ليون» الأساس المنطقي لـ «دائرة الاستخبارات».

> محاولة دخول، وتوقيف، وتشغيل كل شكل حديث ومهم في مجال الاتصال، وفي كل ميدان بالغ الأهمية، وفي الكثير من الدول. يتم تدعيم مثل هذه المهمة الحيوية من قِبل أنشطة تحالف «الولايات المتحدة الأمريكية ـ المملكة المتحدة» للأمم المتحدثة باللغة الإنجليزية خاصة «الوكالة الأمريكية للأمن القومي» [National Security Agency] NSA.
>
> (ليون 2002: 95)

ومنذ السبعينيات من القرن العشرين كان هناك نظام أولي بالولايات المتحدة يسمى «إيتشيلون» ECHELON قام بإدارة هذا النظام إلكترونيًا، والذي امتد إلى «الصف الثاني» من الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية مثل «كندا»، و«أستراليا»، و«نيوزيلندا». وبالاستشهاد بقول «ليون» (2002: 96) مرة أخرى:

> جعل [ECHELON] من الممكن الفحص المستمر للرسائل التي أصبح حجمها كبيرًا للغاية بالنسبة للتنظيم اليدوي. وتستخدم الآن «قوائم المراقبة» الجامعة للأسماء التي «يمكن إدراجها في تقرير وكالة الاستخبارات» مفتاحًا أتوماتيكيًا يسمى «القاموس». وتقوم هذه القواميس بتخزين قواعد بيانات شاملة من أجل أهداف محددة، تتضمن الأسماء، والعناوين، وأرقام الهواتف، وأي معايير أخرى يتم اختيارها. وأصبح يتم إنشاء مثل هذه القواميس، على سبيل المثال، من أجل إيقاف كل رسالة برقية تمر عبر «لندن» كل يوم، حيث آلاف الاتصالات الشخصية، واتصالات الأعمال، والاتصالات الدبلوماسية. وتقوم أيضًا الحواسب الآلية التابعة لنظام ECHELON بالتصفية من خلال

الفاكس وبيانات المودم، وأيضًا موضوعات الاتصال، وطابعات الصوت ـ منذ عام 1995. وتعد أيضًا رسائل البيجر، وراديو الهاتف الخلوي، واتصالات القمر الصناعي الجديدة معرضة لمثل هذا الإيقاف.

وقد أشرت في عدة نقاط خلال هذا الكتاب إلى أن الخطوط الفاصلة بين الدولة، والاقتصاد، والمشروعات الكبرى قد أصبحت متداخلة بصورة متزايدة. إن المعرفة بهذه الحقيقة تعني أنك لا بد ألا تفاجأ عندما تعلم أن نظام ECHELON أيضًا يقوم بجمع المعلومات التجارية التي ربما تقدم ميزة للمشروعات الخاصة. وفي الواقع ـ في «المملكة المتحدة كما يذكر «ليون»: «إن (المقر الرئيسي للاتصالات العامة General Communications Headquarters GCHQ) ملزم بإيقاف مرور الاتصالات التجارية الأجنبية «في مصلحة الازدهار الاقتصادي للمملكة المتحدة» (2002: 96). وقد أصبح نظام ECHELON مرتبطًا أيضًا بالمصالح التجارية للشركات الأمريكية. وفي عام 1994 تغلب أصحاب شركات الخطوط الجوية «بوينج» Boeing و«ماك دونيل – دوجلاس» McDonnell – Douglas على صناعة «أيرباص» Airbus في عطاء خاص بطلبية كبيرة من «المملكة العربية السعودية». وقد زعمت الحكومة الفرنسية أن نظام ECHELON قام بتسريب معلومات فيما يتعلق بعطاء «أيرباص» مما أتاح لشركات «الولايات المتحدة» أن تحصل على ميزة بشكل غير عادل. وقد حث هذا الزعم ومزاعم أخرى «الاتحاد الأوروبي» على التحقيق، بإلحاح فرنسي، في مدى «التجسس الأنجلو ساكسوني». ولن يكشف أبدًا عن المدى الفعلي للجاسوسية الصناعية بسبب المبرر المقنع بالـ «الأمن القومي» الذي يضع بشكل معتاد نطاقًا حول مثل تلك الأمور من المراقبة الديمقراطية العامة.

وعند مستوى أقل إثارة إلى حد ما، فإن «قوافل البيانات» الشخصية الصغيرة الخاصة بنا ـ تتبُع حياتنا العادية ـ تعد أيضًا خارج الفضاء الإلكتروني. ويمكن أيضًا التعرف على هذا وتحليله ليس فقط عن طريق جواسيس الحكومة (لا بد أنهم يتمنون ذلك)، لكن أيضًا عن طريق أصحاب المصالح التجارية التي ترغب في الكشف (أو التنبؤ) بشيء أهم كثيرًا بالنسبة لهم من آرائنا السياسية، أو نزعاتنا الإرهابية ـ عاداتنا الإنفاقية والاستهلاكية. ويطلق «ليون» على ذلك «مراقبة المستهلك» ويعد ذلك انعكاسًا لتغير كبير في كيفية عمل مبدأ رأسمالية المستهلك في «الاقتصاد الجديد». ويذكر «ليون»، أنه بدلًا من الإنتاج الضخم من أجل الاستهلاك

الضخم ـ جوهر أنظمة إنتاج السوق الضخم ـ «إن ما كان يعد وقت ما مسألة إنتاج ضخم وتجارة ضخمة يتحول الآن إلى الفردية بشكل متزايد». ويتابع قوله بأن الاتجاه «يسير نحو التسويق من فرد إلى فرد ونحو التقنيات المضفى عليها الطابع الشخصي مثل «نوادي» الولاء لتقديم الخدمات للعملاء، وبطاقات الائتمان ذات العلامة التجارية، وإرسال البريد بالطريقة المحدودة، والإعلان المستهدف حول الفواتير التي تصاغ إلى أنماط شراء لكل مستهلك حسب رغبته» (2002: 43).

وسوف يعتاد الكثير منا تلك الأنواع من التقنيات. علاوة على ذلك، فإن مجتمع الشبكات يتشكل كل يوم بشكل واعٍ ليضمن أننا أصبحنا بالفعل معتادين على، بل ونشعر بالضجر، من «مراقبة المستهلك». وعلى سبيل المثال، كيف يظهر موقع Amazon.com كأنه يعرف من أنا، حيث يخاطبونني بشكل شخصي حينما أزور موقعهم الإلكتروني؟ كيف يمكنه «اقتراح» عناوين للكتب التي قد ألقي عليها نظرة بنفسي كما لو أنني كنت في مكتبة بالفعل؟ يتمثل أحد الأسباب في «ملفات تتبع المسار». ويمثل ملف تتبع المسار سطرًا من النص يوضع في القرص الصلب للحاسب الآلي الخاص بك، مشيرًا إلى أنك قمت بزيارة موقع إلكتروني معين. ويمكن الدخول إلى هذا عن طريق مشغلات الموقع الإلكتروني من أجل بناء شكل عام لعاداتك في تصفح الإنترنت، واهتماماتك العامة، ونوعية الأشياء التي قد تنفق عليها بعض المال. ويمكن استخدام هذه البيانات من خلال كيانات تجارية كوسيلة لتوجيهك نحو «مراقبة المستهلك» التي تؤدي إلى «التسويق المضفى عليه الطابع الشخصي». وترفع بصرك بعقل غائب نحو السعر، مثلًا، زوج من إطارات معينة للدراجات في موقع إلكتروني معين، وبعد ذلك تتلقى في الحال بريدًا عشوائيًا، أو يقفز لك إعلان ليقترح «صفقات كبرى» حول إطارات الدراجات، أو عن أي شيء يخص الدراجات.

تمثل ملفات تتبع المسار الآن معيارًا تجاريًا خاصًا بالإنترنت. ونحن لا ندرك معظم الوقت أنها تعمل، حتى يعلن الموقع الإلكتروني أن برنامج تصفح الإنترنت للحاسب الشخصي الخاص بك «غير قادر على استخدام ملف تتبع المسار» وبالتالي يمنعك من الدخول لو لم «تقم بتمكين» برنامج تصفح الإنترنت. وبمجرد أن تصلك تلك الرسالة فإنك تقوم بتصفح الإنترنت بلا مبالاة تاركًا آثارًا رقمية بالغة الصغر عبر المكان ويتم تجاهلها تمامًا. كم عدد رسائل البريد

الإلكتروني العشوائية التي تتلقاها وأصبحت موجهة إليك بشكل شخصي، وكم عدد قذائف البريد الإلكتروني ذات الهدف المحدد، وكم عدد تلك قواعد البيانات التي لديها معلومات عنك فعليًّا؟.

ومن جانب حقنا في الخصوصية في «الاقتصاد الجديد» ومجتمع الشبكات، فنحن في حاجة إلى أن نطرح على أنفسنا بعض الأسئلة الجادة. هل توافر تكنولوچيات المعلومات والاتصال لكشف حياتنا الخاصة أمام مراقبة كل من الدولة وأصحاب المصالح التجارية يمثل ثمنًا مقابل العضوية في مجتمع الشبكات؟ هل خضوعنا الفردي والجماعي تحت مراقبة الجامع الرقمي يمثل التكلفة التي يجب علينا تحملها للحفاظ على «القانون والنظام»؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف تبدو تلك الحياة عند البدء في التعرض للمزيد من عدم التأكد، والمزيد من عدم سيطرة القانون، والمزيد من انعدام النظام؟

ولكي يتم تناول هذه القضايا بشكل محكم أعتقد أنه من الضروري أن نذكِّر أنفسنا بالمنطق الذي يعطي الحياة لمجتمع الشبكات ويشكله بطرق واقعية: تلك التي تمثلها كل من الرأسمالية الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات اللتين أصبحتا مرتبطتين به. وكما رأينا، التداخل في الحدود الفاصلة بين ما هو تجاري وما لا يعني، بشكل عام، إن الصبغة التجارية قد احتلت المزيد والمزيد مما كان يوجد سابقًا خارج مجالات السوق. وأصبح تحرير التجارة هو أساس كل هذا. إن ترك جزء كبير من الحياة إلى تقلبات السوق ـ كما يرى «بيك» (1998)، و«سينيت» (1999)، و«پوتنام» (2000) من بين آخرين ـ أدى إلى ازدياد الخطر وعدم التأكد. ورغم ذلك، فإنه لو لم تكن تلك السلسلة من الخسائر ترتبط بتأثيرات الليبرالية الجديدة ومذهب التسويقية، فإن السياسيين وهؤلاء الذين يراهنون على «الاقتصاد الجديد» يمكنهم أن يركزوا بدلًا من ذلك على تفسيرات «القانون والنظام» ويطالبوا بالمزيد من المراقبة في الشوارع وفي سلوكياتنا المتعلقة بمجتمع الشبكات، أي المزيد من الاستخدام لـ «مراقبة المستهلك» للعمل على زيادة المبيعات وجعلنا أكثر وعيًا لأشكال الغش، والتلاعب، والتملق التي يمارسها من لا ضمير لهم. ومثل هذه الغفلة عن نقد عالم الشبكات سوف تؤدي ببساطة إلى المزيد من اعتمادية الاقتصاد، والثقافة، والمجتمع على تكنولوچيات المعلومات والاتصال وقوى السوق. وذلك سوف يطمر الحقوق والواجبات الديمقراطية الخاضعة لضغط ونفوذ المزيد من المعلومات،

والمزيد من الهيمنة الميكانيكية والإلكترونية، والمزيد من الخطر وعدم التأكد، والخطى المتسارعة للحياة بشكل دائم.

قراءات أخرى

Lyon, D. (2002) *The Surveillance Society*. Buckingham: Open University Press.
Rifkin, J. (2000) *The Age of Access*. London: Penguin.
Servon, L. (2002) *Bridging the Digital Divide*. Oxford: Blackwell.
Shenk, D. (1997) *Data Smog*. London: Abacus.
Slevin, J. (2001) *The Internet and Society*. Malden, MA: Blackwell Press.

الفصل الرابع الحياة دوت كوم

> لقد توقف مجالنا الخاص عن أن يكون المسرح الذي تنتهي عنده سلسلة أحداث المسرحية الخاصة بموضوع الخلاف مع أهدافه ومع صورته: لم نعد موجودين ككاتبي مسرحيات أو ممثلين لكن أصبحنا موجودين كأطراف في شبكات متعددة.
>
> (بودريلارد 1988: 16)

«جاء المستقبل، وهو غير موزع بالتساوي التام»

(ويليام جيبسون William Gibson)

ما أود فعله خلال معظم هذا الفصل هو أخذ القارئ عبر سلسلة من التجارب الفكرية. وسوف يشمل هذا سلسلة لطيفة (ومفيدة في رأيي) من المهارسات العقلية، باستخدام قوة الخيال لإضفاء عنصر الوضوح على المناقشة التي دارت في الفصول السابقة والتي قد تكون قد أصابها بعض التشوش من قِبل مزيج من النظريات والتجارب.

ما الذي أقصده من هذا ـ باستخدام الخيال لتدعيم وفهم الحقيقة؟ حسنًا، بالتركيز على الفرع الأدبي من الخيال العلمي، فقد نوقش بشكل مطول أن الخيال العلمي يمثل «ما يقرب الواقع» وليس المستقبل، لكن ذلك يمثل سلسلة من الاستعارات لوضعنا الحالي. وبشكل عام، ينشأ كل هذا ويتجسد ـ بوعي وبدون وعي ـ عند قلقنا بشأن التغير التكنولوجي وخوفنا مما قد يحمله لنا المستقبل. ومع الأخذ في الاعتبار فيلم «المدينة الكبرى» Metropolis لعام 1923، الذي صدر بعد خمس سنوات من انتهاء أكثر الحروب تدميرًا وتزودًا بالآلات في التاريخ، مع وصفه

الكئيب والمرير بشأن المجتمع الأوتوماتيكي الذي تطبع بالطابع الصناعي القاسي. وبعد ذلك بقليل كان التعمق في الكتب والأفلام التي صدرت في الخمسينيات من القرن العشرين عندما كانت «الحرب الباردة» في أوجها وعندما كانت الحقيقة المرعبة بشأن الحرب النووية تؤكد (إذا لم تكن مبهمة تمامًا) بوجود تهديد. كان الخيال العلمي أحد الطرق التي جعلت القضية النووية الآن أكثر وضوحًا. وأصبحت أفلام مثل **«يوم توقف الأرض بلا حراك»** The Day the Earth Stood Still (1951) رسالة مناهضة للحرب الذرية. وهي ليست رسالة دقيقة للغاية بأن البشر يمكنهم ألا يثقوا في تكنولوچيات الدمار الرهيبة التي قاموا بتطويرها. وفي فيلم **«يوم توقف الأرض بلا حراك»**، يصل رسول السلام من عالم آخر في طبق طائر عليه حارس آلي ذو تسع أقدام. وتتمثل مهمته في جعل أبناء الأرض يدركون أنهم يقفون عند نقطة تدمير الذات. ويكون رد اللواءات والسياسيين الغاضبين في «الولايات المتحدة» على هذه النصيحة الصادقة بالدبابات، والمدافع، والطائرات. وفي النهاية يقتلون رسول السلام - يغضب حارسه الذي يعيده إلى الحياة، بعد القيام بالانتقام الشامل والبارع، وبالتالي يمكنه أن يخبر البشر أنهم إذا لم يتعلموا (الشيوعيون والرأسماليون؟) التعايش فإن الدمار المتبادل سوف يكون قدرهم.

وبصورة مشابهة تمثل سلسلة أفلام «أرنولد شوارزنجر» Arnold Schwarzenegger المدمر Terminator التي بدأت في الثمانينيات من القرن العشرين رؤى مريرة للمستقبل. وقد تضمنت هذه الرؤى «الإنسان ميكانيكي أوكهربائي الوظائف» cyborg المستقبلي، ذلك الإنسان الآلي المغلف باللحم، والذي يمثل الامتزاج النهائي للبشر مع الماكينات والحواسب الآلية. وتعد استعارة الإنسان الميكانيكي والكهربائي من الاستعارات المهمة التي أصبحت تستخدم من قِبل المنظِرة ومؤيدة حقوق المرأة وعالمة الاجتماع «دونا هاراواي» Donna Haraway من أجل المساعدة على فهم حاضرنا التكنولوچي، وسوف ينتشر استخدامها سريعًا.

وفي الأدب، قام الفرع الأدبي للخيال العلمي المتعلق بالشخصية الإلكترونية وكُتّابُه مثل «ويليام جيبسون» بابتكار لغات جديدة وأفكار تصورية، والتي، تسمح لنا بتوضيح وفحص الحقائق الحالية التي نعيشها. وكما يرى «پول إيه. تايلور» Paul A. Taylor، إن التعبيرات الجديدة التي تشملها الروايات الواقعية لـ«جيبسون»، مثل **الرومانسي الجديد** Neuromancer (1984)، أو **انهيار الثلج** Snowcrash (1992) للكاتب «نيل ستيفينسون» Neal Stephenson تقدم ما يطلق

عليه «تايلور» «السمات الغالبة على روح العصر» التي «تعرض فهمًا عميقًا وجديدًا للتجربة الثقافية في المجتمع المتحول بصورة متزايدة، ليس فقط من خلال امتداد التغير التكنولوچي في عصر معلوماتي جديد، لكن أيضًا من خلال خطاه غير المسبوقة» (2001: 74). فنجد مثلًا «جيبسون» قد صاغ مصطلح «الفضاء الإلكتروني» ومصطلح الخيال العلمي الذي يعد الآن مستخدمًا ومفهومًا (عند مستوى معين من التعقيد) من قِبل أي شخص بدءًا من الطفل الذي يتعامل مع شركة «نينتيندو» Nintendo للألعاب ثلاثية الأبعاد والذي يلعب بالنسخة المطورة من لعبة «ميترويد برايم» Metroid Prime حتى الموظف الرزين في البيت الأبيض الذي يقوم بعمل مسودة «الإستراتيچية القومية لتأمين الفضاء المعلوماتي» وهو الموضوع الذي ناقشناه في الفصل السابق. وقد كان «جيبسون» أيضًا، بشكل عرضي، هو الذي قدم لنا أسلوب التحدي في التفكير حول الفضاء المعلوماتي المتأصل في العالم الواقعي عندما كتب أن «الفضاء المعلوماتي مثل البنك الذي تقوم فيه بحفظ أموالك».

والقول بأننا نعيش داخل مجتمع الشبكات وأنه يوجد هنا، والآن يوجد هناك، فإن ذلك يمثل شيئًا واحدًا، يمكننا أيضًا، إذا حاولنا، أن نفكر مليًّا في تجربتنا الخاصة بشأن هذا. ورغم ذلك، فإنه من أجل فهم التجربة نحتاج إلى متابعتها بعض الشيء، ومن خلال فهم أكثر عمقًا ربما يستخرج من التجربة المزيد من المعاني. ولن تنغمس الصفحات القليلة التالية في مجالات علم دراسة المستقبل (لا سمح الله) من أجل وضع مجتمع الشبكات في قالب خيال علمي. وما كنت أحاول القيام به هو التركيز على روح العصر عبر توزيع جرعة مركزة من الحاضر التكنولوچي، في شكل مخططين متَصورَين. وبشكل أساسي، يمثل هذا أداة أدبية تلقي الضوء على مجتمع الشبكات ومكاننا داخله. وكل هذا لن يقدم لنا لمحة عن المستقبل - بل يقدم لنا فهمًا عميقًا عن الحاضر. وكما ذكر «بيتر فيتينج» Peter Fitting بشأن عمل «جيبسون»، إن كتابته «ليست كثيرة بالقدر الكافي «حول» ما يكمن في مخزوننا كشكل لتجربتنا حول الحاضر» (نقل عن «توفتس» Tofts 1997: 22).

هناك حرية مؤكدة في التجارب الفكرية: تألفت الحرية في هذه الحالة من خلال مزج تلك التجارب معًا، في شكل اثنين من المخططات، وتطبيقات تكنولوچيا المعلومات والاتصال، والأدوات التي تغير حياتنا وتخلق وجودًا تكنولوچيًّا قويًّا - حقيقة تتعلق بالشبكات والتبادل

المفرط في الاتصالات. ويعمل كل هذا لدينا في الحياة اليومية بشكل سريع وشامل للغاية حيث لا تكون هناك فرصة تقريبًا لملاحظة أهميته. لذلك فإن ما نقوم به أيضًا في هذه التجارب الفكرية هو الانخراط في شكل من النقد، وعدم الاعتياد إلى حد ما على الذي يقدم لنا الحيز الذي من خلاله «نخطو للخلف» ونركز اهتمامنا على الحاضر. ويعد ذلك شيئًا جوهريًا ليس فقط إذا لم نكن مدركين للحاضر بل أيضًا إذا لم نكن في موقع يضمن لنا دورًا في تشكيل كيفية الكشف عن المستقبل. وكما يرى مُنظِر الثقافة الإلكترونية «دارين توفتس» Darren Tofts في إطار فهم الفضاء الإلكتروني، «يحتاج النقد إلى أن يكون واقعيًا في اتصاله بالحاضر قبل أن يحاول فهم المسارات الممكنة للمستقبل غير المحدد» (1997: 23).

علاوة على ذلك، فإن استيعابنا لتجربتنا حول مجتمع الشبكات سوف يكون أداة تصورية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل تطوير المهام الموجهة سياسيًا بشكل أكبر للتدعيم الذاتي والمجتمعي في «المستقبل غير المحدد» لمجتمع الشبكات: القضايا التي سوف تناقش في الفصل التالي.

يوم في الحياة السلكية

التصور المستقبلي الأول

يوم الجمعة، الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة صباحًا. يستيقظ «داني» Danny على انفجار مصم للآذان لبرنامج «نرفانا» «تعالى كما أنت» المنبعث من محطة رديئة في الراديو الخاص به والمتصل بالإنترنت. يتصل الراديو بـ «مركز هيوليت باكارد ميديا» Hewlett Packard Media Centre الخاص به في حجرة المعيشة من خلال نظام اتصال لاسلكي «بلوتوث». إن عملية الاتصال بـ «مركز الإعلام»، بالطبع، «تعمل دائمًا»، لكن ساعة توقيت الراديو أوقفت الموسيقى عندما كان بالخارج الليلة الماضية ثم قامت بتشغيلها مرة أخرى - بأعلى درجة صوت - عندما استغرق في نوم عميق. لا بد أن يكون في العمل بشركة التسويق في أقل من ساعة بأي حال - الوظيفة التي يشغلها تستغرق اليوم كله (تمامًا) إلى جانب الدراسة الخاصة بحصوله على شهادة جامعية في الأعمال تستغرق أيضًا اليوم كله. ويبدو أن جميع الناس يقومون بذلك في هذه الأيام. ورغم هذا، يعد ذلك شيئًا غير عادي. (سأم «داني من «نرفانا» منذ سنوات

قليلة وألغى كل ما يحويه جهاز MP3 الخاص به من القرص الصلب وتخلص من كل الأقراص المدمجة التالفة). و«يغلق» المفتاح بقوة بالضغط بسبابته وينهض من فراشه.

وهو سائر شبه نائم نحو حجرة المعيشة وفي حركة كرد فعل جلس في «مركز الإعلام» لمتابعة بريده الإلكتروني. أربع وعشرون رسالة جديدة. ويكشف مسح سريع أن أربع رسائل فقط ليست عشوائية ورسالتين فقط من هذه الرسائل يحتاج إلى الرد عليها. واحدة من «آنا» ـ مدرسته ـ تذكره بأن موعد تقديم مقال نهاية السنة يوم الاثنين الساعة الخامسة مساءً. والرسالة الثانية من «ستيوارت» رئيسه في شركة التسويق، يسأله عما إذا كان يمكنه العمل يوم الأحد بسبب مرض أحد الموظفين. ولا يوجد هناك تقريبًا أي وقت لإجراء دراسة في الفترة الأخيرة. لقد حاول قراءة بعض المقالات التي تم تحميلها وتصفح الإنترنت بعض الوقت، لكن كان لا يزال موضوع المقال ـ «مستقبل التجارة الإلكترونية» ـ غير واضح. وقد انغمست المواقع الإلكترونية الخاصة بمجال الأعمال في ذلك بشكل متواصل، وكان يتحدث الناس عن هذا الموضوع في أماكن عملهم ـ لكن ماذا بعد؟ من يقوم بذلك بشكل فعلي وماذا يهم في ذلك؟ يقوم «داني» بتشغيل جهاز PDA ويضع ملاحظة محاولًا أن يخصص وقتًا في يوم السبت ليصف ذلك بالتفصيل، ويضع أيضًا ملاحظة فكرية بأننا في طريقنا إلى الاحتياج إلى وظيفة نشطة تنجز العمل في الموعد المحدد. ويقول: إنه لا يوجد هناك وقت في حياتي للقيام بأي شيء.

يوم الأحد خارج نطاق إتمام مقاله. ويمثل «طلب» رئيس العمل أكثر من أمر. ويميل «ستيوارت» إلى إظهار رفض ساعات العمل الإضافية كشيء شخصي إلى حد ما، وكدليل على عدم وجود «عمل الفريق»، وربما لا يتم تجديد عقد «داني» إذا قال لا. وبالتالي كيف يقوم بدفع رسوم الجامعة؟ وبسبب ذلك الأمر، كيف يتحمل مصروفات «مركز الإعلام» والهاتف المحمول، ومن أجل كل ذلك فهو في حاجة إلى الحصول (ومحاولة الحفاظ) على وظيفة أخرى؟ يقوم «داني» بربط جهاز PDA الخاص به بالإنترنت في «مركز الإعلام» ويقوم بتحميل بعض المقالات الأخرى حول موضوع الأعمال الإلكترونية التي حصل عليها من المواقع الإلكترونية Business Week وFortune. ربما لا بد أن يقرأها سريعًا في القطار

وهو في طريقه إلى العمل أثناء نصف الساعة المخصصة لتناول وجبة الغداء. وقد استوعبها بصورة أسرع ورأى أنها لا تعني شيئًا تقريبًا، أي إنه تم تحرير الموضوعات دون تروٍ من قِبل صحفيين في مجال الأعمال الذين ربما تكون لهم أسهم في مشروعات الأعمال الإلكترونية. لكن بعد ذلك، يستغرق في التفكير - على الأقل في الكلمات التي تصدر من شخص غيره وبالتالي سوف يعتبرها من ضمن البحث.

يرتدي ملابسه ثم يتناول «الميوزلي»[1] دون حتى ضرورة أن يغادر مقعده في «مركز الإعلام». وأثناء ارتدائه للملابس وتناوله الطعام يضع في مجرى جهاز الفيديو محاضرة حول «سلوك المستهلك» من محاضر متفرغ «غير مرئي» أبله لم يقابله «داني» مطلقًا. ويطلق الموقع الإلكتروني للجامعة على تلك الطريقة «التعليم عن بعد» الذي صُمم من أجل أن «يتلائم مع أسلوب حياتك المليء بالمشاغل» ويرى «داني» أنه «بعيد» فقط لأن وظيفته لا تمكِنه من حضور كل المحاضرات، بحيث يشك في أنه «يتعلم» بالفعل. مرة أخرى، لا يوجد وقت. ولا يوجد هدف: فهو لا يمكنه سماع ذلك الهراء الذي يقال عندما يبعد فمه عن مكبر الصوت. والعنصر المضحك في هذا: أنه يرى أنهم لا بد من أن يُحضِروا ممثلين لأداء ذلك. يقوم بالضغط على أمر «المفضلات» في متصفح الإنترنت، ويحرك محتويات الشاشة إلى أسفل ثم يقوم بالنقر مرتين على موقع إلكتروني onBusiness الذي أوصى به أحد الأشخاص. وبدلًا من تصفحه يركز نصف تركيز على موضوع بعنوان «تقارب المسافة مع المدير التنفيذي».

ينزع «داني» هاتفه المحمول من شاحنه بعد أن يعيد له الحياة. توجد ست رسائل بريد صوتي. يحرك محتويات الشاشة إلى أسفل ويرى أن هناك ثلاث رسائل من أمه. وأثناء استماعه إلى الرسائل يدون ملاحظات على جهاز PDA الخاص به لإرسال بريد إلكتروني إليها بأسرع ما يمكن. يعرف أنه من الأحرى أن تتكلم معه، لكن «داني» يعرف كيف أنها تسترسل في الحديث عبر الهاتف وهو مشغول للغاية الآن. ورسالتين من «ستيوارت»، حيث يزعجه بشأن يوم الأحد لا شك، كما يعتقد، ورسالة من «إنجي» «زميلته» في العمل الممتازة

(1) وجبة مكونة من الحبوب والمكسرات والفواكه المجففة تؤكل صباحًا.

والمتوقع لها النجاح والتفوق. يستمع إلى صوتها المعدني وهي تتحدث بسرعة وبحماس بشأن ليلة «إنشاء الفريق» الذي نظمته من أجل المجموعة التي بعد فريق مناوبة اليوم. وسوف يكون ذلك «شأنًا غير رسمي» في مقهى إنترنت «وورلد إن كاب» World in a Cup. وتقول بصوت رخيم، ابذل ما في وسعك لكي تأتي. قام «داني» بتدوين ملاحظة فكرية أخرى محاولًا ترك ذلك. يتذكر أنه عادة في هذا النوع من الموضوعات ينتهي المطاف بأن يلعب الرجال على الحواسب الآلية وتشرب النساء اللاتيه ويبتكرن طرقًا جديدة في جعل المكتب مكانًا أكثر فظاعة للعمل داخله. وقد رتب بالفعل للعب «بلاي ستيشان» على الإنترنت في منزل أخيه ـ أو كان من الممكن أن يكون تلك الليلة في المنزل لإتمام مقاله؟ لا يمكنه التذكر. وقد تمت كتابة ذلك في مكان ما على جهاز PDA.

و«تبددت» رحلة القطار المتجه إلى العمل والتي تستغرق نصف ساعة في الدردشة معًا بعض الأصدقاء وإرسال بريد إلكتروني إلى أمه على جهاز PDA. ومجددًا، كان لا بد لـ «داني» أن يتصفح الإنترنت (تصفحًا عشوائيًا أو تصفحًا متعلقًا بأحد أعمال الجامعة) بالحاسب الآلي بمكان العمل، وذلك من بين المكالمات الفاترة التي لا بد أن يجريها لشركة التسويق. ورغم ذلك، فقد أسسوا برنامجًا إلكترونيًا جديدًا يقوم بما يطلقون عليه «الاتصال الهاتفي التنبؤي». يقوم الحاسب الآلي بجرف مئات الآلاف من أرقام الهاتف، ويتصل بكل رقم حتى يرد أحد الأشخاص. وبمجرد أن يُجرى الاتصال تسير المكالمة في القسم الثاني إلى أقرب عامل هاتف متاح الذي لا بد أن يتظاهر بأنه/ أنها أجرى المكالمة وهو/ هي يعرف إلى من يتحدث/ تتحدث إليه: صباح/ مساء الخير، اسمي «دانييل» ... هذه «الطريقة الفعالة» البسيطة لا بد وأنها تعني أنه لم يكن هناك وقت فراغ ويقوم «داني» الآن بالتفاوض في مبيعات تبلغ حوالي 95 في المائة من الصفقة.

وقبل انتهاء الوقت مباشرة يوخزه «ستيوارت» في كتفه بقسوة: هل يمكنه أن يأتي إلى العمل يوم السبت أيضًا ويحصل على يوم عطلة أثناء الأسبوع، الجمعة، مثلًا؟ نعم، بالتأكيد، «ستيوارت»، ويبتسم ابتسامة عريضة. «ماذا عن مقالي»، كان يفكر وهو يبتسم؟ في الطريق إلى «وورلد إن كاب» من أجل جلسة إنشاء الفريق التي لا يمكنه الهروب منها في النهاية (سوف تكون «إنچي» رئيسته يومًا ما) يتصل بزميلته في الدراسة «دونا» ويطلب

منها النصيحة فيما يتعلق بمقال يوم الاثنين. تقول «دونا» إنها تشعر بفقدان الأمل وتفكر في تقديم مقال منتحل من موقع Quickpapers.com أو ما شابه ذلك.

يعتقد أنه لا مفر. ولكن في «وورلد إن كاب» ألقى نظرة على موقع www.Quickpapers.com. يقوم الموقع بالفحص السريع والسهل ويمكن بسهولة أن يقوم «داني» بإخفاء مساراته بإضافة القليل من محتويات مختلطة مما تم تحميله في جهاز PDA الخاص به. من يمكنه أن يعرف؟ يتكلف المقال 60.00 دولار أمريكي فقط. يقول لنفسه بأنه يحتاج إلى التفكير في ذلك. لا يريد «داني» أن يتخيل نفسه كمحتال، لكن علامات «الفشل» تقترب سريعًا كبديل. وبدلًا من ذلك يترك الحاسب الشخصي ويذهب ليلهو مع «إنجي» في منزلها الصغير ويقوم ببعض الأعمال المتعلقة بإنشاء الفريق. وكما هو متوقع يتضمن هذا الوقت شكواها التي استغرقت أربع ساعات حول كيف أن أهداف الأداء لم تتحقق، وأنه مطلوب طرق أكثر فاعلية، وموقف أكثر حماسًا من العاملين، إلخ...

وأخيرًا، يصل إلى المنزل والساعة تتعدى العاشرة. ويتذكر أنه قرأ في مكان ما بأحد المواقع أن عام الإنترنت مثل عام المنافسة الشرسة، تزداد سرعته بمعدل سبع مرات. فيبدو أنه يتشابه معه، وفقًا لما يرى. وهذ هو عامه الأخير في الجامعة ومضى الأمر بأكمله بسرعة، ويفكر بشكل عميق ويجد أنه لم يتعلم شيئًا تقريبًا أكثر من كيفية القيام بالمهام بشكل رديء لأنه مشغول للغاية دائمًا في العمل من أجل دفع الرسوم، والإيجار، والاستفادة من «إيجابيات» تكنولوجيات المعلومات والاتصال التي لم يكن يمكنه الاستغناء عنها ـ في حين أن قيامه بدورة دراسية لا يهتم بها بالفعل.

وفي «مركز الإعلام» ينظر في موقع Quickpapers.com مرة أخرى سريعًا ويجد صفحة بعنوان «التجارة الإلكترونية والعولمة» والذي يعبر «من الوصف الموجز ـ ما سوف يتم توضيحه. وهو دائمًا يستطيع أن يقوم بجزء من العمل فيما يتعلق بذلك إذا كان لديه بعضًا من وقت الفراغ خلال نهاية الأسبوع. وتكفي نصف ساعة لعمل ذلك ثم لا بد أن يحتل عمله الخاص جزءًا من الوقت على الأقل. وبتحريك شاشة قائمة الأوراق العامة إلى أسفل، يبتسم «داني» لنفسه عندما يصادف شخصًا يقول «دور الأخلاق في اقتصاد رأسمالي» ـ بمبلغ

55.00 دولار أمريكي. يبدو أن ذلك يجعله يحسم أمره. يذهب إلى الثلاجة ليتناول البيرة ثم إلى حجرة النوم ليأخذ محفظته. ثلاث دقائق وكان هناك مبلغ مستقطع من بطاقة الائتمان، وتصدر طابعة الليزر بصمت تقديره في الشهادة العلمية «مقبول» في شكل مقال «التجارة الإلكترونية» المكون من سبع صفحات، إلى جانب ستة مراجع تشمل المؤلفات داخلها. وهو يرى أنه يستطيع إضافة المزيد إلى ذلك من «بيزنس ويك أند فورشن» Business Week and Fortune. يغلق «داني» الموقع بسرعة مع شعور بوخز الضمير. وبشكل غير منطقي، يضغط على مفتاح «التاريخ» في متصفح الإنترنت الخاص به ويلغي كل الصفحات التي قام بزيارتها في موقع Quickpapers.com. وتناول بعض البيرة لتساعده على الابتعاد عن التفكير في الخداع ويبدأ في تصفح الإنترنت. وبعد ضغطات قليلة وبعد أن يكتشف «داني» قدرات نفسه، يدار حديثًا في حجرة دردشة رثة حول كيف أن «نرفانا» ملائمة ومفيدة بالنسبة إلى Dave98؛ وexpectnosympathy، وpUnKtReAtS، وICEBLUE، ويمكث هناك يشرب ويدردش حتى منتصف الليل.

التصور المستقبلي الثاني

الساعة الرابعة وعشر دقائق صباحًا. تستيقظ «أليسون» بسرعة وفي طريقها للاستحمام تفحص البريد الإلكتروني. سبع وأربعون رسالة وجميعها موجه إليها شخصيًّا. ويضمن لها برنامج تصفية الرسائل العشوائية ألا تضيع وقتًا تستغرقه في صفحات بشأن عروض «غير حقيقية» عن كيفية تحقيق آلاف الدولارات من خلال العمل من المنزل، أو دعوات لموقع إباحي. يبدو أنه يوم مهم. في الساعة الخامسة صباحًا يكون اتصال الفيديو كونفرانس بالمقر الرئيسي العالمي لشركتها ولسوء حظ «أليسون» فإن هذا هو الوقت الأفضل لتقوم بفحص البريد الإلكتروني، مع الأخذ في الاعتبار كل الاختلافات الزمنية المستغرقة. وبإلقاء نظرة سريعة على أسماء راسلي البريد الإلكتروني تجدهم يخبرونها بأنه قد حان تقريبًا ميعاد عقد الاجتماع. توجد «أليسون» في الدرجة السفلى أو قريبًا منها في الإعلان، راتب جيد تمامًا، لكن الكل يعمل ويجتهد للحفاظ على مميزات الدرجات العليا. ويوجد لدى شركتها عقد إطلاق

الإعلان العالمي عن وحدة تحكم جديدة في ألعاب الڤيديو وقيمته تعادل الكثير من المال وبالتالي فإنه يأتي مع الكثير من الضغط. وتتمثل وظيفتها في الڤيديوكونفرانس في الاستماع وعرض مقدمة «پاور پوينت» في ساعة متأخرة من النهار لإقناع الأكبر سنًا بها أيضًا خلال تلك الساعة.

قبل الاستحمام، تقرر «أليسون» أن تفحص سريعًا محفظة الأوراق المالية الخاصة بها. لم تفتح الأسواق المحلية بعد وقد قامت بالفعل بالفحص الليلة الماضية قبل الذهاب إلى الفراش. ورغم ذلك، استحوذ ذلك على فكر «أليسون» منذ حدوث بعض الخسائر الكبيرة (لها) المتعلقة بـ «الدمار التقني» عام 2001. وقد عرف محامو الإنترنت المخادعون أن الانحرافات التي انغمسوا فيها في مجال الأوراق المالية ليست ذات فائدة. بعد ذلك قررت أن تقوم بالتحليل والتجارة اليومية للأسهم المالية الخاصة بها وتقضي الآن الكثير من الساعات أسبوعيًا في القراءة الكثيرة والاستثمار في صناعتها المفضلة، التكنولوچيا الحيوية. ومؤخرًا أصبحت تعمل بشكل جيد، بالرغم من استيائها من شعورها بالقلق وهي في سن الرابعة والعشرين، بشأن الدخل عند تقاعدها.

عشرون دقيقة و«أليسون» في سيارتها، تقوم بفحص الرسائل على هاتفها المحمول. وبينما هي تقترب من المكتب، تلاحظ الرسالة التالية في القائمة من «سام»، صديقها: بطاقة إلكترونية رديئة، يتمنى لها حظًّا سعيدًا في المقدمة التي سوف تعرضها. تلقي «أليسون» نظرة سريعة على البطاقة الموجودة على وحدة عرض الصمام الإلكتروني المضيء الخاص بها وتلغيها جزئيًّا من خلال صوته الضعيف. وبينما تقوم بإلقائها في سلة المهملات، تأتي مكالمة. إنها من رئيسها، «آلان». تأجل الڤيديو كونفرانس إلى اليوم التالي في نفس الميعاد ـ خطأ في القمر الصناعي أو ما شابه ذلك. لا يوجد سبب للذهاب إلى المنزل الآن، كما تعتقد، فتذهب إلى المكتب في الساعة 4:55.

تم قضاء الساعتين التاليتين في العمل بشأن أسهمها، وقراءة تقارير أمس الإجبارية حول الأعمال والتحليلات المتنوعة لـ «وول ستريت» Wall Street حول مؤسسات التكنولوچيا الحيوية التي تستثمر فيها معظم أموالها. ورغم ذلك، وبينما ينقضي النهار، يتم البدء في

أداء الوظيفة. وصلت ثلاث وعشرون رسالة أخرى، ومن ثم لا بد أن يتم الاطلاع والرد على جميعها، لا بد أن يتم إرسال كل من البريد الإلكتروني والمكالمات الهاتفية الاعتذارية للمندوبين المحليين للعملاء المستهدفين، الذين لا بد أن يكونوا أيضًا مطلعين على نتائج الفيديوكونفرانس، ونظرة عامة على الحسابات الأربعة الرئيسية الأخرى التي تبحث عنها كي تتعامل معها. وتعتبر المهمة الثانية سهلة، لذلك فإن الجزء المستهلك من وقت وظيفتها يتضمن، كالعادة، اصطياد الأفكار، والرسومات، والزوايا، والتعبيرات المكررة من خلال الإنترنت من أجل «الملاءمة»، ومن ثم «التعديل» ومن ثم اختيار العملاء المتفائلين الذين لا يساورهم الشك.

هذا النوع من التظاهر بالبحث والإبداع يذكرها بمقدمة باور بوينت التي سوف تعرض غدًا. كتاب دراسي من ماجستير إدارة الأعمال قامت الشركة بإدراج اسمها من أجل الاطلاع عليه. كان عنوان الكتاب **«تناول السمكة الكبيرة: كيف أن متحدي العلامات التجارية يمكنهم المنافسة أمام رائدي العلامة التجارية»** Eating the Big Fish: How Challenger Brands Can Compete Against Brand Leaders، تأليف «خبير العلامات التجارية» «آدم مورجان» Adam Morgan (1999). لديها وقت فقط لقراءة مقدمة الكتاب، لكنها تضمنت فقط «قواعده القليلة»: «الثمانية مبادئ الأساسية لمتحدي العلامات التجارية»:

1. الانفصال عن ماضيك القريب.
2. إنشاء حساب مميز.
3. تولي القيادة الفكرية للفئة التي تتبعها.
4. ابتكار رموز بشأن إعادة التقييم.
5. التضحية.
6. الإفراط في الالتزام.
7. استخدام الدعاية والإعلان كأصول ذات فعالية عالية.
8. التركيز على الأفكار، بدلًا من التركيز على المستهلك.

رائع. كان هذا نوعًا من الموضوعات الوهمية - الخيالية التي كانت في الأساس بلا معنى (أو قد تعني شيئًا ما) لكنها تخلق حديثًا نشطًا/ موضوعًا لپاور پوينت، نوع الموضوعات التي لا بد وأن تعطي المديرين (الذين لا يحلمون أبدًا بقراءتها) شعورًا دافئًا وغير واضح وتجعل نظرتها نظرة فتاة ناجحة دائمًا في مهنتها. كان لا بد لي أن أفكر في هذا من قبل، «أليسون تخبر نفسها». ولا يهم الڤيديو كونفرانس الفعلي - إن هذا الموضوع هو ما يريد المديرون (والعملاء) أن يسمعوه. تم تدوين ملاحظة فكرية عميقة لاستخدام كتب مثل هذه كثيرًا. إنها مفيدة للغاية وموفرة كثيرًا للوقت! يوجد الكتاب في مكان ما بالمنزل، لكن ذلك لا يهم: هي قادرة على تحميل المقدمة الكاملة من موقع Amazon.com مجانًا.

الساعة الآن الرابعة صباحًا. وكل ما قامت به هو إعداد القهوة. بعد كتابة 141 كلمة لـ «ملخص مدير الشركة»، تشعر «أليسون» بالسرور من نفسها وبالتالي تسمح لنفسها بقضاء وقت لتناول ساندويتش في الحديقة العامة. تأخذ جهاز PDA من نوع «بلاك بيري» Blackberry الخاص بها الذي اشتراه لها «سام» في عيد ميلادها. تقرأ بعض رسائل البريد الإلكتروني الأخرى، بشكل رتيب. يتحول اليوم إلى يوم منتج. تشمل إحدى الرسائل ردًا ايجابيًا من أحد عملائها يتعلق بما يسميه فكرة «مثيرة ومبتكرة» وقد انشغلت معه هذا الصباح كطريقة لإطلاق هاتفهم المحمول الجديد. جاء المفهوم أكثر أو أقل اكتمالًا من موقع إلكتروني في «سلوڤينيا»، لكن لن يكون هناك من هو الأكثر حكمة في الاختيار عندما يكون هناك بليون موقع إلكتروني يتم الاختيار من بينهم. تتغير القليل من الكلمات هنا وهناك. ترى أن الأمور تسير إلى الأفضل. يصدر جهاز PDA ذبذبات، حيث يطلق إشارة برسالة أخرى. إنه «سام»، يقوم بإرسال بطاقة إلكترونية أكثر تفاهة من السابقة يتمنى لها فيها «حظًا سعيدًا» مرة أخرى - يحدق الناس فيها حيث يصدر صوت رنين سخيف من جهاز «بلاك بيري» الخاص بها.

بريد إلكتروني آخر، هذه المرة من «تريش»، زميل الدراسة في ماچستير إدارة الأعمال الذي لم تقابله قط. يريد «تريش» أن يعرف ما إذا كانت «أليسون» سوف تشارك في مجموعة المناقشة على الإنترنت التي تلي محاضرة الساعة السادسة والنصف مساءً. ويعد هذا أول فصل دراسي

لهما يتقابلان فيه، وكان الموضوع حول «مهارات قيادة السلوك الإداري». وكان الشيء المربك ـ كما تعتقد ـ يتمثل في أنها إذا كان لديها اهتمام بذلك الموضوع، فسوف تقوم بالمشاركة، أو يمكنها أن تراقب المناقشة فقط وتقوم بعمل ما لعميل آخر مستعد أيضًا لإطلاق طراز جديد لهاتف محمول. وعلى أية حال، هناك زميل في صفها الدراسي يعمل في شركة منافسة. ربما يكون ذلك مفيدًا، طريقة عمل، لتقديم نفسها. «أليسون» على وشك إغلاق «بلاك بيري» الخاص بها والعودة إلى المكتب عندما أصدر اهتزازات مرة أخرى ـ هذه المرة يشار إلى البريد الإلكتروني بـ «عاجل»!!! وقد صدر وميض من النص ثم انطفأ. إنه من «لي»، كاتم أسرارها الشخصية وكان «لي» منفعلًا للغاية. عادة ما يخبرها بطرف التوصيل الثابت التالي لكنها أكدت لنفسها أن التحليل الجيد للخلفية يمثل الطريقة الوحيدة ـ وليست أطراف التوصيل. تبتسم «أليسون» ابتسامة عريضة وتغلق «بلاك بيري» ولا تفتحه بعد ذلك. إنها في حالة مزاجية جيدة للغاية تشجعها على القيام بنزهة. ويمكن أن ينتظر «لي».

وفي الساعتين قبل بدء المحاضرة ومع العمل على الإنترنت، تبحث عن «فكرة» ذلك الهاتف المحمول الآخر الذي يطرح وتفحص مقدمة «پاور پوينت» برؤية جديدة. وتقرر أيضًا القيام بمحاولة فعلية للتأثير على المديرين ببعض الرسومات الممتازة التي قد تجذب العملاء مرة أخرى، حيث تلفت انتباههم بتطبيق «المبدأ الأساسي» رقم اثنين: «إنشاء حساب مميز»، بخط «باوهاوس» Bauhaus 93 المتلألئ ... لإضفاء ذلك «النمط» الذي كان سائدًا في السبعينيات من القرن العشرين عليها. وفي تصورها، أن ذلك سوف يخلب عقولهم.

تشعر «أليسون» بالنجاح، لذلك تستمر مع هذه المهام الثنائية في الحاسب المحمول الخاص بها من خلال رابطة لاسلكية أثناء المحاضرة. وخلال المناقشة على الإنترنت، التي تتضمن «ترحيبًا» شديدًا ومطولًا لزملائنا في ماجستير إدارة الأعمال من أرجاء العالم من الرقيب «الافتراضي» الذي يبعد في الواقع لمسافة ستة أقدام، تشعر «أليسون» بالملل سريعًا ثم تدخل على النظام البرامجي «أنا أطلبك» ICQ. ويعد هذا هو الجزء التافه في شخصيتها: الدردشة مع أي شخص من أي مكان حول العالم. لا يوجد تقريبًا شيء ضار، رغم أن هناك شخصًا مزعجًا من «روسيا»، ماكاروف 666، كما يدعو نفسه. شعرت ببعض الأسف له في

اللقاءات الأولى، عندما كان دائم الحديث عن أخته المريضة وكيف أنه يجد صعوبة في سداد الفواتير الطبية. لا ترغب «أليسون» في إلغائه أبدًا، لكن كانت هناك رعشة ما في نبرة صوته وكان دائمًا يهمل رسائلها. تقرر أن تكون قاسية (حيث تشعر براحة كبيرة) وتقوم بإلغائه بينما يقوم باقي الفصل الدراسي بقياس مميزات وعيوب كل من «بليك أند موتونز ماندچمنت جريد» Blake & Mouton's Management Grid، و«بيلبينز تيم رولز» Belbin's Team Roles.

ينتهي اللقاء حوالي العاشرة وتدخل «أليسون» مطعمًا لمكرونة الپاستا في طريق المنزل لتناول الغداء. وتكافيء نفسها بكأس شمپانيا، لقد كان يومًا منتجًا. كأس واحدة فقط، بينما لا بد أن يتم الانتهاء من خدعة الڤيديو كونفرانس الساعة الخامسة صباح غد. إنها مستعدة، وسوف تنطلق لأداء ذلك بشكل سريع. عندما تصل إلى المنزل في النهاية، تكون الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة مساءً. وبعد حمام ساخن طويل، تنقر حاسبها الشخصي أثناء تجفيف شعرها وتلقي نظرة على البريد الإلكتروني. هناك 79 رسالة، ظلت تفحصها خلال ساعات قليلة. ثم تلقي نظرة على كلمة «لي» «عاجل !!!». كتب:

> **أعتقد أنك سمعت. لقد حاولت الاتصال اثنتي عشرة مرة. تلك الأسهم والسندات المتعلقة بالتكنولوچيا الحيوية التي تمتلكينها ـ تقول الشائعات في كل مكان إنهم على وشك نشر البحث حول تطور في غاية الأهمية حول علاج مرض السرطان. الأسواق تأخذ ذلك بجدية وأصبحت الأسعار فلكية!!!**
>
> **«تشيريو»!!!**

تبتسم «أليسون» وتفكر في «سام» الذي يرسل إليها رسائل مملة بعض الشيء وتعقد مقارنة بينه وبين «لي» الذي أرسل لها (لمرة واحدة فقط) عملة ذهبية إلكترونية. فهو من الرجال الذين نادرًا ما تقابل مثلهم.

وللأسف، تشعر «أليسون» بألم حاد في معدتها. فهي من نوعية الأشخاص التي تفضل بشدة الترتيب وتكره المفاجآت. هي في حاجة أولًا إلى الفحص. تقوم بتحريك محتويات الشاشة لأسفل لترى العناوين البريدية الإلكترونية حول أخبار أعمالها وتذهب إلى أكثر المواقع التي تثق فيها ـ وكان هناك. يتناول السوق الشائعات بشكل جاد، بل جاد جدًّا،

خاصة منذ أن أجرى المدير التنفيذي حديثًا مع الصحفيين أدلى فيه بتفاؤله. ترتفع أسهمها كل يوم وهي حتي لا تعلم ذلك! تتسبب الأسواق العالمية في رفع أسعار الأسهم في الحال، ويقول التقرير إنه من المتوقع غدًا أن يستمر السعر في الارتفاع الشديد عندما تفتح الأسواق محليًا الساعة التاسعة صباحًا.

لا يوجد هناك شيء مبالغ فيه فيما يتعلق بهذين المخططين الموجزين. ملايين من الناس اليوم يعيشون الحياة التي تفرض الواقع الرقمي للشخصيتين الخياليتين «داني»، و«أليسون». وفي الواقع، ربما تقرأ - وخلال وقت قصير - تلك الموضوعات التصورية على أنها قديمة. مثل وصف أسلوب حياة يبدو غالبًا رزينًا وعتيق الطراز في مساره وفي الطريقة «الباردة» نسبيًّا حيث تغلب تكنولوچيات المعلومات والاتصال على حياة أبطالنا عبر الزمان والمكان.

وتتلاشى المجالات التي «خارج» منطق معلومات التكنولوچيات ومجتمع الشبكات التي أوجدته بنسبة ثابتة إلى الرقمية العالمية التي شهدناها في الفصل السابق. وكانت مجالات ما قبل الرقمية للثقافة والإعلام تعد أيضًا مجالات يمكن من خلالها أن تتكون الهوية (الفردية والجماعية). وبالطبع، لا يمثل هذا عملية خالية من المشكلات. لكن من خلال الضغط الرقمي للزمان والمكان الذي يمثل نظام المعلومات، هناك حيزًا أقل للمناورة والتفاوض. ولقد ناقشنا بالفعل التأثيرات على الإعلام والهوية الثقافية. ورغم ذلك، فإن ذلك يسير بصورة أعمق. وقد قام عالم النفس «كينيث جيرجين» (1999) بتحليل تأثيرات تلك المعلوماتية المكثفة والشاملة على عمليات تشكيل الهوية وتكوين التصورات. ويتمثل التأثير فيما يطلق عليه «الموت الذاتي»، ويرى أنه «في الخطى السريعة للمجتمع التكنولوچي، يعد الاهتمام بالحياة الداخلية نوعًا من الرفاهية - إذا لم يكن **تضييعًا للوقت**. ونحن نرحب الآن بحالة اتخاذ الأشكال المختلفة. وفي حالة أخرى، تتراجع الذات الداخلية بشكل مؤثر». عندما تصبح «الحياة الداخلية» نوعًا من «الرفاهية»، وعندما «تتراجع» إلى الحد الذي لا ندركه بشكل واضح، تصبح الضحالة المؤكدة للشخصية شيئًا حتميًّا. وفقدنا الاتصال بـ «الحياة الداخلية» بشكل لا يرحم بسبب الضجيج المباشر والمستمر الناتج عن انشغالنا. وبشكل متزايد، تصبح المؤسسات التجارية عوامل مساعدة يتم تنظيمها وتوليدها من قِبل أوامر رابطة الليبرالية الجديدة/ تكنولوچيا المعلومات

والاتصال. وفي عالم أكثر كثافة فيما يتعلق بمجال الاتصال يقوده منطق رأس المال الاقتصادي، نفقد اتصالنا بالشبكات غير المرئية لرأس المال الاجتماعي والثقافي. وهناك «الرابطة» التي تربط معنى الهوية والذات بالعالم الأكثر اتساعًا على المستوى «الإنساني» الذي يذهب بعيدًا عن «الأعمال». وفي عصر «الموت الذاتي» تمثل بشكل واضح «حالة اختلاف الأشياء» المرغوبة التي يحددها «جيرجين» خلق تأثير غير ضروري. ووفقًا لذلك، فإن هؤلاء الذين «يحتفلون» لا يمثلون الملايين الكثيرة التي يتم إخبارها بأنها لا بد أن تتهيأ للوضع بصورة مستمرة، أو تستغل اللحظة، أو تفوز بالمنافسة، إلخ، لكنهم يمثلون هؤلاء الذين يصنعون حياة مريحة من تدعيم الأيديولوچيا ذاتها ـ محللو «وول ستريت» Wall Street، والمتحدثون المتحفزون، والاقتصاديون المؤيدون لليبرالية الجديدة، والسياسيون المناصرون للسوق الحرة، وما إلى ذلك. ويعد تصوري العقلي لـ «حالة اتخاذ الأشكال المختلفة» في مجتمع الشبكات ـ الذي تمثل من خلال «داني» و«أليسون» ـ تصورًا لكرة معدنية صغيرة في لعبة الكرة والدبابيس. كلما ذهبت بشكل أسرع، ضربت أكثر لصالحك، وكلما حصلت على «ضربات» أكثر، ربما سجلت نقاطًا أكثر. رغم ذلك، فإنها فقط مسألة وقت، قبل أن تهبط، وعندما لا تدفعك الضربات للوراء إلى الفوضى مرة أخرى تنتهي اللعبة. ويتخذ دنو المستوى في الحياة الواقعية الكثير من الأشكال: الاكتئاب، أو القلق، أو المرض، أو سوء استغلال المال، أو الطلاق، أو الإرهاق «البسيط» ـ عندما لا يمكنك «تجاهله» بأية حال، وتنقلك الموجة التالية من الإمدادات لمجتمع الشبكات بقوة وبشكل سريع.

هناك وقت أقل للانتباه إلى هؤلاء الذين أخفقوا. وفي الواقع، وفي معادلة «الوقت يمثل المال» التي غزت الثقافة والمجتمع، كما يكرر «جيرجين»، فإن ذلك يعني «تبديد الوقت». حتى أن تنوع الإيقاعات الزمنية الذي يتصعد بالفعل من خلال «تراجع» الزمن وعملية التصنيع يتم تدعيمه عندما نتزامن مع وقت الشبكات. ويتم استخدام الوقت بصورة متزايدة إلى مدة 24/ 7 في الشبكات، وأوقات التسلية، والفراغ، والأوقات المستنزفة في مجتمع المعلومات. وتتداخل الحدود الفاصلة النفسية والاجتماعية بين العمل ووقت الفراغ، بينما لم تعد عطلات نهاية الأسبوع «تبدأ» أو «تنتهي» ـ بل تتلاشى. وعندما لا تتابع العمل للبقاء أمام لعبة، فإن العمل يتبعك أينما تذهب ويمكنه أن يعتدي على وقتك في أية لحظة. وهذا لا يعني عدم الانطلاق بحرية

وعدم التعبير عن الذات كما تقنعنا «نوكيا» أو «ڤودافون»، لكنه يعني الاحتيال علينا وتضليلنا نفسيًّا. وبموجب مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة، تصبح الأجهزة اللاسلكية «توفير الوقت» الخاصة باللاسلكية، والدقة اللاسلكية، والهاتف المحمول، والدمج هي القيود الرقمية التي تعد «دائمة التشغيل». وإذا كان لدى الشخص الوقت للتوقف والتفكير والاستمتاع بالمفارقة في شعار «مايكروسوفت» «أين تريد أن تذهب اليوم؟» فإنه سيجده مثيرًا للسخرية.

وافترض أن النقطة المهمة التي حاولت وضعها من خلال هذه الرسوم الصغيرة تتمثل في أننا لدينا مشكلة معقدة، حتى الآن، في أساسها، العلاقة المليئة بالمشكلات مع تكنولوچيات المعلومات في إطار مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة. وهناك دليل ضعيف للتحكم في التكنولوچيات التي يستخدمها أنصارها في حياتهم، أو في القوى المحركة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية الأكثر اتساعًا التي من خلالها توضع تلك التكنولوچيات داخل إطار. هذا لأنني أشعر أن التحكم الشخصي أو الجماعي نادرًا ما يوجد في مجتمع وسيط بدرجة عالية، نعم، فإن لديهم وظائف وأموال وحياة مليئة بالمشاغل، لكنهم لا بد وأن يكيفوا أنفسهم مع إيقاع ومنطق تكنولوچيات المعلومات الشبكية. وتتشكل وتتكون حياتهم (وحياتنا) (بطرق ربما تكون إيجابية ظاهريًّا) من خلال القوى المحركة والأنظمة التي يمارسون (ونحن) من خلالها القليل من الاستقلالية الحقيقية.

علاوة على ذلك، وكما حاولت العرض في الفصول السابقة، يعد مجتمع الشبكات مجتمعًا، لا يفرق بين المجالات المنفصلة في الحياة مثل العمل، وأوقات الفراغ، والمنزل، وما هو خاص، وما هو عام. إنه في طريقه إلى ضم مجال رقمي واحد، فضاء إلكتروني متبادل الاتصال موجه بشكل هائل نحو المهام الاقتصادية والوسيطة. نعم، هناك أشكال من الرضا بالانتماء إلى هذا المجال ولا يجب أن يشعر المجتمع الوسيط بأنه ظالم. وعندما تتراجع الحياة الداخلية بشكل كاف من خلال استغراقنا المستمر في الحياة الوسيطة والمتعجلة، ثم حياة مشاعر التعاسة وعدم الرضا التي نمر بها، يكون من النادر توافر الوقت من أجل الاستكشاف ـ لو لم نضطر إلى البحث عن مساعدة محترفة. وبالتالي، نحن نريد (أو نعتقد أننا نريد) PowerMac الجديد، ونريد (أو نعتقد أننا نريد) معالج أكثر سرعة، وهاتف مدمج أصغر حجمًا برسومات بيانية يمكن رؤيتها، ونريد أيضًا أن نكون «دائمي التشغيل» لكل ذلك للتأكد من أننا لن «نترك» كل ذلك. ورغم هذا، كلما

كنا على اتصال داخل الهياكل الخاصة لرأسمالية الليبرالية الجديدة، توسعنا بشكل محكم عبر الزمان والمكان. وينخفض الاستقلال الشخصي والجماعي داخل ذلك الزمان وذلك المكان بشكل متواز مع كل اتصال جديد، وكل زيادة في السرعة. وبشكل متدرج، يقترب زماننا من الزمن الشبكي، ومكاننا من المكان الشبكي، وحياتنا من الحياة الشبكية. ولا يدور منطق الشبكات حول المذهب الإنساني أو سعادة الفرد، لكنه يدور حول المهام الوسيطة، والفعالية المنهجية، والسرعة، والربح، والحصة السوقية.

وأود أن أنتقل في القسم الثاني إلى المناقشة حول كيف أن مجتمع الشبكات يغمر زماننا ومكاننا بطريقته. لقد قمنا بمناقشة القوى المحركة التي تكمن وراء تكوين مجتمع الشبكات وأعتقد أن هذا يعد اقتصاديًا بشكل كبير، وفعالًا، ومنطقيًا حيث «غزا» مجالات الحياة الأخرى، غير الاقتصادية سابقًا. لكن كيف حدث هذا فعليًا، في العالم الواقعي؟ من، أو ماذا يؤكد ذلك، كما يقول «جيبسون»، «هل أتى المستقبل؟» بمعنى آخر، كيف تتشكل «الحياة» اليومية وتتحول إلى «الحياة دوت كوم» على أساس يومي؟

البيتا والذرة

تأتي كل الثورات مع شخصياتها الرئيسية، وهؤلاء «الأبطال» الذين تكلمنا عنهم في الفصل الأول، مثل «بيل جيتس» Bill Gates، و«ستيف جوبز» Steve Jobs، الذين وجدوا الإلهام والدافع والخوف والرعب والدهشة هؤلاء هم الذين واجهوا موجات عارمة من التغير التكنولوجي. هؤلاء هم الصفوة، ومفكرو المعلومات، هؤلاء هم الذين يحتلون المراكز الرئيسية في الصناعة، وفي الجانب الأكاديمي، وفي الإعلام، وهم الذين يساعدون ليس فقط في تشكيل ما سوف يكون عليه مجتمع الشبكات، لكن أيضًا في كيفية تفكيرنا في ذلك فيما بعد. وهم يمثلون أيضًا باقة منوعة. فشخص مثل «هاوارد رينجولد» Howard Rheingold ـ النصير الإلكتروني الذي يرى أن الشبكات وتكنولوجيات المعلومات والاتصال يمكن أن تعمل على تحرير البشرية. ويشعر بالاستياء من «سطحية النقاد الذين يقولون إنك لو جلست أمام الحاسب الآلي وشاركت في محادثات عبر الإنترنت فإنك لن تصل إلى حياة حقيقية» (ديجراتي Digerati 2002). وفي الطرف الآخر من المعادلة، هؤلاء مثل «كليفورد ستول» Clifford Stoll ـ

المعارض الإلكتروني الذي يؤمن بأن الشبكات تعمل بشكل أساسي على الأبعاد ويرى أنه «بدلًا من جعلي أكثر قربًا من الآخرين، فإن الوقت الذي أقضيه على الإنترنت يعزلني عن أكثر الناس أهمية في حياتي، عائلتي، وأصدقائي، وجيراني، ومجتمعي» (ديجراتي 2002).

وبشكل واضح للغاية، فإنه عند طرف المعادلة المناهض للإكترونية ـ لدينا «نيكولاس نيجروبونتي» Nicholas Negroponte ـ أحد الأشخاص الذين التقينا بهم لفترة قصيرة في الصفحات الأولى من الفصل الأول. وأود أن أخصص جزءًا من النقاش هنا لأعمال وتأثير «نيجروبونتي» حيث أعتقد أن هذه الأعمال لها تأثير حاد على كيفية تعايشنا مع تكنولوچيات المعلومات والاتصال، وبشكل مثير، تشكل هذه العلاقة سمة أساسية من العالم الذي نعيش فيه. والذي يجعل «نيجروبونتي» مهتمًا ومسيطرًا هو أنه أصبح قادرًا على اجتياز المجالات الصناعية، والأكاديمية، والإعلامية. وتمثل منصبه الأكاديمي التكنولوچي في رئاسته لمجلس إدارة «مختبر الإعلام» التابع لمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا MIT، الذي شارك في إنشائه مع «چيروم ويسنر» Jerome Wiesner عام 1985. ويعد «مختبر الإعلام»، الذي سوف نتحدث بشأنه بشكل تفصيلي سريع، مزيجًا يضم تمويلًا جوهريًّا من مشروعات خاصة مع «النظام الأخلاقي» المزعوم و«الصرامة الفكرية» للجامعة ـ في هذه الحالة «الرابطة الأكاديمية لمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» Ivy League Massachusetts Institute of Technology. وكانت تتم إدارة عمله الإعلامي من خلال مقالاته في عموده بمجلة «وايرد» Wired في السنوات الأساسية (من ناحية تقييم وتبسيط الإنترنت ومجتمع الشبكات) بين عامي 1993 و1998.

وبامتداد هذه المجالات المهمة مع الأفكار، كان «نيجروبونتي» قادرًا على أن يثبت بنفسه أنه المفكر المجدد والمبتكر الذي توصل إلى نقطة التقاء مع الموجة التي كانت تدفع ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال حول العالم. وفي عام 1995 قام «نيجروبونتي» بنشر كتاب «جوهر الرقمية» Being Digital ـ الكتاب الذي يعرض ما يراه حول ثورة تكنولوچيا المعلومات وما تتنبأ به للذات البشرية. وكما يشير العنوان، يتصور «نيجروبونتي» كلًّا من ثورة تكنولوچيا المعلومات وتطور مجتمع الشبكات أنهما قادمان معًا من أجل الناس والحواسب الآلية، «السطح البيني الذي يشبه قليلًا تبادل الرسائل ويشبه كثيرًا المحادثة وجهًا لوجه وإنسانًا لإنسان» (1995: 99). وما يميز «نيجروبونتي» عن الآخرين مثل «جيتس» (الذي ينظر إلى تكنولوچيات المعلومات

والاتصال على أنها وسائط فقط)، أو «رينجولد»، الذي ينظر إلى تكنولوجيات المعلومات على أنها وسائل لتدعيم ما نمتلكه بالفعل (المجتمع، والصداقة، إلخ)، هو ما يراه «امتزاجًا» من «البيتا والذرة» كتطور لشيء جديد تمامًا. وبالنسبة لـ «نيجروبونتي»، لا تعد الرقمية القادمة شيئًا أقل من تطور شكل جديد من الذاتية البشرية. وبشكل جدير بالملاحظة، يبدو هذا أيضًا بالنسبة لـ «نيجروبونتي» حالة وجودية غير معقدة. وفي الواقع، فهي تشكل خطوة ضخمة ومدعمة عبر مسار التقدم الإنساني.

وبالنسبة لـ «نيجروبونتي»، يمثل «جوهر الرقمية» مكسبًا كبيرًا، فيمكننا الكسب من خلال المعلوماتية في حياتنا إلى أعلى درجة ممكنة. وفي عام 1998 قدم المزيد من التوضيح لـ «جوهر الرقمية» في مقال بمجلة «وايرد» (12.6) بعنوان «ما وراء الرقمية»، حيث كتب:

> سوف تكون العقود القادمة هي فترة فهم التقنية الحيوية، والتحكم في الطبيعة، وتحقق السفر خارج مجال الكرة الأرضية، إلى جانب الحواسب الآلية التي تستخدم برنامج «التطبيقات الموزعة بين الشبكات» DNA، والإنسان الآلي المصغر، والنانو تكنولوچي وهي السمات الرئيسية على المسرح التكنولوچي. إن الحواسب الآلية كما نعرفها اليوم سوف أ) تكون مملة ب) تتوارى في أشياء: تقليم الأظافر، وتنظيف ذاتي للقمصان، وسيارات دون سائق، ودمى باربي العلاجية، ومقابض أبواب ذكية تُدخل رجل شركة خدمات السوقيات Federal Express وتُخرج رجل «وكالة تبادل قواعد البيانات من خلال الإنترنت» Federal Interagency Databases Online (Fido). وسوف تسيطر الحواسب الآلية على الجزء غير الظاهر في حياتنا اليومية: سوف نعيش داخلها، ونرتديها، بل نأكلها. وسوف يقوم الحاسب الآلي بالاستغناء عن الطبيب.
>
> (نيجروبونتي 1998)

لا يعد هذا خيالًا علميًّا من النوع الذي نجده في فيلم «الرومانسي الجديد» لـ «جيبسون»، أو «انهيار الثلج» لـ «ستيفينسون»، حيث يمكننا النقد في الوقت الحاضر. إنها منطقة خالية من النقد. إنه علم المستقبل، لكنه يمثل رؤية لمستقبل قد تأتي وترحل ـ لسبب خاص جدًّا: أنه يتلاءم مع رؤية المستقبل التي تلح من خلالها تكنولوچيات المعلومات والاتصال برأسمالية

الليبرالية الجديدة بشكل كبير، وتبتغي أن تأتي وترحل. ويمثل هذا عملًا حاسوبيًا في أوج انتشاره في كل مكان، حيث تصبح تكنولوچيات المعلومات جزءًا مما نكون عليه أو مما نقوم به. ويمكننا طرح السؤال: هل يعد هذا سيئًا للغاية؟ هل «تقليم الأظافر» (أيًا كان الشكل) أو «مقابض الأبواب الذكية»، أو حتى (أتوقف هنا مؤقتًا) «دمى باربي العلاجية» تمثل أشياءً تتطور تدريجيًا؟ حسنًا، في حد ذاتها، لا، ربما لا. ومن أجل المزيد من فهم ما أعنيه، دعونا ننظر بشكل أكثر قربًا نحو بنات أفكار «نيجروپونتي» ـ مختبر الإعلام التابع معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا MIT ـ ماذا يكون، لماذا يكون مؤثرًا للغاية، وما الدور الذي يلعبه (والعاملون فيه من المنافسين) في تكوين مجتمع الشبكات؟

وقد أصبح «مختبر الإعلام» بمعهد ماساتشوسيتس MIT يوصف بـ «المعهد العبقري»، فهو مكان للمحاولات شديدة الحماسة والذكية بشكل هائل بحيث لا يمانع بأي شيء. وإذا كان هذا المكان شخصًا، لكان قد وصف بالعالِم المجنون، ذلك الشخص الذي يكسر القواعد المتعارف عليها ولا يخشى من تجربة الأفكار المتطرفة» (مادلين Madlin 1999: 35). ورغم ذلك، وبشكل مخادع، فإن بعض أكثر الرأسماليين تقليدية يودعون كمًا كبيرًا من الأموال كمساهمة فيه. إن حوالي 95 في المائة من الميزانية السنوية لـ «مختبر الإعلام» التي تمثل تقريبًا 35 مليون دولار أمريكي تأتي من الصناعة الخاصة، التي تشمل حوالي 170 راعيًا مشاركًا. ويعد الكثير من هؤلاء الرعاة من النوع المتوقع ومن الممكن أن يعتبروا فئة «مشتبه بها معروفة». ومن المتوقع أن تقوم شركات مثل «آي بي إم» IBM، و«هيوليت پاكارد» Hewlett Packard، و«إنتيل» Intel، و«موتورولا» Motorola، و«نوكيا» Nokia، و«سواتش» Swatch بملأ خزائن أموال «مختبر الإعلام». من ناحية ثانية، وبشكل أكثر خداعًا وبالإشارة إلى التأثير المتغلغل لتكنولوچيات المعلومات والاتصال في مجتمعنا، هناك جماعة من الرعاة غير المتوقعين بشكل أكيد مثل «نوكيا»، و«ليجو أند مارس» Lego and Mars، منتجي قوالب الشيكولاتة، وأغذية الكلاب، ومثل أيضًا «فيليپ موريس» Philip Morris، منتج السجائر. ومثل الكثير من رعاته، شعر «مختبر الإعلام» بحافز لا يقاوم للتوسع في عصر العولمة. وطبقًا لذلك، افتتح «ميديا لاب يوروپ» MediaLabEurope في «دبلن» عام 2000 بعد أن حررت الحكومة الأيرلندية بسخاء شيكًا مصرفيًا بمبلغ 55 مليون دولار أمريكي ووقعت عليه لتأجير تجهيزات ثابتة في مصنع

الجعة السابق «جوينيس» Guinness الذي تم تجديده بفخامة. علاوة على ذلك، وبموجب برنامجه «الأمم الرقمية» Digital Nations، يقوم «مختبر الإعلام» بإجراء الأبحاث في «أمريكا الجنوبية» في «آسيا». وفي عام 2002 كانت الحكومة الأسترالية تحاول بحماس كسب «مختبر الإعلام» لنيل الاستحسان لتعكس بعضًا من إمكانياتها «العبقرية» تجاه صناعات تكنولوجيا المعلومات والاتصال المحلية البطيئة نسبيًّا في «أستراليا» والمناطق المحيطة.

لماذا تقوم الأنظمة العامة والحكومات المختلفة بالاستثمار بكثافة في مثل «... العلماء المجانين ذوو الأفكار المتطرفة»؟ ويعد «مختبر الإعلام» شيئًا ضروريًّا للغاية. إن مقولة «نيجروبونتي» المقتبسة من مقاله «ما بعد الرقمية» التي تحدثنا عنها من قبل تعطي إشارة ما. وبصورة أكثر دقة، فتعد تلك هي رسالة «مختبر الإعلام» في «تغيير العالم» عبر منتجات تعتمد على تكنولوجيا المعلومات والاتصال الإبداعية والخلاقة مع تطبيقات «يومية» من أجل العملاء الذين يجذبون كثيرًا اهتمام الشركات الكبرى. بمعنى آخر، فإن ما يتحكم في المستثمر هو مشهد انتشار الحواسب الآلية وتكنولوجيا الأقراص المصغرة في كل شيء نقوم به تقريبًا، مما يجعلها مجالًا للاتصال، والتعامل مع الإنترنت، وتحويلها إلى سلعة. ومع السمعة المنتشرة والتمويل الضخم من «أمريكا» وكل مكان، يعمل «مختبر الإعلام» كمغناطيس لأفضل وألمع كلية وطلاب متخرجين من تخصصات متنوعة مثل الفيزياء الحاسوبية، والهندسة، واللغويات، وعلم الدلالة، والوسائط المتعددة.

ووفقًا لقول «نيجروبونتي»، اشترك «مختبر الإعلام» ذاته في نظام متسع من مشروعات البحث التي تجتاز نطاقًا كاملًا من الموضوعات، وفروع المعرفة، ومجالات جديدة من الأبحاث. ويعد الهدف من الأبحاث التي تجرى من خلال تلك المواهب المتنوعة ملحوظًا وربما يعد التنوع أفضل سمة بالنسبة لـ «مختبر الإعلام» ذاته:

> **يقدم «مختبر الإعلام» بيئة فريدة لاستكشاف الأبحاث والتطبيقات الرئيسية عند التقاء العمليات الحاسوبية مع الفنون. وتتضمن مجالات البحث: أدوات البرامج الإلكترونية، فهم الآلات، كيفية تعلم الأطفال، تصور الإنسان مع الآلة، التجربة، الأسطح البينية الصوتية، الحواسب الإلكترونية العادية، العمليات الحاسوبية العاطفية (فرع جديد من العمليات الحاسوبية التي ترتبط، وتنشأ من**

المشاعر أو تؤثر بشكل بطيء فيها)، التصميم المتقدم للسطح البيني، الإعلام الحقيقي، الڤيديو الموجه للهدف، السينما التفاعلية، العمل في أشكال مختلفة من التعبير الرقمي من النص، إلى الرسوم البيانية، إلى الصوت، والمداخل الجديدة إلى التصوير الفضائي، وإعلام النانو، وفهم مقياس النانو.

(أبحاث مختبر الإعلام 2002)

ويقوم بالدراسة بشكل مؤثر، لكنه أيضًا يتحدث كثيرًا بما يشبه إلى حد كبير الحديث اليوناني وبالتالي لا يعني الكثير بالنسبة لمعظم الناس. ورغم ذلك، إذا استغرق أحدهم إلى مستوى أكثر عمقًا من الخصوصية بشأن موقع «مختبر الإعلام» (www.media.mit.edu)، تصبح التفاصيل (والأساس المنطقي الجوهري لـ «معمل الإعلام») أكثر وضوحًا.

إن «مختبر الإعلام» التابع لـ «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوچيا» لديه سلاسل من الأبحاث العديدة والمختلفة التي تأتي تحت اسمين رسميين: «ريسيرش كونسوريتا» Research Consorita و«سبيشيال انتريست جروبز» Special Interest Groups. وبموجب الاسم الأول هناك على سبيل المثال، سلسلة أبحاث «لايفلونج كيندرجارتن» Lifelong Kindergarten. وأحد أمثلة إجراء الأبحاث هنا مشروع «ديچيتال مانيبوليتيف» Digital Manipulatives حيث تم تصميم ألعاب الأطفال التقليدية مثل الكرة، والمكعبات، والرماية باستخدام «قدرات رقمية مضافة». ويشير فهرس الموقع قائلًا، «مع إصداراتنا الرقمية الجديدة لهذه الألعاب، يمكن للأطفال أن يتعلموا مفاهيم (مثل العملية، والاحتمالية، والنشوء) التي كان ينظر إليها سابقًا على أنها معقدة للغاية بالنسبة للأطفال» («كونسوريتا ريسيرش» التابع لـ «مختبر الإعلام» 2002).

ويتضمن أبحاثًا أخرى عالية المستوى، مرة أخرى يعبر «مختبر الإعلام» بالكلمات التالية:

حاجب الريح الإعلامي

يعد حاجب الريح الإعلامي ثورة تغير من استخدام حاجب الريح الخاص بالسيارة لخدمة أغراض متعددة. عندما لا يوجد أحد داخل السيارة، فيمكنه أن يقدم المعلومات للعالم الخارجي، الإعلان، وعلامات الطريق المتزايدة، وحتى المعلومات التي يغلب عليها الطابع الشخصي لفرد يسير بجانبه. وعندما يدخل

القائد السيارة، يتكيف حاجب الريح مع أجهزة تسجيل وإرسال واستقبال الصوت ليكون ملائمًا لقاعدتها ثم يقوم بتثبيت سطح بيني للإنترنت. وعندما يعود السائق، يمكن استخدام حاجب الريح كشاشة عرض لأجهزة الفيديو التي تعمل بالقرص الرقمي متعدد الاستخدامات DVD. وفي النهاية، عندما يستخدم السائق السيارة، يمكن لحاجب الريح أن يحجب الشمس والإضاءة، ويثبت العلامات والحواشي الافتراضية التي تجعل من الصعب رؤية الأشياء.

آي آر EyeAre

«التصور المستقبلي للفريق» ـ يرتدي كل شخص نظارة آي آر فريدة، التي يمكنها إرسال معلومات ذهابًا وإيابًا كل منها للأخرى، مسجلة معلومات مثل إلى من تتحدث وكم استغرقت مدة محادثتك. وتتوقف أحيانًا من خلال واحدة من المحطات الأساسية المتعددة حول المكان لتحميل المعلومات المخزنة في نظارتك وسوف تكون قادرًا على اكتشاف المزيد من المعلومات المتعلقة بالناس الذين تقابلهم، مثل معلومات عن اتصالاتهم، وبطاقات أعمالهم، وربما الصفحات الخاصة بهم في شبكة الإنترنت، أو تتيح لك أن ترسل لهم بريدًا إلكترونيًا، إلخ... ـ وتوفر لك فيما بعد طريقة سهلة لمتابعة معارفك الجدد.

(ميديا لاب ريسيرش كونسورتيا 2002)

الآن، تبدو الكثير من هذه الموضوعات مفيدة، وممتعة حتى أنها (بعيدة عن بعضها البعض، ربما بعيدة عن حزب آي آر ...). ورغم ذلك، يتم بناء هذه التصورات المستقبلية التي يعكف عليها ويطورها «عباقرة» «معمل الإعلام» التي عندما تقرؤها لا تنقل أي معنى حقيقي عن نوعية المجتمع مثل تلك الأدوات والتطبيقات ـ في وحدتها الكاملة. إن التحفيز من قِبل «معمل الإعلام» وآخرين كثيرين بشكل ثابت للاتصال والإمداد بالمعلومات يعد دليلًا على منطق أكثر عمقًا (وانحرافًا) يتمثل في إدراج تكنولوجيات المعلومات والاتصال عند كل مستوى وفي كل مجال: من حضانة الأطفال، والمكتب، والمنزل، إلى الأحزاب وفي السيارة. وبالنظر إلى هذه التطورات من منظور أكثر اتساعًا، حيث يوجب على الشخص عند محاولة إدراك مجتمع عالمي يتصل ببعضه البعض، يمكننا رؤية الدور الذي تلعبه معاهد مثل «مختبر الإعلام» التابع

لـ «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا» في مجتمع الشبكات. إن الدور الذي طوره «مختبر الإعلام» ونما بشكل كبير يتمثل في الموصل الرقمي للفترات الفاصلة الاجتماعية والزمنية للشخصية الإنسانية، حيث سد الفجوات التي خلفتها القوى المحركة الواسعة للعولمة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وأثناء انتقالنا عبر القرن الحادي والعشرين سوف يصبح دور «معهد الإعلام» والمنظمات المشابهة مهمًا بشكل متزايد. وفي الواقع، فإنها تركز بشكل أكثر دقة على فكرة «البيتا والذرة». وقد وضح هذا في قرارهما عام 2001 ـ بتمويل من المؤسسة القومية للعلوم» National Science Foundation ـ بافتتاح «مركز البيتا والذرة» Center for Bits and Atoms مع الهدف الواضح بـ «باستكشاف كيف أن محتوى المعلومات يرتبط بالتصوير المادي، من النواة الذرية إلى الشبكات العالمية» (إم آي تي نيوز MIT News 2001). وبشكل عام، سوف يقوم «مختبر الإعلام» ومؤسسات أخرى في هذا المجال الرابح بتقديم «الحلول» بشأن كل من المكونات المادية والبرامج الإلكترونية للحاسب الآلي (حيث ـ قد نتساءل ـ هل «المشكلة» في حضانة الأطفال أم في أحزاب آي آر الحرة؟ حيث يخلق كل منهما Life.com ويجعلانها متصلة. ولن تساعد فقط هذه «المعالجة الرقمية» لبناء الثقافة والحياة في خلق عالم يمكن من خلاله أن تلتقي البيتا مع الذرة وتتفاعل معها، لكنها أيضًا تضع أساسًا لعالم لا يمكنه الاستغناء عن تكنولوجيا المعلومات والاتصال في كل شيء تقريبًا.

وبالطبع يمثل هذا النوع من العالم بيئة معلومات سلعية واتصالية، مما يعبر عن حلم مشروعات الأعمال الكبرى. إن عمليات الاتصال في كل مجال في مجتمع توجهه بشكل أساسي القوانين التجارية يعني أن الفرد على اتصال (وتساعد في احتواء) سوق واسع. كما يقول «جيريمي ريفكين» Jeremy Rifkin (2000: 55)، ويمثل هذا النوع من منطق السوق المتطرف/ الموجه من قبل تكنولوجيات المعلومات والاتصال منطقًا سوف:

> ... يشكلنا ويعيد تشكيلنا بصورة صارمة كـ «جماعات مركزية»، و«أسواق متخصصة»، و«إحصاءات سكانية»، و«مناطق»، و«بيانات عن العملاء» إلخ، يتم تصنيفها، وشرائها، وبيعها مثل تمامًا أي سلعة أخرى. وفي اقتصاد معلومات الوقت الفعلي نصبح شخصيات تُبنى على قاعدة البيانات التي تنهار ويعاد إصلاحها لتتكيف مع قوانين المنافسة في السوق.

وفي هذا الصدد، فإن «مخالفة القواعد» من قِبل «نيجروبونتي» و«معهد الإعلام»، أو جو «القسوة» و«الصرامة» الذي يحيـط بالكثير من شركات «الاقتصاد الجديد» ذات التقنية العالية، قد ظهر بشكل فعلي ليعبر عن أشياء متوقعة ومألوفة ومقاومة للتغيير. وهذه الأشياء ليست أقل إزعاجًا من كل ذلك. الآن أنا متأكد بأن «نيجروبونتي» يؤمن بشدة بأن النفع يمكن أن يأتي من عمله وأفكاره، مما يخلق تطبيقات وأدوات مفيدة اجتماعيًا تربط «البيتا والذرة معًا» في تناغم رقمي حي داخل بيئة المعلومات. ورغم ذلك، فلا يوجد كل من التناغم الاجتماعي وتطور شخصية الإنسان الميكانيكي النافع في مقدمة تفكير الشركات ومساهميهم حيث تقوم بضخ الملايين في مثل هذه الأبحاث والتطوير. إنها تتوقع أشياء سوف تبيع وتساعد في المساهمة في بناء مجتمع لا بد أن تكون فيه منافسة شريفة. وبشكل واعٍ أو غير واعٍ، فإنها تساعد في بناء حياة ومجتمع يقومان بتسويق الوكالات، والشركات متعددة الجنسية، والحكومات التي يمكن التنبؤ بها، والتعامل معها، والاستفادة من خدماتها. ووفقًا لذلك، يعد كل اتصال جديد يصنعه «مختبر الإعلام» وغيره هو الخسارة المقابلة لمجال الاستقلال الذاتي، بداية من حضانة الأطفال. وهذا لا يحدث بسبب أن تكنولوچيات المعلومات والاتصال بعيدة في حد ذاتها، لكن بسبب أن المنطق الذي يوجهها ويصنعها حاليًا، وهو عولمة الليبرالية الجديدة، يعد هو الغالب بشكل واضح.

الإنسان الميكانيكي الكهربائي «R» في الولايات المتحدة

أود أن أنهي هذا الفصل بالتعمق بشكل أكبر والتساؤل بشكل فلسفي ومن منظور النظرية الاجتماعية الحالية ماذا يعني بالفعل «امتزاج» كل من البيتا والذرة. وكما ذكر من قبل، فقد أعطانا الخيال العلمي تصورًا عما يستلزمه الإنسان الميكانيكي الكهربائي. إنه «أرنولد شوارزنجر» ومشاهده الانتقامية المتنوعة في أفلامه «المدمر». امتزاج اللحم والمعدن، وامتزاج البيتا والذرة في شكل جديد للإنسان. يعد هذا إنسانًا سابقًا، وتطورًا يأخذنا بعيدًا إلى ما بعد ما تخيله «داروين» Darwin أو أي شخص آخر وإلى مرحلة جديدة من التقييم الذي يمثل جزءًا منه إلى التكنولوچيا وجزءًا آخر إلى اللحم. رغم ذلك، الجزء المزعج في الأفلام هو ذلك التكنولوچيا، والمعدن والأجزاء الثنائية تبدو أكثر الأجزاء أهمية، الأجزاء التي تحت السيطرة. هذا هو تكوين الإنسان الميكانيكي الكهربائي، صورة الخيال العلمي.

وكما قلت في بداية هذا الفصل، إن الخيال العلمي يقدم لنا طريقة مفيدة للتوصل إلى منظور آخر بشأن حاضرنا، في كل فرع أدبي تقريبًا، من خلال استخدام التشبيه والخيال، ترتبط بقضايا العصر. وتقدم صورة الإنسان الميكانيكي الكهربائي حدودًا لاهتماماتنا مع التحول التطور التكنولوچي للحواسب الإلكترونية ذات الإمكانيات الشاملة. لا توجد هذه الصورة الخاصة، بالطبع، ولا يوجد العلم التقني بشكل قريب مثلما يوجد في هذه المرحلة ـ ورغم ذلك، فإن القضايا الأخلاقية الكبرى التي لا بد أيضًا أن يتم التغلب عليها. رغم ذلك، فإن «دونا هاراواي» Donna Haraway لديها بعض الأخبار المزعجة حول هؤلاء الذين يتخيلون أن عصر الإنسان الميكانيكي الكهربائي قد انتهى في المستقبل البعيد والمرير. ووفقًا لقول «هاراواي»، نحن نعد بالفعل أشخاصًا ميكانيكية وكهربائية، ونعد بالفعل بشر سابقًا.

وفي كتابها القردة، والإنسان الميكانيكي والكهربائي، والنساء Simians, Cyborgs and Women تقول «هاراواي»:

> يعد الإنسان الميكانيكي الكهربائي كائنًا حيًّا يرتبط بعلوم الاتصال والتحكم الحيوية، أي مزيج من الآلة والبشر، مخلوقًا من الحقيقة وكذلك مخلوقًا من الخيال ... تمثل الحقيقة الاجتماعية علاقات اجتماعية حية، أكثر مؤسساتنا السياسية أهمية، خيال يغير العالم. ومع نهاية القرن العشرين، زمننا، زمننا الأسطوري، نعتبر جميعنا مزيجًا من الأوهام، والنظريات، والاختراعات الآلية والبشرية، باختصار، نحن نعتبر بشرًا ميكانيكيين.
>
> («هاراواي» 1991: 149، إضافة تأكيد)

تخلق «هاراواي» حالة اضطرارية لفكرة أننا لم نعد قادرين على المحافظة على «خيال» الثنائية بين ما هو «طبيعي» وما هو «من صنع الإنسان». ولم يعد من الممكن القول بأي درجة من التأكد أين ينتهي الجزء الحي من جسدنا ويبدأ الجزء التكنولوچي. في الواقع، تعد علاقتنا بالتكنولوچيا وطيدة ومحيرة حيث إن تصريح «هاراواي» «إننا بشر ميكانيكيون» يبدو أقل هزلًا مما نتصور. ونحن لا نعد، كما قلت من قبل، عند مرحلة «المدمر» لـ «شوارزنجر» لما بعد الإنسانية، لكن أزماتنا مع الأجزاء الإلكترونية، والمعادن، والبلاستيك، والسيليكون، والتكنولوچيا والتقنية بشكل عام لا تعد ضخمة مثل صعوبة القضاء عليها.

على سبيل المثال، التفكير في محدد الخطوات الذي يحمي عضلات القلب لآلاف كثيرة من الناس الخاضعين لمضخة عند معدل يجعلهم على قيد الحياة، والنسيج الحي القوقعي الذي يتيح سمعًا أفضل، والنسيج الحي لثدي السليكون الذي ترى بعض النساء أنها لا بد أن تستعمله، استبدال الفخذ أو إعادة بناء الركبة، والعدسات اللاصقة ـ تلك هي القائمة التي لا بد أن تتزايد. ان التفكير في أن الإنسان الميكانيكي الكهربائي في هذا النمط منخفض التقنية نسبيًّا يفتح الطريق لاستنتاج واضح تمامًا بأنه ربما نتخطى ما بعد البشرية لوقت ما، بل لوقت طويل. على سبيل المثال، طور «الأرتوسكانز» أطقم الأسنان الصناعية البديلة خلال ألفي عام مضت من الأسنان العاجية المثبتة في المكان الأصلي مرورًا بالأسنان الذهبية، وحقنة اللقاح تحت الجلد المضاد لأمراض مثل السعار والطاعون، تم تطويرها في نهاية القرن العشرين. رغم ذلك، وبسبب جزء كبير من ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال وأساليب البحث عن الربح عبر عولمة الليبرالية الجديدة، خاصة في مجالات مربحة كثيرًا مثل التكنولوچيا الحيوية، يتم تحرير القيود التقنية بالنسبة لـ «البشرية الميكانيكية» بسرعة غير مسبوقة. وأعتقد أنه عند الرابطة بين الثورة التكنولوچية والثورة الاقتصادية، حيث يحدث كل من الاختلاف النوعي والكمي. وكبشر فقد تخطينا الخط عند نقطة ما غير معروفة إلى ما بعد البشرية بسبب رابطة عولمة الليبرالية الجديدة/ تكنولوچيا المعلومات والاتصال. وفي الواقع، لا يوجد هناك «خط» بعد ذلك (لو كان يوجد فخط واحد). كما تقول «هاراواي» (1991: 64)،

> **تعتبر علوم الاتصالات وعلم الأحياء تفسيرات لأهداف طبيعية ـ تقنية للمعرفة التي يتداخل من خلالها الاختلاف بين الآلة والكائن الحي بشكل قوي، أي أن كلًّا من المخ، والجسد، والأداة يترابط بشكل وثيق.**

رغم ذلك، تسبق معرفتنا التقنية كثيرًا إدراكنا الأخلاقي ـ النقدي لما هذه المعاني وإلى أين تقودنا حالة ما بعد البشرية. يركز «كاستيلز» (1997: 379) على نفس النقطة بشأن مجتمع الشبكات بشكل أكثر عمومية عندما يكتب أن «هناك فجوة غير عادية بين التطور التكنولوچي الهائل وبين التراجع الاجتماعي لدينا». لم يعد إذن الإنسان الميكانيكي الكهربائي مفهومًا مجردًا أو بسيطًا، إنه حقيقة وهو يعبر عن ماذا نكون. وما يجعله «أكثر» واقعية وحالة «أكثر» وجودًا أكثر مما كانت عندما تعايش «الأرتوسكانز» مع الأسنان العاجية والذهبية هو التوسع

والكثافة العملية التي أحدثها «علم الاتصالات وعلم الأحياء» ـ أيديولوجية مذهبي السلعية والتسويقية اللذين يتبعان الليبرالية الجديدة كمبدأ أساسي. بمعنى آخر ـ وكما أكد باستمرار هذا الكتاب ـ إنها حول تأثيرات الشبكات الرقمية ومجتمع الشبكات بشكل أكثر عمومية على «الأهداف الطبيعية ـ التقنية للمعرفة». يرى «هاري كونزرو» Hari Kunzru (1997) أن «عالم «هاراواي» حول الشبكات المشوشة».

> ... إبعاد المفاهيم قديمة الطراز سواء الطبيعية والاصطناعية إلى أماكن حفظ السجلات. وتمثل هذه الشبكات الممتزجة الإنسان الميكانيكي الكهربائي وهي لا تحيط بنا تمامًا ـ إنها تجعلنا مندمجين. إن كلًّا من خط الإنتاج الأتوماتيكي في أحد المصانع، وشبكة الحاسب الآلي في أحد المكاتب، والراقصين في أحد الملاهي، وأنظمة الإضاءة والصوت ـ تمثل جميعها معانٍ للإنسان الميكانيكي الكهربائي للناس والآلات. وتوجد الشبكات داخلنا أيضًا. ان أجسادنا التي تغذت على منتجات الأعمال المتعلقة بالزراعة، مما كان يحفظ صحتها ـ أو يدمرها ـ عن طريق الصيادلة وتعالج عن طريق منتجي الأدوية، ليست طبيعية مثل محلات تجميل «بادي شوب» Body Shop التي ترغب في أن نصدقها. نحن نبني أنفسنا، تمامًا مثلما نقوم ببناء مجموعات الرقاقات أو الأنظمة السياسية ـ ويأتي هذا مع بعض المسؤوليات.

إذا قبلنا فرضية «هاراواي» وتوضيح «كونزرو» لها، فنحن بالتالي نمثل إنسانًا ميكانيكيًّا كهربائيًّا ونمثل ما بعد الإنسان. وفي الواقع يمكننا القول إننا ولدنا لنكون في صورة ما بعد الإنسان، ونتعرض لتدخل المذهب الطبي والتكنولوچي الذي يدخل في عمليات التعديل الوراثي، والإخصاب، والحمل، والميلاد. لا بد من التأكيد على ذلك حيث إن الإنسان الميكانيكي الكهربائي لا يعني أننا نقترب من مجالات الخيال العلمي فيما يتعلق بالإنسان الآلي. وبالأحرى، كما توضح «هاراواي»، فإن مصطلح «الإنسان الميكانيكي الكهربائي» يرمز إلى شكل خاص من الذاتية. إنه وضع خاص ينتج ويجدد (اليوم) مع إشارة خاصة إلى قالب (شبكات) الممارسات الاجتماعية ـ الثقافية والسياسية، التي تجد أساس تطبيقها في ما يتعلق برابطة عولمة الليبرالية الجديدة/ تكنولوچيا المعلومات والاتصال.

وبالوصول إلى هذه النقطة من الفهم نكون قادرين على الرجوع خطوة من مجال كناية واستعارة الخيال العلمي الذي قدم الإنسان الميكانيكي الكهربائي كشيء ينتظر في المستقبل البعيد والمرير، إلى التفكير والعمل في الحاضر. ووفقًا لذلك، يمكننا قبول «الإنسان الميكانيكي الكهربائي» كشكل خاص من الذاتية وكحقيقة. ويمكننا من هذا المنظور الأكثر وضوحًا البدء في القياس والنقد. أولًا نحن في حاجة إلى أن نكون قادرين على الاعتراف بمسؤولياتنا الأدبية والأخلاقية. لكن كيف يكون هذا ممكنًا عندما لا نستطيع أن نواكب خطى الابتكار التقني؟

كما ذُكر من قبل، فإن الموضوع المرير الذي يمر خلال الكثير من الخيال العلمي يشير مرة أخرى إلى أننا نرتبط بخسارة واضحة في التحكم في التطور التكنولوجي. وباتخاذ وجهة النظر هذه حرفيًّا يمكن أن تؤدي إلى موقع «مضاد للعلم والتكنولوجيا»، المناقشات والأعمال العدائية القديمة قِدَم تاريخ العلم والتكنولوجيا ذاته. اليوم، يعد مثل هذا الموقف أكثر رفضًا لأننا ـ كما تشير فرضية «هاراواي» عن الإنسان الميكانيكي الكهربائي ـ **نحن نمثل المنتج الذي يصعب إلغاؤه بشأن العلم والتكنولوجيا**. إن التساؤل الذي نحتاج إلى طرحه يعد بالأحرى، تساؤلًا داخل نطاق السيطرة، وبالتالي يمكن القول، تساؤلًا حول السياسة. إذا كانت تقلبات السوق تنتقل لتضع جداول أعمال دائمة التغيير، فإن السياسة الرئيسية للتفويض والتغيير سوف تجد القليل من الشراء. وسوف ينفق العملاء البعيدون وقتهم في التكيف والتحول إلى أن يكونوا أكثر مرونة: مثل بطلينا «داني» و«أليسون»، يجهدان أنفسهما بشكل أكثر توترًا عبر الوقت والمكان من أجل مواصلة النجاح.

وفي كتابها شديد العمق «الوقت» Time، تأخذ «باربارا آدم» Barbara Adam في الاعتبار طبيعة الذاتية داخل مجتمع الشبكات. فهي ترى أننا غير مؤهلين فكريًّا لفهم ما تطلق عليه «الكوكبة المكونة من البشر ـ التكنولوجيا ـ العلم ـ الاقتصاد ـ العدالة ـ البيئة» (2004). بمعنى آخر، نحن ندرك عالمنا بصورة ضيقة لأنه عالم خارج نطاق السيطرة بشكل متزايد، عالم حيث قوى السوق المثالية أو الإدارة بالوسائل الميكانيكية أو الإلكترونية من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، ليست تكوينات ديمقراطية للناس، تشكل الثقافة والمجتمع. وتستمر «آدام» في القول بأنه في مثل هذه البيئة يكون من المستحيل الرضا بشكل كامل:

... يعد هؤلاء الناس أضعف رابطة عندما يتم ضغط الأطر الزمنية للأداء

> إلى الصفر وتمتد التأثيرات إلى ما لا نهاية، عندما يكون كل من الإرسال والنقل لحظيين لكن محصلاتهما تمتد إلى مستقبل مفتوح، عندما تتحد كل من اللحظية واللانهائية في مزيج متعارض في كل الأوقات.
>
> («آدم» 2004: 125)

ومثل «أضعف رابطة» في «كوكبة البشر ـ التكنولوجيا ـ العلم ـ الاقتصاد ـ العدالة ـ البيئة»، نحن منفتحون على القوى والتأثيرات التي لدينا القليل من النفوذ للتحكم فيها. وأعتقد أن هذه هي المرحلة التي نحن عندها الآن في مجتمع الشبكات. وإذا كان «الحل» يتمثل في سياسة جديدة، فإننا اليوم نعيش في مجتمع يفرض فيه «الفكر السياسي» بالقوة من خلال العلاقة بين عولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وتحت وطأة الحملة العنيفة، نقاوم بشكل ضعيف، فإما أن نخضع، أو نتكيف مع الواقع. مثل «داني» و«أليسون»، يقوم معظمنا بتتبع مسار التكيف، حيث نخلق «المرونة» و«المعالجة» بدلًا من «تفويض» سياستنا الخاصة ـ القدرة المدعِمة لاجتياز الموقف الاجتماعي والثقافي القاسي الذي صنعته المنافسة والسرعة.

سوف تناقش الحاجة إلى تطوير سياسة جديدة من أجل عصر المعلومات خلال بقية هذا الكتاب. ورغم ذلك، أود أن أستهل تلك المناقشة بعمل مسودة خاصة بوضع بعض الشروط المسبقة. أولًا لا بد من قبول ـ كما ترى «هاراواي» ـ أننا بشر ميكانيكيون وكهربائيون، منهمكون بشكل لا يمكن الرجوع عنه في عالم الثنائيات المتعارضة بين الطبيعة والتكنولوجيا التي لم تعد موجودة بشكل واضح ـ بدلًا من ذلك نحن موجودون عند السطح البيني المتغير بشكل مستمر بين الاثنين. يفرض هذا القبول علينا اختيارًا بين ما تطلق عليه «هاراواي» «الإنسان الأوتوماتيكي والاستقلال» (1992: 139). إن اختيار الأخير يستلزم إدراك كيف أن القوة تعمل في مجتمع شبكات، بطرق مختلفة تمامًا عن العلاقات القوية والسياسة التي هيمنت في العصر ما قبل الرقمي من الإنتاج الضخم. نحن في حاجة إلى معرفة مكان تحديد القوة في المجتمع وتعلُّم كيفية تطوير شكل من السياسة يمكنه أن يتنافس معها في متابعة المجتمع المدني الديمقراطي مع اقتصاد سوق ثانوي. ينبع ذلك من هذا الذي لا بد أن ندركه وهو أن قوة السوق وعبادة السوق في الاقتصاديات وفي السياسة المؤسسية تحتاج إلى أن تجلب بموجب التحكم الاجتماعي الديمقراطي، حيث إن «أضعف رابطة» يمكن أن تقوى وتوضع تحت سيطرة كاملة. في النهاية

في هذا بعيدًا عن قائمة شاملة تمثل الإدراك والقبول اللذين يُشكلان العالم والمجتمع حاليًا، يعد فقط واحدًا من الطرق غير المحدودة من تكوين حياتنا وعالمنا. ووفقًا لذلك، نحتاج إلى إعادة اكتشاف وتدعيم التقاليد والممارسات المتقلصة حاليًا والخيال الاجتماعي، والثقافي، والسياسي الذي أصبح مهمشًا من قِبَل مذهب الذرائعية[1] الليبرالية الجديدة.

قراءات أخرى

Baudrillard, J. (1988) *The Ecstasy of Communication*. New York, NY: Semiotexte.

Hassan, R. (2003) MIT Media Lab: techno dream factory or alienation as a way of life?, *Media, Culture and Society*, 25: 87–106.

Haraway, D. (1991) A cyborg manifesto: science, technology and socialist-feminism in the late twentieth century, in *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature*. New York, NY: Routledge.

www.media.mit.edu (MIT Media Lab) See this site for updates on the devices, applications and processes that merge 'bits with atoms' in more and more realms of life.

Negroponte, N. (1995) *Being Digital*. Rydalmere, NSW: Hodder and Stoughton.

Negroponte, N. (1998) Beyond digital, *Wired*, 6.12.

---

(1) مذهب يقول بأن أهمية فائدة الشيء هي التي تحدد قيمته.

الفصل الخامس المجتمع المدني ومجتمع الشبكات

استعمار المجتمع المدني

تروج المدارس لشعارات.الطعام السريع/ ملابس الشرطة.

(www.captivestate.com)

يعد مصطلح «المجتمع المدني» واحدًا من المصطلحات المتداولة والمهمة التي تخلق شعورًا خفيًّا بالدفء. إنه يشير ضمنًا إلى شيء «خيّر» مثل الأمومة، وشيء يقبله الكثير من الناس عن طيب خاطر على «أننا نفعل من أجل الفعل» دون معرفة ماذا يكون وما الذي يقوم به. وحول غموض هذا المصطلح يكون التساؤل: هل إذا لم يعد هذا المصطلح مستخدمًا سوف نشعر بذلك؟ ويظهر مصطلح «مجتمع الشبكات» خلال عنوان هذا الكتاب، لكن حتى دون ضرورة قراءته بتعمق، أو حتى قبل ضرورة قراءة أي شيء من الكتاب، لا بد أن يكون لدى معظم الناس على الأقل فكرة عن معنى المصطلح. إن المجتمع المدني يعتبر مختلفًا. ربما يخمن الكثير من الناس بأنه يدور «حول» السياسة والديمقراطية، أو حتى حول المجالات «المتعمقة» مثل الفلسفة، والحقوق، والأخلاق. ولا بد أنهم كانوا على صواب. لكن كيف نفهم ذلك؟

أود أن أستغرق بعض الوقت لتوضيح ما أراه كسمات رئيسية للمجتمع المدني وما يفترض أن يتم فعله كوظيفة في المجتمع بشكل عام. وفي هذا الصدد لا أقول إنني فقط لدي التعرف الصحيح أو النهائي. سوف يركز الكثيرون على جوانب مختلفة، في حين سوف يرفض تمامًا آخرون كثيرون «السمات الرئيسية» التي أطرحها. رغم ذلك، في رأيي، إن حقيقة أنك تقوم

بقراءة هذا معناه أن الوظيفة قد أنجزت. إنك تفكر ـ مثل الملايين في أرجاء العالم اليوم ـ في ماذا يكون المجتمع المدني، وفي رأيي، يأتي هذا التفكير والبحث عن المعرفة من حقيقة أننا نعيش في غمرة أزمة المجتمع المدني الناشئة عن تأثيرات العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. لذلك فإن قضاء بعض الوقت في قراءة التالي ـ وقراءة أشياء أخرى أيضًا، ويدرج كل هذا في نهاية هذا الفصل كمثال، أو أينما يقودك حدسك، وإحساسك حول الظلم أو الفضول.

إذن ما هو المجتمع المدني؟ تعريف معاصر لـ «ديڤيد هيلد» David Held يصف الفكرة بشكل واضح ومحدد. «هيلد» (1987: 281) يكتب:

> **يحتفظ المجتمع المدني بسمة مميزة إلى الحدود المكوّنة من مجالات الحياة الاجتماعية ـ العالم الداخلي، والميدان الاقتصادي، والأنشطة الثقافية، والتفاعل السياسي ـ التي يتم تنظيمها من خلال الترتيبات الخاصة أو التطوعية بين الأفراد والجماعات بعيدًا عن الرقابة المباشرة للدولة.**

إن هذه الفكرة الأساسية عن المجتمع المدني والدولة باعتبارهما ميدانين منفصلين تعتبر جديدة نسبيًا. على سبيل المثال، في «اليونان» و«روما» القديمتين كان الاهتمام مختلفًا. خلال ألفي عام مضت أرسى فيلسوف السياسة الروماني «شيشرون» Cicero ـ الذي تأثر بالفلسفة اليونانية الأولى حول طبيعة الدولة ـ ما أصبح التعريف التقليدي للمجتمع المدني. وفي كتابه «الجمهورية» De Republica (حول الجمهورية)، يبحث «شيشرون» في شكل الحياة في المجتمع المنظم. في كتاب «الجمهورية»، قام «شيشرون» بتعريف الجمهورية على أنها «خير المجتمع» أو المصلحة العامة. وتم تعريف «الشعب» على أنه «اتحاد جماعة من الناس من خلال إقرار عام بالحقوق ومن خلال مجموعة من المصالح» (من «أوجوستين» Augustine 1950: 699). ومن الواضح من كتابات «شيشرون» وآخرين، وبالمقارنة بالفهم المعاصر للمصطلح، لم يكن كل من الدولة والمجتمع المدني ميدانين منفصلين في الحياة. وكما يقول «كاپاريني» Caparini (2002: 2)،

> **رمَزَ المجتمع المدني [في عهد «شيشرون»] إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في مجتمع سياسي والذين أدوا أدوارهم العامة والاجتماعية لخدمة مصالح المجتمع**

السياسي. ومن خلال وجهة النظر هذه تشكل الدولة أداة للمجتمع المدني. وبشكل مماثل، شهد الفلاسفة الأوروبيون اللاحقون مثل «كانط» Kant، و«روسو» Rousseau، و«هوبيز» Hobbes أكثر أشكال التمييز أهمية بين المجتمع والدولة من حيث طبيعتها. كان ذلك فقط مع كتابات «باين» Paine، و«هيجل» Hegel، و«دي توكويفيل» de Tocqueville حيث فكرة الانفصال الضروري بين الدولة والمجتمع المنبثق منها.

(«كاباريني» 2002: 2، تأكيد إضافي)

إذن، فقد نبعت فكرة الفصل بين المجتمع المدني والدولة من ثورة القرن الثامن عشر في الفلسفة السياسية الديمقراطية التي ظهرت وانتشرت لتصبح في النهاية جزءًا مما أصبح معروفًا بـ «عصر التنوير». وفي هذا العصر تبدو الدولة نقيضًا لـ «الاتحاد الحر» أو «مصالح المجتمع». بدأت الدولة ترتبط بأشكال الاستبداد والتعصب التي نشأت خلال الحكم الملكي، أو الحكم الديني، أو عبر الحكومة القمعية (أو تواجد كل هذا في وقت واحد ـ مثلما حدث مع الأغلبية سيئة الحظ في «روسيا» قبل عام 1917). بقيت فكرة الميدانين المنفصلين، لكن مصطلح المجتمع المدني تم هجره في منتصف القرن التاسع عشر لأن الفلاسفة السياسيين حولوا اهتمامهم بشكل أكبر نحو العواقب الاجتماعية والسياسية للثورة الصناعية الجامحة (كاروثيرس Carothers 2000). وقد تم إحياء فكرة المجتمع المدني كقوة للحرية والتحرر من القمع في منتصف القرن العشرين من خلال كتابات الفيلسوف الماركسي «أنتونيو جرامسكي» Antonio Gramsci. كان «جرامسكي» يرى في كتاباته ـ التي جمعها بعد ذلك في كتاب «مذكرات السجن» Prison Notebooks (1971)، أن المجتمع المدني يمثل «الهيمنة» (أو الشكل المهذب للسيطرة») المنظمة. وكما يراها، فهو يمثل هيمنة الطبقة الرأسمالية على الطبقات العاملة وغرس وجهة النظر الرأسمالية العالمية في أذهانها. تعد تلك بصيرة بالغة الأهمية لدى «جرامسكي» لأن السيطرة يتم تنظيمها من داخل المجتمع المدني ذاته، أي أنه من خلال «الاتحاد الحر» للأفراد والمؤسسات ظاهريًا وخارج نطاق الدولة، تبدو أيديولوجيات الطبقة الحاكمة أقل قمعًا وأكثر مرونة تجاه ما أطلق عليه «التوافق التلقائي» (1971: 12).

وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين تضمنت أفكار «جرامسكي» تطبيقًا

عمليًا كطريقة لتصور كيف كانت كل من الهيمنة والقوة منظمتين عبر أنظمة الحكم القمعية في «أمريكا الجنوبية»، وأفريقيا، أوأي مكان آخر، وأيضًا كطريقة لتنظيم إستراتيجيات جناح اليسار المناهض للهيمنة ضد هذه الأنظمة. رغم ذلك، وخلال نفس الفترة في الغرب، كانت نظريات «جرامسكي» سائدة بالدرجة الأولى في الدوائر الفكرية والأكاديمية كأطر عمل لفهم كيف كان كل من القوة، والتوافق، والهيمنة منظمين وثابتين في الديمقراطيات الليبرالية الرأسمالية. كانت هذه الصفة الأكاديمية للجدل حول الهيمنة في الغرب مقياسًا لنجاحها بالنسبة لحكم الدولة الرأسمالية.

إذن، تعد الفكرة الحديثة للمجتمع المدني هي تلك الفكرة التي تشمل نطاقًا كاملًا من الميادين غير الحكومية مثل الأنشطة الثقافية، والإعلام، والحياة العائلية، والجمعيات المحترفة والجمعيات الهاوية، والسوق، أي تقريبًا في أي ميدان للحياة حيث يمكن للناس أن يعملوا بحرية دون عرقلة أو تدخل من الدولة والأجهزة الإدارية الحكومية. ورغم ذلك، يمكن أن يكون هناك تفاعل بين الاثنين، حيث إنه من خلال كثير من الطرق الماهرة وغير الماهرة يمكن أن يؤثر المجتمع المدني على الدولة والعكس صحيح. والمهم هنا، كما يوضح «جرامسكي»، أن التأثير ليس مباشرًا أو قمعيًّا بصورة علنية. وأصبحت نظرية «جرامسكي» عن «الهيمنة» مفيدة خاصةً في فهم طبيعة هذا التفاعل داخل المجتمعات الرأسمالية. ووفقًا لذلك، يتمثل السبب الرئيسي لفكرة أن المجتمع المدني أصبح غير واضح تاريخيًّا هو أن هذين الميدانين (المجتمع المدني والدولة) يمكن أن يظهرا بصورة غير واضحة خلال كثير من الوقت، لتصبح تلك قضية فقط أثناء فترات الثورة والأزمة الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو السياسية.

شهدت ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين مثل هذه الأزمة في الديمقراطيات الليبرالية في الغرب ـ وإحياء الاهتمام (نظريًّا وعمليًّا) حيث يكون ويعمل المجتمع المدني. وعند جذورها، كما رأينا في الفصول السابقة، كانت الأزمة الاقتصادية لـ «الفوردية» Fordism التي أدت إلى نشوء الثورات الاجتماعية والسياسية مثل تطبيق «إصلاح» الليبرالية الجديدة. ويتمثل ما أتت به هذه الفترة في التضافر المثير (وربما غير المسبوق) من خلال العلاقة الطويلة بين المجتمع المدني والدولة. وقد مدت الرابطة بين العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال نظرية وممارسات السوق ليس فقط نحو الكثير من المجالات الأخرى في

المجتمع المدني ـ لكنها تغلغلت داخل الدولة نفسها. وبناء على ذلك، هذه السيطرة المتنامية من قِبل عنصر واحد للمجتمع المدني يبدأ، من جهة واحدة، في التطابق مع الفكرة التقليدية للدولة باعتبارها «أداة» للمجتمع المدني ـ وإن كان من خلال جانب قوي وضيق للغاية وغير متكافئ في المجتمع المدني: السوق. ومنطق السوق، من خلال تنامي الهيمنة عبر الدولة وباقي المجتمع، «غزو العام من قِبل الخاص» كما تطلق «كلاين» Klein على ذلك (2002: xx)، تهميش أو غزو لهذه القطاعات غير السوقية التي تضفي على المجتمع المدني تنوعه وطابعه التعددي، أو ما يطلق عليه «هيلد» «سمته المميزة».

وهكذا، لا تتحول فقط الكثير من الميادين الأخرى في المجتمع المدني إلى سلعة من خلال العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال، لكن أصبحت الدولة أيضًا «أسيرة» لمنطقها. ويؤكد كل من خصخصة المنافع العامة، وتعيين الموظفين الحكوميين بعقود تجارية، والمطالبة الدائمة من السياسيين ومن «تاتشر» Thatcher، و«ريجان» Reagan بأن الدولة لا بد أن تقوم بالإدارة «بشكل فعال» مثلما أدى العمل التجاري في السوق إلى تغيير طبيعة الدولة بطرق غير مسبوقة.

وقد كان الناشط الاجتماعي البريطاني «چورچ مونبيوت» George Monbiot واضحًا فيما يتعلق بمدى هذا الغزو. عندما يشير في كتابه «الدولة الأسيرة» Captive State (2000: 4-5):

> وتطيح بنا الشركات، والأجهزة الحديثة المعقدة التي قمنا باختراعها لخدمتنا. فهي تحتل القوى التي كانت مستثمرة في الحكومة سابقًا، وتستخدمها في قلب الحياة العامة لتلائم أهدافها الخاصة ... أصبحت مؤن المستشفيات، والطرق، والسجون في «بريطانيا» تصمم بشكل مقصود لتلبية متطلبات التعاون بدلًا من الحاجة العامة ... إن برنامج التجديد الحضري أصبح غير صالح لخدمة مصالح الشركات الخاصة ويقدم ترخيص التخطيط للبيع بأعلى سعر.

ويستمر السرد المطول عن غزو الدولة من قِبل السوق، في شكل:

> ... المسؤولية المشتركة في الجامعات البريطانيه، والتحريفات الناتجة من الأبحاث وجداول الأعمال التعليمية ... المسؤولية المشتركة للمدارس، وإهمال

التأكيد على الصحة والسلامة وتحرير التجارة مع التنظيم المتزايد للمواطن ... لا بد أن تسيطر الشركات على عمليات اتخاذ القرار داخل «الاتحاد الأوروبي»، مع تشجيع الحكومة البريطانية، التي [بدأت] في تطوير سوق مستقلة عابرة للقارات، يتحكم فيها ويديرها المديرون التنفيذيون المساهمون.

بينما يركز «مونبيوت» على إلحاق الحكومة البريطانية من قِبل الرأسمالية العالمية، وقد قدمت لنا «ناعومي كلاين» Naomi Klein، في كتابها «بدون شعار» No Logo الذي حقق نجاحًا هائلًا، وجهة نظر أوسع أفقًا عن مذهب السلعية في باقي العالم من خلال العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال. ويعد كل من المجتمع المدني والدولة الآن موجهين نحو مبادئ الأسواق الحرة، والبيع، والربح، والاستهلاك ويخضعان لها. يعرض «بدون شعار» كيف أن العالم أصبح «شبكة من العلامات التجارية» حيث إنه في حضانة الأطفال، وفي المدرسة، وفي التليفزيون، وفي الجامعة، وفي الشارع، وفي كل مكان تقريبًا نتوجه إليه، نالت العمليات المرتبطة بالمذهب السلعي تلك المساحة التي نراها أمامنا، واحتلتها، والآن تريد أن تبيعها مرة أخرى لنا. وهذا قد ترك لنا ـ طبقًا للموضوعات الخاصة بالرأسمالية في كتاب «كلاين»: لا مكان، ولا اختيار، ولا وظائف. ويتمثل البديل لكل هذا ـ ويشمل هذا القسم الأخير من كتابها ـ في «لا شعار» ـ القوى المحركة الناشئة التي سوف نتناقش بشأنها باختصار.

وهناك تأثير سيء لغزو المجتمع المدني من قِبل العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال يمثل انحدارًا في المشاركة في العملية السياسية. وستكون الأعراض ملحوظة للكثيرين في الديمقراطيات الليبرالية الغربية. ولا يحتاج الشباب بشكل خاص إلى إظهار النقص في الإيمان بالعملية السياسية من خلال عدم شغل أنفسهم بالتصويت في فترة الانتخابات. ويبدو القلق أكثر حدة في ذلك الصرح المصمم ذاتيًا للحرية والديمقراطية، «الولايات المتحدة». وفي عام 1996 انخفض معدل المشاركة الانتخابية في تلك الدولة إلى أقل من 50 في المائة، وكانت المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك الانخفاض منذ عام 1924، وثاني أكثر معدل انخفاض كان منذ عام 1824. وقد أصبح هناك هبوط ثابت منذ بداية سبعينيات القرن العشرين وتمثل هذه الفترة أطول وأكبر انحدار في المشاركة الانتخابية في تاريخ «الولايات

المتحدة». وقد أظهر بحث أجرته «لجنة دراسة الناخبين الأمريكيين» (CSAE) أنه خلال الثلاثين عامًا الأخيرة انخفض إضراب الناخبين بشكل كبير، مما ينتج مجموعة من الانخفاضات التاريخية (أندرسون 2000 Anderson). ويركز هذا الاهتمام على الأحزاب السياسية التي تريد أن تخرج الشعب يوم الاقتراع (يوم الاقتراع فقط) وبالتالي أصبح «الحث على التسجيل» سمة للانتخابات الأخيرة في «الولايات المتحدة».

هناك اتجاه مشابه في «بريطانيا». فعلى سبيل المثال، تمت إعادة الانتخابات «الفائزة بأغلبية كبيرة» لـ «حزب العمال الجديد» برئاسة «توني بلير» Tony Blair بـ «تفويض» من 25 في المائة فقط من أربعة وأربعين مليون شخص من الذين لهم حق التصويت. ويترجم هذا على أنه 42 في المائة من إجمالي الأصوات، أي أحد عشر مليون صوت تقريبًا، وفي الحقيقة فإنه أقل عدد قام بالاقتراع لحزب فائز منذ عام 1929. وكان ذلك انتصارًا لـ «حزب ستاي آت هوم» Stay at Home Party، وفقًا لرأي المحلل السياسي لـ «دايلي ميل» Daily Mail، «إدوارد هيثكوت آموري» Edward Heathcoat Amory. وكما كتب «ريتشارد هيفرنان» Richard Heffernan في تحليله لانتخابات عام 2001 «إن هذا الانخفاض الملحوظ في النسبة عام 2001 ربما يعكس ارتفاع مخاصمة الناخبين للتصويت أو ببساطة اللامبالاة الواضحة للعملية السياسية» (هيفرنان 2002). علاوة على ذلك، يؤكد مسح بعد آخر الاستخفاف العام و/ أو الفتور تجاه العملية السياسية والسياسيين المتسببين في حدوث هذا. ولم يصب هذا الاستخفاف المصوتين فقط، لكنه أصاب أيضًا المعلقين على العملية، حيث إنه استخفاف يضاف غالبًا إلى الاستخفاف اللاذع المتعلق بـ «التفويض» الديمقراطي للحكومات المنتخبة من خلال الأقلية من الناخبين. وكما يلاحظ «توم نيرن» Tom Nairn في كتابه « المنبوذ» Pariah (2002)، تمت «إعادة انتخاب» «حزب العمال» في عام 2001 من قِبل مجموعة ساحقة لجمهور الناخبين في «المملكة المتحدة».

والنتيجة الطبيعية للامبالاة التي تواجهها السياسة المؤسسية تتمثل في انخفاض ما يسميه «هيلد» Held (1986: 281) «الترتيبات الخاصة أو التطوعية بين الأفراد والجماعات خارج السيطرة المباشرة للدولة». وهذه «الترتيبات» في الكثير من الأشكال هي ما يشكل قوام حياة المجتمع المدني ويكوّن «رأس المال الاجتماعي» الذي يمكن أن يجعل المجتمع المدني نشطًا

ومتنوعًا. وكما يذكر «مانفريد بي. ستيجر» Manfred B. Steger، والسبب الرئيسي لما يطلق عليه «روبرت بوتنام» Robert Putnam في كتابه «لعب البولينج دون خصم» Bowling Alone (2000) «قتل الترابط الوطني» يتمثل في «... مبدأ الكسب التجاري المفرط والتأثيرات المدمرة اجتماعيًا التي أُطلق لها العنان من قِبل الرأسمالية الليبرالية الجديدة» (2002: 276). وتتمثل الفكرة الرئيسة لمقال «ستيجر» في الاهتمام بقضية «بوتنام» بعدم إعطاء أي تأكيد على تأثيرات الليبرالية الجديدة. فهو لديه هدف جيد للغاية، كما يوضح المغزى الأساسي لرأيي الممتد عبر هذا الكتاب. ورغم ذلك، أعتقد أن «ستيجر» نفسه يغفل ما يتضمن الثورة النشطة، التي بدونها ظلت الليبرالية الجديدة وهمًا في جناح اليمين: ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. ولا يمكن للعولمة ببساطة ـ في تخطيطها لتقليص الوقت والزمن من أجل الفائدة العظمى على الربح ـ أن تحدث عند معدل الكثافة والامتداد الذي تحقق دون تأثيرات «تمكينية» لتكنولوجيات المعلومات والاتصال.

وكان احتلال مساحات كبيرة من المجتمع المدني والدولة، دون الحاجة إلى القول، له تأثير عميق على «اليسار» عبر العالم. وكما كتب «سلافوج زيزيك» Slavoj Žižek (2002: 13)، «يعاني اليسار من خبرة مشتتة: الحركة التقدمية مرغمة على إعادة ابتكار مشروعها بالكامل.» وقد احتُلت إما كليًا أو جزئيًا تلك المجالات «القديمة» التي كانت تعمل من خلالها القوى التقدمية داخل المجتمع المدني، والمجالات السياسية حيث احتمالية تهميش تطوير وتنظيم الإصلاح أو الثورة و/ أو تركهما ينهاران داخليًا. وقد أدرك الكثيرون هذا وبالتالي كان إعادة التنظيم و«إعادة الابتكار» ويقول «زيزيك» بأن هذا يحدث اليوم، وأصبح مستمرًا منذ بداية التسعينيات من القرن العشرين على الأقل. وقد أكد هذا التمزقات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية التي نبعت من ليبرالية جديدة مهيمنة ويكون الدافع من أجل سياسة جديدة ومن أجل أشكال محددة للنظام السياسي الذي يمكنه أن يصلح مجتمعًا مدنيًا متحررًا من سيطرة الرأسمالية الليبرالية الجديدة.

نحن فقط في بداية عملية إعادة الابتكار، وبالتالي أود أن أستغرق بعض الوقت في القسم التالي في تتبع حدود السياسة الجديدة الناشئة. وبشكل أكثر دقة، أود أن ألقي نظرة على اتحاد ثورة التعويم الحر التي أصبح يُطلق عليها «الحركة المضادة للعولمة» من قِبل الصحافة الرئيسية.

حركة سياسية عالمية بسبب عصر العولمة

وبالحديث عن الجانب السياسي، فقد كنا هنا من قبل - حيث يمكننا القول، إننا شهدنا حركة تتطور عبر أرجاء العالم من خلال ذوبان رأس المال الاجتماعي في أوج ازدهار الأسواق التنافسية الحرة. إن مرحلة رأسمالية السوق الحر التي تقوم على عدم التدخل الحكومي والتي كانت مهيمنة في «بريطانيا» خلال القرن التاسع عشر قد أضعفت العلاقات الاجتماعية المعقدة التي تطورت خلال مئات السنين. وكما يذكر «ستيجر» (2002: 267)، هذا:

> ... ترك القطاعات الأكبر دائمًا من السكان البريطانيين دون نظام ملائم للأمن الاجتماعي والتدعيم الجماهيري. إن معظم الناس الذين مروا بهذه القوى المحركة للسوق الحر قد أحسوا بشعور قوي من الاستبعاد والانعزال اللذين ساهما في انخفاض الترابط الوطني وإضعاف الرابطة الاجتماعية.

هذا التغير وهذا الشكل العنيف والشرس من الرأسمالية، اللذان أنتجا أول مرحلة من الإمبريالية، قد أجبرا الناس في النهاية على المقاومة والتنظيم. وأدى هذا إلى تكوين النقابات التجارية والأحزاب السياسية التي سعت إلى حماية حقوق العمال وإصلاح الجوانب الأسوأ في نظام التدخل الحكومي - أو محاولة قلب هذا النظام تمامًا. وبناء على ذلك، أصبح الاتجاه في أنحاء العالم إلى إنشاء نقابات تجارية وأحزاب ديمقراطية اجتماعية (وأخيرًا محافظة) يمثل توازنًا لقوى الفوضى الاجتماعية والاستغلال المفرط اللذين نتجا عن الرأسمالية وما تبعها من أجهزتها الخاصة. وقد تطور هذا الشكل من الحركة الاجتماعية ونما وتوطد، وفي النهاية توقف خلال الفترة منذ حوالي الخمسينيات من القرن التاسع عشر حتى السبعينيات من القرن العشرين (وولرشتاين Wallerstein 2002: 29).

كان هذا النفوذ التاريخي الموازن للرأسمالية الحرة مفسدًا لنهوض الليبرالية الجديدة ومهمتها في إعادة تقديم نظام للتدخل الحكومي. وقد استغرق ذلك عقدًا تقريبًا من الليبرالية الجديدة وسياساتها في إعادة الهيكلة الاقتصادية عبر خطوط السوق الحر لجلب المقاومة العالمية لما يشابه الكتلة الحرجة. وبالتالي فقد شهد عقد التسعينيات من القرن العشرين اهتمامًا متزايدًا بفكرة ومضمون المجتمع المدني. وكانت عملية «إعادة النهضة» تواجه رفضًا من الآليات «القديمة»

للسياسات المؤسسية الحزبية التي بدت غير قادرة (أو في الكثير من الحالات غير مستعدة) على التوقف أو مقاومة انقضاض الليبرالية الجديدة التي كانت مكتسحة في أرجاء العالم.

حاول المفكرون الكبار مثل «أنتوني جيدينز» Anthony Giddens والسياسيون مثل «توني بلير» Tony Blair و«بيل كلينتون» Bill Clinton استغلال هذا الاستياء المتزايد عبر ظهور ما جاء ليعرف بـ «الطريقة الثالثة» Third Way (جيدينز b1999). كانت الفكرة تتمثل في جعل اقتصاد السوق أقل ضراوة، وإعطائه بعدًا «اجتماعيًّا ديمقراطيًّا» يعمل على تحسين أسوأ الجوانب إفراطًا للرأسمالية. ورغم ذلك، أدرك الكثيرون على الفور أن «الطريقة الثالثة» ـ خاصة كما تصورها «بلير»، و«كلينتون»، والسياسيون المؤيدون ـ قد ابتعدت عن المبادئ الرئيسية لليبرالية الجديدة. فعلى سبيل المثال، بدت الحلقة المستمرة لاتفاقيات التجارة الحرة التي تم تصميمها لفصل كل ميدان في كل اقتصاد ـ رغم عدم قدرتها على مواجهة المنافسة العالمية ـ كشيء مقدس. وبشكل مشابه، فإن الأدوات متعددة الجوانب للعولمة الليبرالية الجديدة مثل «منظمة التجارة العالمية» (WTO)، و«البنك الدولي»، و«صندوق النقد الدولي» (IMF) لم تكن مهددة من قِبل سياسات «الطريقة الثالثة». ولم يكن أيضًا سوق الأوراق المالية منزعجًا من فكر «الطريقة الثالثة»، و«نظام تقني اقتصادي» ـ كما يطلق عليه «كاستيلز» ـ والذي تم تأسيسه بطريقة «تسمح بإعادة التوزيع الجغرافي للاستثمار لذلك ـ بينما [ربما] تعاني الاقتصاديات ـ لا تفعل معظم الاستثمارات العالمية» (2000: 60). إن رفض مؤيدي «الطريقة الثالثة» لتحدي ما كان ينظر إليه على أنه أكثر الجوانب تدميرًا من النواحي الاجتماعية، والبيئية، والثقافية لليبرالية الجديدة كان يعني أن معظم الناس المستبعدين من قِبل الليبرالية الجديدة، يرون أن «الطريقة الثالثة» لم تقدم أي شيء.

وإذا لم يقض أحدهم الأعوام العشرين الأخيرة في قراءة « ذا إكونوميست» The Economist و«وول ستريت جورنال» Wall Street Journal فقط، وشاهد فقط «بيج براذر» Big Brother في التليفزيون ولم يعرف شيئًا أكثر من التشكيك في عروض «هوليوود» في السينما، ثم إدراك وفهم الآثار السلبية لـ «النظام الاقتصادي التقني» لليبرالية الجديدة على الأقل عند مستوى من الاستيعاب. وبشكل متزايد، تتحول فكرة أننا نعيش في عالم غير مؤكد، وغير عادل، ومعقد إلى دليل. وعلى الجبهة الجغرافية السياسية، تعاني «الأمم المتحدة» من أزمة عميقة حول

الهوية والشرعية. وفي عالم أحادي القطب، حيث تحاول «الولايات المتحدة» فرض سيطرتها الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ويوجد انعدام الأمن عند مستويات لم يشهد مثلها منذ الثلاثينيات من القرن العشرين. وعلى الجبهة الاقتصادية ـ كما كتبت ـ فقد انهارت «الأرجنتين» بسبب الأزمة الاقتصادية والاجتماعية حيث تعرض الملايين للفقر والبطالة. وتستمر الانهيارات المجتمعية مع «إنرون» Enron، و«وورلد كوم» World Com لتكون فقط الأكثر إذهالًا في السنوات الأخيرة، مع التعتيم، من ناحية مجال الإعلام، على الكثير من الآخرين الذين تعرفوا على الأرجح (وبشكل كبير) على موظفيهم السابقين ودائنيهم. ويزداد الدليل يوميًّا ويكون متاحًا لتلك الأعداد المتزايدة من الذين يتساءلون عما يحدث. لا بد أن أصل إلى حد الغثيان، عند إضافة الكوارث الضخمة والصغيرة التي أصابت الليبرالية الجديدة خلال العقدين الأخيرين إلى القائمة. وبدلًا من ذلك، سوف أدع ذلك لأعضاء ما يطلق عليه المؤلفون ذاتهم «المجتمع المدني العالمي» (المصطلح الأكثر دقة كثيرًا من عنوان «الحركة المضادة للعولمة»، كما سوف نرى) لتوضيح الخسائر السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والبيئية لإساءة حكم الليبرالية الجديدة. وتسمى الجماعة «المنتدى الدولي حول العولمة»، وفي عام 2002 نشرت كتابًا بعنوان «البدائل وفقًا للعولمة الاقتصادية» Alternatives to Economic Globalization (كافاناف وآخرون Cavanagh. 2002). وقد كتبوا فيه:

> وتصدر «منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة» (الفاو) تقريرًا بأن عدد الجوعى في العالم كما سُجل تاريخيًّا قد انخفض تدريجيًّا خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين لكنه ازداد منذ بداية التسعينيات من القرن العشرين. وتقدر «وزارة الزراعة» بالولايات المتحدة أنه بحلول عام 2008 سوف يعاني ثلثا السكان في «أفريقيا السوداء» من سوء التغذية، وسوف يتعرض 40 في المائة من سكان آسيا لسوء التغذية.
>
> وفي عالم يتمتع فيه القليلون بثروات لا يمكن تصورها، يعاني مائتا مليون طفل تحت سن الخامسة من انخفاض الوزن عن المعدل الطبيعي بسبب نقص الغذاء. ويموت مائة مليون طفل كل عام من الأمراض المرتبطة بنقص الغذاء. ويعيش مائة مليون طفل أو يعمل في الشارع. وكان قد تم تجنيد مائة ألف طفل

خلال التسعينيات من القرن العشرين، وأصيب ستة ملايين في صراعات مسلحة. ويذهب ثمانمائة مليون شخص إلى الفراش كل ليلة وهو يعاني من الجوع.

لم تقتصر هذه المأساة الإنسانية على البلدان الفقيرة فقط. ففي دولة غنية مثل «الولايات المتحدة»، يعاني الآن 6.1 مليون شخص بالغ و3.3 مليون طفل من الجوع. ولا تحصل حوالي 10 في المائة من العائلات في «الولايات المتحدة»، بما يعادل 31 مليون شخص، على الغذاء الكافي لإشباع احتياجاتهم الأساسية. وهذا يعبر عن القليل من المؤشرات الكثيرة للأزمة الاجتماعية العالمية العميقة.

وعلى الجانب البيئي، صدرت دراسة في سبتمبر عام 2000 من «برنامج التطوير التابع للأمم المتحدة» (UNDB)، و«البرنامج البيئي التابع للأمم المتحدة» (UNEP)، و«البنك الدولي»، و«معهد الموارد العالمية» قدرت خمسة نماذج للنظام البيئي ـ زراعية، وساحلية، وغابات، ومياه عذبة، ومناطق عشبية ـ تتعلق بخمس خدمات للنظام البيئي ـ الغذاء، وإنتاج الألياف، وكمية المياه، ونقاء الهواء، والتنوع البيولوجي، واحتياطي الكربون. وقد اكتشفت أن هذه التركيبات الخمس والعشرين من (النظام البيئي ـ الخدمة)، يوجد ستة عشر اتجاهًا في حالة انحدار. وكان الاتجاه الإيجابي الوحيد يتمثل في الغذاء وإنتاج الألياف من خلال الأنظمة البيئية للغابات، والذي تحقق على حساب تنوع الفصائل.

وتم تقدير النشاط الإنساني ـ احتراق الفحم بوجه خاص ـ بأنه أدى إلى زيادة تركيزات الغلاف الجوي من ثاني أكسيد الكربون إلى أعلى مستوياته خلال عشرين مليون سنة. ووفقًا لتقرير «معهد المراقبة العالمية» WorldWatch Institute ـ المنظمة البيئية ـ فقد أثرت الكوارث الطبيعية، متضمنة الكوارث المتعلقة بالجو مثل العواصف، والفيضانات، والحرائق، على أكثر من بليوني شخص وسببت في زيادة الخسائر الاقتصادية في أنحاء العالم بما يقدر بـ 608 بلايين دولار أمريكي خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين ـ أكثر من العقود الأربعة الماضية. وكان ثلاث مائة مليون شخص قد تم ترحيلهم من أوطانهم أو أجبروا على تغيير مكان إقامتهم بسبب الظروف المناخية القاسية في عام 1998 فقط.

وأصبحت هناك ضرورة أكبر لإعادة التفكير في الأولويات والمؤسسات الإنسانية في الوقت الحاضر. حتى أن معظم المهتمين بالعولمة المتحدين يكررون - باستنكار شديد - عبارتهم بأنه مع الوقت والصبر سوف تخلق العولمة المتحدة الثروة المطلوبة لحماية البيئة والقضاء على الفقر.

(كاڤاناف وآخرون 2002: 6-7)

ومنذ بداية التسعينيات من القرن العشرين رفض المزيد والمزيد من الناس بشكل واضح تصديق العبارة المتكررة لمدة أطول. وبشكل ملحوظ، يبدؤون أيضًا في إدراك أن العولمة ذاتها تقدم وسائل لمقاومتها. ويبدأ الآن الأفراد، والجماعات، والمجتمعات في تجربة «الحوسبة في كل مكان» بطرق تسير ضد دورها المستهدف تحت مظلة الليبرالية الجديدة.

قدمت «قمة الأرض في ريو» Rio Earth Summit التي رعتها «الأمم المتحدة» عام 1992 المثال الإيجائي حول كيفية عمل تكنولوچيات المعلومات والاتصال على إنماء شبكات المنظمات غير الحكومية (NGO) في أنحاء العالم. وكان قد تم تسجيل أكثر من ألف «منظمة غير حكومية» في ما يسمى بـ «المنتدى العالمي» Global Forum الذي انعقد بالتوازي مع انعقاد القمة. وتجمع حوالي خمسة وثلاثين ألفًا من وفود «المنظمات غير الحكومية» للتعبير عن اهتماماتها البيئية والاجتماعية لقادة العالم في القمة وإلى الإعلام العالمي الذي كان يقوم بتغطية ذلك. وقد شهد «المنتدى العالمي» أول استخدام ضخم لتكنولوچيات المعلومات والاتصال من أجل الاتصال المتبادل وإقامة الشبكات مثل الاجتماع الضخم الذي يُمكِن الوفود من المشاركة في المعلومات بشكل سريع، والمناقشة، وتصميم جداول الأعمال، والتخطيط لإستراتيچيات المستقبل. وكما ذكر «شيلي بريستون» Shelly Preston (1994)، «هذه الخدمات الخاصة بتبادل المعلومات الموجودة على الموقع تعد عملية غير مسبوقة». وكان توزيع إحدى الوثائق بين الوفود بعنوان «اتصالات الحاسب الآلي، والتكنولوچيا البديلة من أجل الاتصال والمشاركة من قِبل المنظمات غير الحكومية Computer Communications and Alternative Technology for Communication and Participation by NGOs» (1992) يمثل الكتابات التمهيدية حول تكنولوچيات المعلومات والاتصال وأهميتها بالنسبة للمنظمات غير الحكومية. واستمر «بريستون» في كتابة أن «واحدة من أهم الوثائق المنبثقة عن «المنتدى العالمي» كانت معاهدة الاتصال، والمعلومات، والإعلام،

وإنشاء الشبكات، التي تعلن عن حق الاتصال كحق إنساني أساسي» (بريستون 1994). انتشرت بسرعة عبارة نجاح «التجربة» في «ريو» بينما انتشرت وفود الرابطة الوطنية عبر العالم، وأثارت اشمئزاز القمة الرسمية، وأثارت حماس الإمكانيات المتأصلة في تكنولوجيات المعلومات والاتصال من أجل بناء مجتمع مدني بديل. ولم تستغرق الرسالة طويلًا لانتشارها. وكما علق مؤخرًا «جون إي. يانج» John E. Young في «معهد المراقبة العالمية»، «كما في منتصف عام 1993، [كان] آلاف النشطاء والمنظمات في مجال البيئة حول العالم يستخدمون شبكات الحاسب الآلي التجارية وغير الهادفة للربح لتنسيق الحملات، وتبادل الأخبار، والحصول على تفاصيل اقتراحات الحكومات والمنظمات الدولية» (1993: 21).

في عام 1994، ظهرت أهمية تكنولوجيات المعلومات والاتصال لإدارة العمل المباشر والصراع العلني السياسي والأيديولوجي من خلال متمردي «زاپاتيستا» Zapatista في إقليم «شياپاس» Chiapas في «المكسيك». تصاعدت حركة «زاپاتيستا» لتمثل حقوق العمال والقرويين المحليين في إقليم «شياپاس» الذين شعروا بأن الليبرالية الجديدة المتمثلة في «اتفاقية التجارة الحرة بأمريكا الشمالية» (NAFTA) كانت تقضي على ثقافتهم، وبيئتهم، واقتصادهم. لم تكن من أجل الاستخدام المجدد لتكنولوجيات المعلومات والاتصال من قِبل زعيمهم «مساعد القائد ماركوس» في تدعيم كفاحهم ضد الحكومة والجيش الماركسيين، ثم ظلت حركة «زاپاتيستا» ثورة مستترة وهادئة، لكنها بلا شك كانت قاسية، وساحقة. ورغم ذلك، كانت الحركة على اتصال سريع بالجماعات والحركات المؤيدة حول العالم وذلك من خلال الفاكس، والحاسب المحمول، والبريد الإلكتروني، والإنترنت. وكان قد تم تناول صراع «زاپاتيستا» (خاصة فيما يتعلق باستخدامها المبتكر لتكنولوجيات المعلومات والاتصال كسلاح) من قِبل أقسام الإعلام وأصبحت قضية معروفة في الكفاح ضد أسوأ جوانب العولمة الليبرالية الجديدة. في يوليو عام 1996، وفي عرض جريء للتضامن الدولي ـ تجمع أكثر من 3000 ناشط من 40 دولة حول العالم في «شياپاس» للمساهمة فيما عرف بـ «التجمع العالمي الأول من أجل البشرية والمناهض لليبرالية الجديدة» (فلوود Flood 1996). طالبت الوفود في هذا التجمع بإنشاء «الشبكة العالمية للاتصال البديل». وكان متحدثهم الرسمي «مساعد القائد ماركوس»، الذي نقل تصريحه «ليل» Leal (2000: 7):

> دعونا نبدأ شبكة اتصالات بين كل أشكال صراعاتنا، شبكة دولية للاتصال ضد الليبرالية الجديدة، شبكة دولية من أجل البشرية. سوف تسعى هذه الشبكة الدولية إلى ربط قنوات رسائلنا وكل طرق مقاومتنا معًا. سوف تكون هذه الشبكة الدولية وسيلة سوف تتصل من خلالها المجالات المختلفة للمقاومة. ولن تكون الشبكة الدولية هيكلًا منظمًا، فلن يكون لديها رئيسًا، أو رقابة مركزية، أو أية سلطة. سوف تكون الشبكة متحدثًا ومنصتًا لنا جميعًا.

وخلال هذه الفترة، بدأت تتبلور «الحركة المضادة للعولمة». وكانت تقوم وقتها جماعات مختلفة من أنحاء العالم بالاتصال، والمشاركة في الأفكار، وتحفيز بعضهم البعض لتنظيم ووضع إستراتيجيات على المستويين المحلي والعالمي. وشهدت الفترة الأخيرة من تسعينيات القرن العشرين الكثير من الحركات التي تتطور وتتصل، وتنفصل، وتتنامى بشكل كبير أو تتلاشى خلال شبكة غير منظمة وممتدة في المجتمع المدني البديل. وهي ترى الليبرالية الجديدة كعدو وتتمثل أسلحتها المختارة في الأفكار، والمعارضة، والاتصال، والمعلومات. ومن أجل التأكيد، لم تكن «الحركة المضادة للعولمة» تشمل فقط فكرًا واحدًا أو أيديولوجية واحدة. فقد كانت مليئة بالمتمردين ضد السلطة، وعلماء الاجتماع، وأعضاء النقابات التجارية، والمزارعين، وأصحاب الدخول المحدودة، والطلاب، والمفكرين، وعلماء البيئة، وآخرين. ورغم ذلك، فإن الشعور المشترك بانهيار النظام الاقتصادي هو ما جمعهم سويًا، معًا النظام الذي بدا أنه يسير في اتجاه مصالح الشركات الكبرى أولًا، مع «الاهتمام الضئيل» بباقي البشرية. بدأت هذه الجماعات أيضًا في التركيز على ما ظهر كمنظمات وشركات ترمز إلى الظلم الاقتصادي العالمي مثل المنتدى الاقتصادي العالمي (WEF)، ومنظمة التجارة العالمية (WTO)، وصندوق النقد الدولي (IMF)، و«البنك الدولي» ـ وما شابه ذلك في القطاع الخاص مثل «ماكدونالدز»، أو «بوردرز»، أو «جاب»، أو «نايك»، أو «شيل أويل». وكان من المستحيل أن يتم هذا النشاط المشترك بين الكثير جدًا من الجماعات المتباينة دون إتاحة الاتصال المتبادل من خلال تكنولوجيات المعلومات والاتصال عبر مواقع مثل www.indymedia.org ـ ومن خلال انخفاض تكاليف الانتقال البدني ـ وهو تأثير آخر للعولمة الليبرالية الجديدة الذي استخدم ضدها بعد ذلك.

وقد حددت التجارب في اجتماع «منظمة التجارة العالمية» في «سياتل» Seattle عام 1999 مرحلة جديدة في تطوير سياسة تلائم عصر العولمة. وتم تقدير 50,000 شخص تجمعوا لمدة أسبوع من الاجتماعات، والاحتجاجات، والمعارك مع شرطة مكافحة الشغب المسلحة بالغازات المسيلة للدموع، والرصاص المطاطي، والهراوات. ونجح المعارضون في جذب كل الاهتمام تقريبًا من العمل «الحقيقي» لمنظمة التجارة العالمية، والذي انتهى بمستوى أقل من المتوقع، ودون بيان رسمي أو قائمة أو جدول أعمال بخصوص المزيد من المحادثات. هذا المستوى غير المشهود من تعطل العمل «الشرعي» لعولمة الليبرالية الجديدة قد أخذ المسؤولين على حين غرة. وكان تقريبًا كل السياسيين، والمسؤولين في منظمة التجارة العالمية، وأصحاب الأعمال، وكذلك غالبية وسائل الإعلام الرئيسية يمثلون كتلة واحدة في تصنيف المعارضين كمناهضين للتجارة، أو مناهضين للمؤسسة التجارية، أو يبدون من خلال كل ذلك مناهضين للعولمة.

ورغم ذلك، وكما كتبت «ناعومي كلاين» Naomi Klein (2002: 3–6) في ذلك الوقت مقالًا نشر في «نيويورك تايمز» New York Times:

> تعد هذه أول حركة سياسية تتولد من الطرق الفوضوية للإنترنت. وداخل درجاتها، لا توجد سلطة ذات مراتب عليا ودنيا مستعدة لتوضيح الخطة الرئيسية، فلا يوجد قادة معروفون عالميًا يظهرون اهتمامًا، ولا يعرف أحد ماذا سيحدث فيما بعد. لكن الشيء الوحيد المؤكد: لم يعد المعارضون في «سياتل» ضد العولمة، فقد أصبحوا مهتمين للغاية بالعولمة بالتأكيد مثل المحامين التجاريين داخل الاجتماع الرسمي. وإذا كانت هذه الحركة الجديدة «ضد» أي شيء، فإنها ضد المشاركة، حيث الاعتراض على منطق أن ما هو جيد بالنسبة للأعمال التجارية ـ الأقل تنظيمًا، والأكثر تغيرًا، والأكثر احتواءً للمشكلات ـ فهو سوف يتحول تدريجيًا إلى أخبار جيدة بالنسبة لأي شخص آخر ... إن المواجهة ليست بين أنصار العولمة وأنصار وضع قيود على التجارة، لكنها بين رؤيتين مختلفتين كليًا حول العولمة. واحدة كانت تؤيد الاحتكار خلال السنوات العشر الماضية. والأخرى كان لديها حزبها الناشئ.

بعيدًا عن انتهاء «الحزب» في بدايته، وقبل أن يحدث الكثير من الضجة والإزعاج - كما تمنى السياسيون، وأصحاب الأعمال، والمحللون في وسائل الإعلام الرئيسية - نما الحزب بشكل واضح وواصل طريقه. أصبح أكبر، وأكثر شمولًا، وأصبح يعقد اجتماعاته في أماكن مختلفة حول العالم، أي مكان يتفق عليه رموز الليبرالية الجديدة مثل منظمة التجارة العالمية أو البنك الدولي أو المنتدى الاقتصادي العالمي. كانت الدلالة على إنذار حركة «مناهضة العولمة» بدأت تدعو في أوساط النخبة إلى أن سياسيين متنوعين، وصحفيين من جناح اليمين، وآخرين قد حاولوا ربطها بجماعات إرهابية مختلفة. وبشكل متوقع، فشلت هذه الخدعة الدعائية ضيقة الأفق في الاتصال، وربما قد فعلت قدر ما فعلت «الطرق الفوضوية للإنترنت» للحصول على التدعيم الشعبي للقضايا التي قد يتجاهلها الملايين. بناء على ذلك، انتقلت الاجتماعات من «سياتل» إلى «براغ»، ثم إلى «واشنطن»، ثم إلى «كيبك» Quebec، ثم «ميلبورن» Melbourne، ثم «بورتو أليجري» Porto Alegre، و«سالزبورج» Slazburg، و«برشلونة». كانت هذه المقار بداية لتطور اجتماعي وسياسي جديد، حيث يقوم المجتمع المدني العالمي بعرقلة الأعمال «الشرعية» لليبرالية الجديدة بشكل هائل وصفيق ومنظم.

وقد جذبت القمة المتبادلة للحكومات لمجموعة الثمانية (G8) التي انعقدت في «جنوا» Genoa في يوليو عام 2001 نصف مليون من المعارضين «المناهضين للعولمة». ورغم ذلك، تعلم منظمو القمة دروس «سياتل» وكانوا مستعدين لمواجهة هؤلاء المتظاهرين. وكانت مدينة «جنوا» (مشار بوضوح إلى «المنطقة الحمراء» التي أضعفتها سلطات المدينة) عن طريق نشر صواريخ أرض جو، وتحلق فوقها مروحيات مسلحة، وكانت محصنة بحواجز ومتاريس ومجهزة بعدد 15,000 جندي حراسة؛ لذلك تزودت السلطات الإيطالية بالسلاح بشكل ضخم حيث بدا العنف محتمًا. وبالتالي فقد أصبح ذلك بينًا. حتى أن تقارير وسائل الإعلام الرئيسية وصفت سلوك الشرطة بأنه وحشي وغير مسؤول. وقد نشر موقع ABCNews.com تقريرًا يضم على الأقل 150 من المعارضين والشرطة الذين دخلوا المستشفيات للعلاج (ABCNews 2001). وفي الصور التي راجت في أنحاء العالم وانتشرت بشكل واسع عبر الشبكات، يتبين أن الشرطة قد قتلت معارضًا غير مسلح، «كارلو جويلياني» Carlo Guiliani.

وبعيدًا عن كبت الحرية عند النشأة كما تمنت بحماس السلطات في الدول في أنحاء العالم،

نمت حركة المجتمع المدني العالمي بشكل لا حد له. ولم يعد ببساطة في استطاعة الكهنة الكبار في الليبرالية الجديدة أن يحكموا ما هو محيط بهم، واستقلوا عن العالم الواقعي، وأصبحوا يخططون للخطوات التالية في خلق عالم يعكس قيمهم، واتجاهاتهم، ورؤاهم العالمية. والآن لا بد لهم أن يكونوا مزودين بمروحيات في الاجتماعات، أو السفر في حافلات ذات نوافذ سوداء، ولا أن تحميهم كتائب من شرطة مكافحة الشغب، أو ـ في شكل اضطراري آخر ـ يكونون مجبرين على عقد اجتماعات في أماكن بعيدة مثل «الدوحة» في دولة «قطر» الصحراوية في «الخليج العربي».

رغم ذلك، وبينما يبدأ الكثير من النشطاء في إدراك «النجاح» الظاهري لمذهب الفعالية[1] في الميزان العالمي فقد يتظاهرون بالجدية وفي النهاية يضعفون من المشكلات. وتتمثل القضية الأكثر وضوحًا التي تواجه حركة المجتمع المدني العالمي في: «من هنا إلى أين؟» عندما يحاول المديرون التنفيذيون بالشركات(وهذا هو ما في الأساس)، وكبار المفاوضون التجاريون، والاقتصاديون بالبنك الدولي الذين لا يهدأون أن يجتمعوا معًا كشيء واحد. وتستمر العناصر المهمة والفعلية لعملهم. وتتمثل التساؤلات الملحة بشكل متزايد في: كيف يتم تغيير، أو تعثر مسار الليبرالية الجديدة، وليس فقط عدم ملاءمتها؟ بالإضافة إلى ذلك، تتدفق من هذا التساؤلات الماكرة إلى حد بعيد. على سبيل المثال، كيف أن مثل هذا الشيء غير المنظم ومتعدد الآراء مثل حركة المجتمع المدني العالمي يقوم بإيضاح وتنفيذ السياسات، والإستراتيجيات، الأيديولوجيات، والبرامج، والخطط التي تحتاج إلى تغيير قوي؟ في الواقع، تتمثل القضية المحورية في: هل يريد النشطاء الكثيرون والمتنوعون داخل المجتمع المدني العالمي الجديد بالفعل أن يصبحوا منظمين بالطرق التقليدية؟ يتمثل جزء من المشكلة في أن البعض يريد والكثير لا يريد. كيف إذن التقدم للأمام، عندما تبدو فكرة «التقدم للأمام» ذاتها بالنسبة للكثيرين قضية منطوية على مشكلات؟ كيف يكون من الممكن تسوية قوى الحركة، مثل الاختلاف، والتعددية، والتنوع، مع تحقيق الأهداف التي تتطلب بشكل طبيعي تدرجًا في السلطات، وإستراتيجيات، وبرامج؟ وقد طرح الناشط والكاتب «مايكل هاردت» Michael Hardt المشكلة بشيء من الحدة عقب اجتماع «المنتدى الاجتماعي العالمي»

---

(1) مذهب الفعالية: مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعالة أو الحاسمة تحقيقًا لهدف معين.

في «بورتو أليجري»، في «البرزيل»، في يناير عام 2002، حيث اجتمع ثمانية آلاف «وافد». وذكر أن:

> كان «منتدى [بورتو أليجري]» غير معروف، وفوضوي، ومتفرق. وتلك الوفرة المفرطة التي خلقت انتعاشًا لدى كل فرد، قد فقدت في موجة كبيرة من الناس في الكثير جدًا من الأجزاء في العالم الذي يعملون بشكل مشابه ضد الشكل الحالي من العولمة الرأسمالية ... رغم ذلك، لا بد أن تكشف المواجهة وتخاطب ليس فقط المشروعات والأهداف العامة، لكن أيضًا اختلافات هؤلاء الأطراف ـ اختلافات الظروف المادية والاتجاه السياسي. ولا يمكن للحركات المختلفة في أنحاء الكرة الأرضية أن تتصل بسهولة ببعضها البعض كما تكون، لكنها لا بد على الأقل أن تتحول عن طريق المواجهة من خلال نوع من الملاءمة المتبادلة ... وهذا النوع من التحولات يكون ضروريًا بالنسبة لحركات العولمة الأوروأمريكية، والحركات اللاتينية الأمريكية، ليس لكي تصبح متشابهة، أو حتى متحدة، لكن لكي تترابط معًا في شبكة مشتركة ممتدة؟ وقد أتاح المنتدى فرصة لإدراك مثل هذه التساؤلات والاختلافات بالنسبة لهؤلاء الذين على استعداد لفهمها، لكنه لم يتح الظروف لمعالجتها. في الواقع، فإن الخاصية المتفرقة، والمتدفقة للمنتدى والتي خلقت نشاطًا لدى الخصائص المشتركة، قد حلت أيضًا بشكل فعال محل المنطقة التي يمكن أن تتم عندها مواجهة مثل هذه الاختلافات والصراعات.
>
> (هاردت 2002: 113-14، تأكيد إضافي)

أعتقد أن الجملة الأخيرة تغلف التناقض الذي يواجه حركة المجتمع المدني العالمي. وقد جمعت التأثيرات الكثيرة والمختلفة للعولمة الليبرالية الجديدة تنوعًا ضخمًا للناس الذين يريدون مقاومتها. رغم ذلك، إذا كانت تأثيرات العولمة الليبرالية الجديدة متنوعة للغاية، وممتدة عبر العالم، كيف يمكن للناس مواجهة اختلافاتهم ليكونوا قادرين ليس فقط على مقاومة العولمة الليبرالية الجديدة بشكل فعال، لكن أيضًا على تغييرها؟

سوف يركز القسم التالي على آليات هذه الأزمة السياسية ثم مناقشة كيف يكون الأفراد والجماعات، بالنظرية والتطبيق، في محاولة للتغلب عليها.

أساليب السياسة التقنية

لا يمكن الاستخفاف بمدى خطورة القضايا السياسية التي تواجه العدد المتنامي من المعارضين للعولمة الليبرالية الجديدة. ولإمكانية مقاومة وتغيير الليبرالية الجديدة، فلا يُطلب أكثر من تطوير الطريقة الجديدة بأكملها في إدارة السياسة والصراع السياسي. وكما يرى «إمير سادر» Emir Sader (2002: 87)، أن المنطق المنبثق من حركة المجتمع المدني العالمي «... يشير إلى مخطط أيديولوجي، وسياسي، وجغرافي جديد بشكل كامل». وكما أشرت سابقًا، لا يمكن بسهولة للأشياء أن تستمر كما هي عند الحد الذي تركز عنده الحركة. «من هنا إلى أين؟» سوف يصبح ذلك قضية مسيطرة بشكل لا يمكن تجنبه بينها الحركة مجبرة على أن تصبح - لفترة على الأقل - أكثر عمقًا وتعبيرًا عن أفكار ودوافع ومشاعر الأفراد. لماذا؟ لأنه عاجلًا أو آجلًا، إذا لم تتم مواجهة التساؤلات السياسية الجوهرية، فإن حركة المجتمع المدني النشطة والقوية حاليًا سوف ينفد صبرها. ويؤدي الاستخدام المبتكر لتكنولوچيات المعلومات والاتصال إلى ثورة ضد النظام العالمي الجديد الذي تشكل من خلال شركات قامت بتمكين حركة لكي تنمو وتنجح لتجعل صوتها مسموعًا في مقارها من «سياتل» إلى «چنوا» إلى «پورتو أليجري». وقد أصبحت الحركة ملهمة، ومحفزة، ومنشطة. وبالتساوي، أصبحت أيضًا - باستخدام مصطلح «هاردت» - «لا سبيل إلى معرفتها»، و«فوضوية»، و«متفرقة». رغم ذلك، تتمثل الحقيقة في أن حتى هذه المنطقة أصبحت الحركة تتصف فقط بأنها «مثيرة إلى حد ما»، و«محذرة» للكيان المتحد للعولمة الليبرالية الجديدة. ويستمر العمل من أجل إنشاء سوق كبير واحد يمتد من «تييرا ديل فويجو» Tierra del Fuego إلى «أنكراچ» Anchorage، ومن «دبلن» Dublin إلى «دونيدين» Dunedin ثم العودة إلى «دلهي» Delhi دون عراقيل تقريبًا. حداثة مشهد سفر المعارضين، الذي يقدم عرضًا عامًّا بشكل أساسي وممارسة ذات قيمة، لأن شرطة مكافحة الشغب سوف تضعف قريبًا. إن المتعاطفين حول العالم، وبشكل خاص معظم النشطاء ذاتهم، الذين تحتاج مستويات طاقتهم وتعهدهم لأن تكون ضخمة، سوف يحتاجون إلى رؤية أشكال العودة الملموسة بشأن كل هذا الاستثمار الانفعالي، والفكري، والمدي. وبالتالي، لا يعد التمني بإمكانية سير الأمور من قوة إلى قوة اختيارًا إذا نظرنا نظرة تحليلية على الحركة والإطار السياسي العالمي الذي تعمل من خلاله.

وفي محاولة لطرح وتحليل هذه القضايا، ألقى «مايكل هاردت» نظرة على التركيبة السياسية والأيديولوچية لحركة المجتمع المدني العالمي، خاصة لأنه تشكل في «منتدى پورتو أليجري» الذي انعقد في يناير عام 2002. وقد ذكر أن هناك «موقفين أساسيين في رد الفعل على قوى العولمة المهيمنة اليوم» ـ يستمر في الكتابة ـ هما:

> **إما يمكن للشخص أن يعمل لتدعيم استقلالية ولايات الدولة كحاجز دفاعي ضد سيطرة رأس المال الأجنبي والعالمي، أو يمكن أن يبذل كل جهده تجاه بديل غير قومي بالنسبة للشكل الحالي للعولمة الذي يعد عالميًا بشكل مساوٍ. الموقف الأول يضع الليبرالية الجديدة كفئة أولية تحليلية، تقدم العدو كنشاط رأسمالي عالمي غير مقيد مع أشكال حكومية للسيطرة، ويعد الموقف الثاني أكثر وضوحًا في وضعه ضد ما هو رأسمالي في حد ذاته، سواء كان منظمًا من قِبل الدولة أم لا. ربما يكون الموقف الأول هو «الموقف المناهض للعولمة» ... أما الموقف الثاني، على العكس، يعارض أية حلول قومية وبدلًا من ذلك يسعى إلى عولمة ديمقراطية.**
>
> (هاردت 2002: 14)

وفي «الأسلوب القديم» للسياسة، سوف يكون هذا النوع من التباين الكبير في المصالح السياسية والأيديولوچية الأساسية أكثر أو أقل تضاربًا. إن منطق تدرج السلطة، الخاص بـ«النهج الحزبي»، والولاء للنظام والحزب اللذين كانا يمثلان الدعامتين الأساسيتين لسياسة المعاصرة لم يكن يتمتع بالمرونة الضرورية لتسوية مثل هذه الرؤى العالمية المتشعبة بشكل متطرف. ورغم ذلك، وكما رأينا، فإن «سياسة المعاصرة» ينصرف عنها الملايين عبر العالم، ويحاولون لمدة عقد توضيح البدائل. وقد فتح هذا النفور المجال لسياسة جديدة تعتمد على المعارضة المشتركة تجاه الليبرالبية الجديدة والاستعداد لاستخدام تكنولوچيات المعلومات والاتصال كأداة تنظيمية تعمل على توحيد المعارضين.

وكما تم شرح حركة المجتمع المدني العالمي، أصبح الآن متاحًا «أسلوب جديد» للسياسة يعتمد على المعارضة المشتركة تجاه الليبرالية الجديدة وعلى توحيد الزمان والمكان من خلال الشبكات ـ السياسة التقنية. صعد المجتمع المدني العالمي إلى مستوى كتلة حرجة أظهرت إمكانية (على الأقل) تطوير المجالات (الفعلية والحقيقية) حيث يمكن للثائرين خلق سبب

مشترك مع أعضاء نقابات العمال، وعلماء اجتماع مع المنظمات غير الحكومية، وعلماء بيئة مع المزارعين، ومفكرين مع الجماعات الكنسية، إلخ... لكن بالطبع، مثل هذه التطورات لن تكون سهلة أو هينة، ومن الممكن فقط فهم مدى الصعوبات بشكل نظري. وتعد المشكلات الأيديولوچية، والجغرافية، والهيكلية التي يجب التغلب عليها مشكلات ضخمة، رغم الخطى الواسعة والهائلة للأمام التي اتخذها المجتمع المدني العالمي حديث النشأة. وكما يذكر «هاردت»، إن الذين يؤمنون بموقف «الاستقلالية القومية» كانوا هم «الأكثر ظهورًا» و«سيطرة» في «منتدى بورتو أليجري». وبالنسبة لهم، كانت «الحرية القومية» النابعة من مظلة الليبرالية الجديدة العابرة للقومية هي الهدف الأساسي (2002: 115). يعطي هذا الموقف الأولوية لتدعيم الدولة ضد العولمة الليبرالية الجديدة ويعطي القوة لـ «وول ستريت» Wall Street. وموقف «الاستقلالية القومية» هذا، كان يوجد بين كل من الدول المتقدمة والدول النامية. وكان نمط منظمتهم، كما يلاحظ «هاردت»، أكثر تقليدية وتدرجًا في السلطة ويرتبط بالقوى المحركة للهياكل القومية الخاصة بالنشطاء في الأحزاب السياسية، ونقابات العمال، والمؤسسات السياسية الأخرى.

وبشكل جدير بالاهتمام، لا تتطابق هذه الأقسام مع جغرافيا «الشمال» و«الجنوب»، للأقاليم والاقتصاديات المتقدمة والنامية. وبدلًا من ذلك، تشير حقيقة أنها تمتد عبر الكرة الأرضية إلى أنهم يمثلون تأثيرًا للعولمة، وتصبح أشكال الاتصال متاحة من خلال تكنولوچيات المعلومات والاتصال وتطور مجتمع الشبكات. ويتمثل القسم الحقيقي، كما يذكر «هاردت» (2002: 116):

> ... بين شكلين مختلفين للمنظمة السياسية. تحتل الأحزاب التقليدية والحملات المركزية قطب «الاستقلالية القومية» حيث تميل الحركات الجديدة المنظمة داخل الشبكات الأفقية إلى التجمع عند القطب غير المستقل. [علاوة على ذلك] داخل المنظمات التقليدية المركزية، تميل القمة نحو الاستقلالية وتميل القاعدة نحو اتجاه آخر. وربما ليست مفاجأة أن هؤلاء الذين في مواقع النفوذ لا بد أن يكونوا أكثر اهتمامًا باستقلالية الدولة وهؤلاء المستبعدين. وربما يساعد هذا في توضيح كيف أن «الاستقلالية القومية، والموقف المناهض للعولمة يمكن

أن يسيطرا على تصورات منتدى [بورتو أليجري] حتى لو كان غالبية المشاركين يميلون إلى وجهة نظر عولمة بديلة غير قومية.

كما يرى «هاردت»، يعتمد مستقبل المجتمع المدني العالمي على ما إذا كانوا يختارون بين أنماط المنظمة المعتمدة على «الأحزاب أو الشبكات». يمكن القول، بين أنماط تدرج السلطة المعتمدة على «الاستقلالية القومية» أو الأنماط الأفقية المعتمدة على الشبكات التي بلا حدود، وبين السياسة الثنائية للمعارضة وسياسة الوحدة داخل التنوع الذي بلا حدود. وبالتعريف تقريبًا، يبحث معظم الذين انجذبوا إلى حركة المجتمع المدني العالمي عن سياسة جديدة. وبديهيًّا على الأقل، يدرك الكثيرون أيضًا أن القوة وسياسة التغيير الفعلي في مجتمع الشبكات سوف يواجهان المعارضة داخل الشبكة ذاتها. بمعنى آخر، سوف تكون كل من تكنولوجيات المعلومات والاتصال وكذلك الأفكار أدوات تكوين سياسة جديدة. ويضع «هاردت» (2002: 117)، خلال الدفاع الحماسي عن الشبكات عبر الأحزاب، القضية مع بعض البلاغة:

> كيف تناقش مسألة الشبكات؟ تبذل الحركات المنظمة داخل الشبكات كل طاقتها، لكنها لا تتواصل من خلال المعارضة. وتتمثل إحدى السمات الرئيسية لشكل الشبكات في أنه لا يوجد طرفان يواجهان بعضهما البعض عند التعارض، بل إنهما ينقسمان إلى أثلاث، ثم إلى أرباع، ثم إلى عدد غير محدود من أطراف أخرى في شبكة الإنترنت. تعد هذه واحدة من سمات أحداث «سياتل» التي نعاني من عدم فهمها؛ لأن أكثر ما يقلقنا هو: الجماعات التي نرى أنها تتعارض مع بعضها البعض ـ علماء البيئة ونقابات العمال، والجماعات الكنسية والثوار ـ أصبحوا قادرين فجأة على العمل معًا، في إطار شبكة مزدحمة. وتقوم الحركات ... بعمل ما يشبه عمل الميدان العام، من ناحية أنها يمكن أن تسمح بتعبير كامل عن الاختلافات داخل الأطر المشتركة للتبادل المفتوح. لكن ذلك لا يعني أن الشبكات سلبية. فهي تزيح التناقضات لكي تعمل بطريقة الخيمياء (الكيمياء القديمة)، أو بالأحرى تعمل من خلال التغيير الضخم، أي تدفق الحركات التي تقوم بتحويل الأوضاع التقليدية الثابتة، الشبكات التي تضع الشكل الخاص بهم عبر نوع من التيار الذي لا يمكن مقاومته.

الكلام جيد حتى الآن، لكن يبدأ الناشطون وواضعو النظريات في التفكير في تلك المصطلحات. هناك طريق طويل للوقوف أمام سياسة تقنية مسلحة بهذا النوع من المرونة، والشمول، والقوة يمكن أن يتطور - وهذا قبل أن يستطيع ذلك استخدام الليبرالية الجديدة كبديل وشكل مقبول للسياسة لمجتمع الشبكات.

رغم ذلك، يتم تحديد الكثير من الأفراد والجماعات، وواضعي النظريات والناشطين، نظريًا وعمليًا، وذلك لإدراك الهدف من تكوين نظام سياسي جديد من أجل مجتمع الشبكات. وهم يدركون - إما بالحدس أو من فكر خارج الموقف - أن شكلًا جديدًا من السياسة سوف يحتاج إلى التطوير خارج الظروف المتغيرة بشدة والتي سببتها كل من العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وفي عالم لا يوجد فيه «خارج» من مجتمع الشبكات - كما قال «لاش» Lash (2002: 10) - ثم يكتب «هاردت» وآخرون (كما سوف نرى بإيجاز) مؤسسات لتشكيل سياسة بديلة عبر الشبكات، وعبر الاتصالات، وفي الإعلام.

قراءات أخرى

Hardt, M. (2002) Porto Alegre: today's Bandung?, *New Left Review*, 14, March–April: 114.

Klein, N. (2000) *No Logo*. London: Flamingo.

Klein, N. (2002) *Fences and Windows*. London: Flamingo.

Lasn, K. (2000) *Culture Jam: How to Reverse America's Suicidal Consumer Binge – And Why We Must*. New York, NY: HarperCollins.

Monbiot, G. (2000) *The Captive State*. London: Macmillan.

الفصل السادس الإعلام التكتيكي

> لا يمكن نسيان أنه حتى في الدول الصناعية، وخلال عصور القمع، كان هناك القناصون وأفراد حرب العصابات.
>
> (أرون Aron 1968: 215)

وفي عالم ما بعد الفوردية Fordism الذي تقوده منافسة العولمة، وتدعمه تكنولوچيات المعلومات والاتصال، وحيث المجال الضخم والمتناغم للسياسة قد انقسم إلى ملايين الأجزاء ـ كما لاحظ «جيدينز» Giddens «لا أحد تحت السيطرة» (1997: 4-5). أصبح الناس أيضًا، بملايين أعدادهم، منظمين لتطوير السياسة البديلة خلال هذه العصور الجديدة، والشبكية، والتي ما بعد الحداثة. وبشكل أساسي، فقد أجبروا على الرجوع إلى الأدوات الخاصة بهم، كما كان، وإلى مواردهم الخاصة من أجل إعادة التفكير في الأفكار القديمة في إطار الظروف الجديدة، أو ربما يتلمسون طريقهم في الظلام بشكل أكثر قوة من أجل ما يجعلهم «يشعرون» بحال أفضل، وأكثر تدعيمًا، وأكثر عدلًا، وأكثر شمولًا، وأكثر تنوعًا، وأكثر ديمقراطية. وهنا، وفي فوضى «لا أحد تحت السيطرة»، تكوَّنت تلك الأشكال الجديدة من السياسة التقنية، وتلك الطرق الجديدة من التنظيم السياسي باعتبار أنها تمت تجربتها، ورفضها، وتعديلها، وتطويرها، وتوضيحها.

ويعمل كل من «جيرت لوفينك» Geert Lovink، و«ديفيد جارسيا» David Garcia الناشطين والمنظرين في مجال الإعلام من خلال آخر ما توصل له العلم فيما يتعلق بصياغة السياسة التقنية. وهي تبدو في عصر الشبكات متشابهة مع العصور الماضية، لكن فقط في عام

1996 قاما بنشر وثيقة بعنوان «أ ب إعلام تكتيكي» ABC of Tactical Media. وقد انتشر هذا المقال عبر الإنترنت وأصبح من السهل الوصول إليه وتحميله. وقد وجدا في ذلك أن الناس لا بد أن يقبلوا مجتمع الشبكات، لكن بالطرق التي تضعف وتفسد سيطرته من خلال الليبرالية الجديدة. ويذكرا أنه لا بد (وبالضرورة) أن يتعلم النشطاء، والمستخدمون، والمبرمجون -وأي شخص يتفاعل مع تكنولوجيات الإعلام والاتصال كجزء مكمل ويومي من حياته- استخدام هذا الإعلام «بشكل تكتيكي». ومن هنا فما هو «الإعلام التكتيكي»؟ كتب كل من «لوڤينك» و«جارسيا» (1996) إن:

> **الإعلام التكتيكي يمثل ما يحدث عندما يجعل الإعلام الرخيص الذي يرفع شعار «قم بذلك بنفسك» ممكنًا من خلال ثورة الإلكترونيات الاستهلاكية والأشكال الممتدة من التوزيع، التي تستغلها الجماعات والأفراد الذين يشعرون بالاضطهاد أو التهميش في نطاق الثقافة الأوسع.**

وينشأ الحافز نحو استخدام الإعلام بشكل تكتيكي مما يريانه «أزمة» النظام المسيطر ومن خلال ازدياد «النقد والمعارضة» بشأنه. وقد أخذ المؤلفان مبدأهما الفكري من «مايكل دي سيرتيو» Michel de Certeau وكتابه «ممارسة الحياة اليومية» The Practice of Everyday Life الذي نشر أولًا باللغة الإنجليزية في عام 1984. وقام «سيرتيو» بتحليل الطرق التي من خلالها «نصنع الفعل» في حياتنا اليومية عبر استخدامنا واستهلاكنا لمنتجات وممارسات الثقافة السلعية. ومع ذلك، فنحن نقوم بأكثر من «صناعة الفعل»، طبقًا لرأي «سيرتيو». داخل «نظام المنتج» الظالم كما يطلق عليه، يبذل الناس كل جهدهم بشكل واعٍ وغير واعٍ ليضمنوا لأنفسهم مجالات للاستقلال الشخصي والجماعي من خلال تفاعلهم مع العالم اليومي المحيط بهم. ووفقًا لرأي «دي سيرتيو»، فإن «طرق التشغيل» أو «التكتيكات» هذه تعد بمثابة نوع من المقاومة، أو كما يقول «طرق إعادة تخصيص نظام المنتج، الطرق التي يبتكرها المستهلكون، [والتي] تتضمن مثل هدفهم في علاج تدهور العلاقات الاجتماعية ...» (1984: xxiv، تأكيد مضاف).

كانت «وسائل الممارسة» هذه وفقًا لرأي «دي سيرتيو» عملية سياسية بدرجة كبيرة. فقد شكلت نوعًا معتدلًا من حرب العصابات، وتضمنت تطوير «الخدع»، و«المراوغة المتزايدة»، ودهاء «الصياد في أرض الغير». ورغم ذلك، فإن لديها هدفها كشكل من «انعلاج» الذي

يبدو هدفًا سلبيًّا. وكما يرى كل من «لوفينك» و«جارسيا»، فقد أصبحت الحصص الآن أعلى مما كانت عليه عندما كتب «سيرتيو». وفقًا لذلك، فقد حلت محل الهدف من «العلاج» مع صياغات تشكيل سياسة جديدة من أجل بناء عالم جديد ـ «حياة يومية» جديدة حيث يسعى الناس أنفسهم إلى التحكم فيها وتشكيلها، كمعارضين لتحسين أسوأ مجالات النظام. وفي عقدين من الزمان فقط أصبح عالمنا عالمًا وسيطًا، حيث تتغلغل بشدة «الحوسبة الموجودة في كل مكان» في الحياة اليومية. وطبقًا لذلك، فإن ما يعد الآن أكثر سهولة «للوصول» إلى الحياة اليومية، وما يشمل الكثير من ثقافتنا، يتمثل في تكنولوچيات المعلومات والاتصال. وما يجب أن نصبح بارعين فيه، وماهرين في التكتيك بشأنه ، هو تكنولوچيات الإعلام والاتصالات. مع الأخذ في الاعتبار، قيام كل من «لوفينك» و«جارسيا» بالإضافة إلى عمل «دي سيرتيو» حيث جعلاه أكثر ميلًا إلى التغيير من أجل تطوير نظريتهما (ممارسة) الإعلام التكتيكي. وبربط استعارة العصابة وممارسات «اضرب واهرب»، يضعان ملاحظة بأن:

> يستند الإعلام التكتيكي إلى مبدأ الاستجابة المرنة، والعمل مع الائتلافات المختلفة، باعتباره قادرًا على التحرك بين الكيانات المختلفة التي تتعامل داخل المجال الإعلامي الشاسع دون الإفصاح عن دوافعه الأصلية. وربما ينتمي الإعلام التكتيكي إلى مذهب اللذة[1]، أو يكون مجالاً نشطًا لأي خطاب حماسي. بحيث يمكن توظيف كل شيء حتى الموضة لخدمة أغراضه الخاصة. لكن الأهم من ذلك، القدرة الدائمة على التحول والتحوُّر الذي يتسم به فكر كل من يعمل في مجال التكتيك الإعلامي. كما تخلق الرغبة والقدرة على الاتحاد أو القفز من إعلام إلى آخر إمدادًا مستمرًا من التوليفات والتراكيب. ولعبور الحدود، فإن إضافة عمليات الاتصال وإعادة مد الأسلاك إلى مجموعة متنوعة من فروع المعرفة دائمًا ما تأخذ ميزة كاملة من مساحة حرة في الإعلام الذي يظهر بسبب التغير التكنولوچي وتقلب النظام.

وفي مقال من عام 2002 (هذه المرة كتبته «فلوريان شنايدر» Florian Schneider)، يقدم

---

(1) مذهب فلسفي يرى أن اللذة أو السعادة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة.

«لوڤينك» الرهان، ولو أصبح كل شيء أكثر تطرفًا في نظرية وتطبيق الإعلام التكتيكي. وفي هذا الصدد، أعتقد أن الكُتاب يدركون ويعبرون عن الراديكالية التي انبثقت داخل المجتمع المدني العالمي ذاته والاستعداد لاستخدام تكنولوچيات المعلومات والاتصال بطرق جديدة لتحقيق أهدافها الفردية والجماعية. وقد كتبوا «يعد هذا هو العصر الذهبي لمذهب الفعالية الذي لا يمكن مقاومته، حيث تحاول الأشكال الحالية من مذهب الفعالية إعادة تعريف تخريب الممارسة الاجتماعية، لكن ليس بالمعنى التدميري المعتاد، بل بممارسة بناءة، ومبتكرة، وخلاقة» (2002: 315–16). وينبثق هذا الابتكار وهذا الخلق من حركة مجتمع مدني عالمي «دون أدوات ودون تنظيم» (2002: 315).

وداخل هذا النشاط غير المنظم يحدد كل من «لوڤينك» و«شنايدر» ثلاث طبقات من مذهب الفعالية لتكنولوچيا المعلومات والاتصال التي نشأت خلال العقد الأخير، ولا تزال تعمل بطريقة بدائية. تمثل الأولى إقامة الشبكات داخل الحركة. وتعد هذه العناصر الأساسية المطلوبة للمساعدة في إيجاد الحركة وجعلها تعمل. وهي تتكون من استخدام الإنترنت للمشاركة في المعلومات وتجميعها، ولإنشاء المواقع التي تعمل كـ «صناديق أدوات» للنشطاء أنفسهم من خلال استخدام قوائم الأسماء المرسل إليها البريد، ومن خلال البريد الإلكتروني ... إلخ. وتمثل الطبقة الثانية ما يطلق عليها المؤلفان إقامة الشبكات بين الحركات والجماعات الاجتماعية. وتمثل هذه حركة تتجه نحو التعقيد وحركة خارجية لتتصل بالجماعات والحركات الأخرى. وقد تم توضيح هذا الشكل من مذهب فعالية المستوى الثاني من خلال القيام بحملات والاتصال بأفراد من أطر مختلفة. ويعني ذلك الاتحاد بين القوى، والمجهودات التعاونية والمتحدة لتكوين قوة مشتركة، وخلق بيئات نشطة ومحفزة التي ربما تتضح من خلالها الأنماط الجديدة للحركات والنشطاء» (2002: 316). ويتمثل المستوى الثالث لمذهب الفعالية المستند إلى تكنولوچيا المعلومات والاتصال فيما يطلق عليه «لوڤينك» و«شنايدر» الحركات الفعلية، وتعني:

> وفي المقابل استخدام الإنترنت كمنبر للمعارضة الفعلية، والذي يشير إلى أنه لم يعد هناك انقطاع في الاتصال والذي ربما تسبب في نشوء حركات لا تحصى ولا يمكن السيطرة عليها: المعارضات الإلكترونية مثل المظاهرات على الإنترنت، وتمرد المجتمع الإلكتروني أو أي شيء قد ينظر إليه على أنه تخريب رقمي وكنتيجة

منطقية للصراع الاجتماعي: مناهضة التصنيف، والتسبب في خسائر حقيقية، وتشويه صورة المؤسسة.

إذا كانت النظرية تتطور بسرعة، فإن أشكال الممارسة تحاول اللحاق بها. وبوعي وبدون وعي، يسلك الأفراد والجماعات الآن في أنحاء العالم مثل التكتيكيين الإعلاميين في حياتهم اليومية. فهم يجدون الكثير من «طرق استعمال المنتجات المستخدمة من قِبل النظام الاقتصادي السائد» وهي الطرق الخلاقة والابتكارية، كما كتب «دي سيرتيو»، من أجل شق طريقهم المستقل داخل النظام المعتمد على المعلومات. وتتمثل النقطة الحاسمة في أنه بدلًا من القيام بهذا كشكل من «العلاج» فإنهم يحولون هذه المنتجات (تكنولوجيات المعلومات والاتصال) ضد ذلك النظام نفسه.

تفعيل الإعلام التكتيكي

لقد شاهدنا سابقًا أمثلة للطبقتين الأوليين من الثلاث طبقات لمذهب الفعالية للشبكات لـ«لوڤينك» و«شنايدر». كان تطور المجتمع المدني العالمي (وما زال) يعتمد بشكل أساسي على استخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصال من خلال هذه الطرق. إنها تعتبر الأساس الذي من خلاله سوف تتشكل وتتحد الجماعات والحركات، وكذلك سوف تمثل مستقبل مذهب الفعالية للشبكات في السنوات القادمة. رغم ذلك، يعد المستوى الثالث في التصنيف الخاص بالمؤلفين مفيدًا بشكل خاص لأنه يقوم بدمج المستويين الأولين مثل المراحل التكنولوجية والتنظيمية، لكنه ينتقل بعد ذلك الصراع إلى مستوى مختلف ـ مستوى الرموز والتمثيلات، ومستوى علم الدلالة والشعارات. وبطرق كثيرة يمكن لهذا المستوى من مذهب فعالية «الحركات الافتراضية» ـ إذا أضعف من قِبل هذه المستويات الأخرى ـ أن يعمل باعتباره أكثر المناطق أهمية في الصراع. هذا لأن هذا الشكل من مذهب الفعالية، باعتباره افتراضيًا (ومبنيًا بشكل كبير على وجود الشاشة) يتعامل مع ما يراه الناس في العالم المرئي، ومع تكنولوجيات المعلومات والاتصال التي يستخدمونها في العالم الوسيط، ومع ما يستهلكونه في المجتمع الاستهلاكي. يمكن للناس أن «يفعلوا ذلك بأنفسهم» من خلال الأمثلة التالية التي يجدونها في الحركات الافتراضية، أو يمكنهم أن يقدموا أفكارهم للآخرين ليتابعوها أو يمكنهم، في حالة

الضرورة، أن يعملوا كجزء من جماعة افتراضية ـ أو جماعة مادية ـ عندما يحتاج أعضاء الجماعة ذاتها إلى ذلك.

والآن يمكننا الحديث عن البرامج الإلكترونية. يعتبر «لينوكس» Linux نظام تشغيل بالحاسب الآلي (OS) تم تطويره في بداية التسعينيات من القرن العشرين من خلال (الروتين: إذن) طالب علوم الحاسب الآلي الفاسد والمتسلل إلى أنظمة الحاسب الآلي «لينوس تورڤالدز» Linus Torvalds. فقد قام بكتابة (نظام التشغيل) باعتباره «شفرة مفتوحة المصدر» الذي يمكن استخدامه وتعديله من خلال أية طريقة جديدة ومبتكرة يمكن أن يخترعها المبرمج ـ مجانًا. ولأنه قد تطور وأصبح أكثر تعقيدًا واستخدامًا من خلال الإضافات والتعديلات التي قام بها خبراء آخرون فيما يسمى «حركة المصدر المفتوح»، اتخذ «لينوكس» ما يطلق عليه نظام «copyleft». وتعد هذه «الرخصة العامة» general public license (GPL) هي جوهر «حركة المصدر المفتوح» وترخص للمستخدمين بيع ونسخ وتغيير برامج copyleft. ويمكن أن يتم بعد ذلك تسجيل حقوق النشر والتأليف للمنتج النهائي. ورغم ذلك، فإنه لا بد أن يكون لك نفس حقوق بيع أو نسخ تعديلاتك وأي تغيير آخر قد يضاف عليها. ولا بد لك أيضًا أن تجعل شفرة المصدر لتعديلاتك متاحة مجانًا. ومع مئات الآلاف من المتسللين الذين يقومون بتعديل وتحسين الشفرة بشكل مستمر، يعمل نظام (GPL) مثل أسلوب «الانتقاء الطبيعي» الدارويني الذي من خلاله تعتبر التطبيقات التي تلائم أطرهم أو بيئاتهم هي الأكثر نجاحًا (موودي Moody 1997). وقد أكدت نظرية الدينامية من مجتمع المتسللين العالمي أن «لينوكس» أصبح بديلًا حيويًّا (وبالتالي تحديًا ممكنًا) بالنسبة للاحتكار في أنظمة تشغيل الحاسب الشخصي الذي تتمتع به «مايكروسوفت». وبلغة الأرقام فإنه من الصعب تقدير عدد مستخدمي النظام الذي يمكن توزيعه ونسخه مجانًا بشكل لا نهائي عبر الشبكة، لكن أحد التخمينات قدره عند حوالي 18 مليونًا. ولأن «لينوكس» في طريقه إلى أن يكون أكثر تبسيطًا فإنه سوف يتحول أيضًا إلى «الشكل المؤسسي»، بل سوف يصبح أكثر تبسيطًا. على سبيل المثال، في منتصف عام 2003 في «ألمانيا»، قررت الحكومة البلدية لـ «ميونيخ» Munich ـ فيما يتعلق بالضجة التافهة الخاصة بـ «مايكروسوفت» ـ إلغاء عقد «مايكروسوفت» والبدء في استخدام برنامج إلكتروني لمصدر مفتوح يعتمد على «لينوكس» (ناوتون» Naughton 2003)، وقررت «هيوليت پاكيت» Hewlett Packet العملاقة (مالكة كومپاك Compaq) تركيب

«لينوكس أو إس» Linux OS مثل «نظام تشغيل اختيار السوق الناشئ للتطبيقات المساعدة» (هيوليت باكارد Hewlett Packard)، وقامت «موتورولا» بتركيب برنامج «لينوكس» copyleft في كل هواتفها المحمولة من الجيل الثالث.

ولا يعد «فين تروڤالدز» Finn Trovalds المتواضع إلى حد ما هو النشط المعتاد الخاص بك. هو تقريبًا لم يذهب إلى «سياتل» Seattle أو «چنوا» Genoa. ويبدو أنه رجل مسيطر للغاية من خلال وظيفة جيدة وميل إلى كتابة الشفرة. وربما لا يظهر «مذهب الفعالية الاجتماعي المتطرف»، في قسم «الاهتمامات» في وثائق السيرة الذاتية الخاصة بالكثير من المتسللين والمبرمجين الذين يشاركون أيضًا في التطوير المتواصل لـ «لينوكس». ورغم ذلك، تعد أنشطتهم الموحدة سياسية ومدمرة، لذلك فقد تسلحوا بقوة الاحتكار إلى جانب الهدف الديمقراطي الأساسي لتشفير المصدر المفتوح. بمعنى آخر، فهم يستخدمون أدوات النظام ويحولونها ضده.

التشوش الثقافي

إنهم النشطاء الذين تعتادهم، لكنهم منغمسون تمامًا في تكنولوچيات المعلومات والاتصال، ويتغيرون بشدة فيما يتعلق بإمكانياتهم من أجل تحدي الوضع الحالي، فإنهم يمثلون رجالًا مكلفين بتغيير الأوضاع. ويمثل هؤلاء موقع (www.adbusters.org) ومجلة «أدبوسترز» Adbusters، فقد تحمسوا لتخريب («إفساد» المصطلح العلمي لـ «لوڤينك») الرموز المشتركة لرأسمالية العولمة الجديدة والكشف عن كل من الإهمال والرياء المتحدين أينما وجدوهما. إنهم ينظمون حملات على الإنترنت وعلى الورق مثل حملة «يوم بلا شراء أي شيء» Buy Nothing Day حيث يتم حث المستهلكين على محاولة قضاء يوم واحد في السنة دون تدعيم رأسمالية العولمة الجديدة بالشراء، أو «أسبوع التخلص من التليفزيون» TV Turnoff Week حيث يغلق التليفزيون في أحد الأركان - بل رميه خارجًا. وكوسيط يقدم الامتيازات السمعية على البصرية، فإن موقعهم ومجلتهم تستخدم أعمالًا فنية وشعارات قوية، وصورًا تؤكد على الرسالة الرئيسة. اليوم، ألقيت نظرة على موقعهم الذي افتتح مع صورة واحدة، لا أكثر، لسيارة رياضية «مرسيدس بنز». وبشكل واضح، أصبحت هذه السيارة التي ظهرت فجأة تصطدم بشكل سيئ مع حائط أو شجرة. لكن بنظرة قريبة إلى لوحة الرخصة الشخصية البالية على تلك اللعبة الثمينة المحطمة

سوف ترى الحروف غير المنظمة JOY. وقد جعلت مثل هذه الجمل الساخرة من إنشاء موقع Adbusters.org وتأسيس مجلة Adbusters أدوات قوية للناشطين عبر العالم حيث يستخدمونها في أهدافهم الشخصية والجماعية من أجل المقاومة.

يمثل «التشوش الثقافي»، صنعتهم. ويعد هذا هو الهدف لتخريب (أو لإيقاف) ما يرونه «العلامة التجارية» أمريكا. فهذه هي «العلامة التجارية اللامعة» التي تصفها «كلاين» Klein في كتابها «بدون شعار». ويرى «كالي لاسن» Kalle Lasn محرر مجلة «أدبوسترز» Adbusters، أن «العلامة التجارية اللامعة» لا تعد أكثر من استعمار لمجالات التنوع داخل الثقافة الأمريكية وجعل هذا التنوع متجانسًا، رأس المال المشترك. وفي عام 2000 ألف «لاسن» كتابًا بعنوان «تشوش الثقافة: كيفية قلب الصخب الاستهلاكي الانتحاري - ولماذا يجب علينا». Culture Jam: How to Reverse America»s Suicidal Consumer Binge – And Why We Must.. ويقول فيه إنه بموجب تأثير العولمة الليبرالية الجديدة نجد أنفسنا.

> **... بالاتجاه تاريخيًا إلى زمن معين ... نجد أن معظمنا أصبح الآن منفصلًا عن العالم الطبيعي. يمكننا أن نتذكر بالكاد آخر مرة شربنا فيها من النهر، أو شممنا رائحة الكرنب الذي يزرع في شمال أمريكا، أوشاهدنا النجوم من مسافة مظلمة بالمدينة. لا يمكننا تذكر آخر مرة قضينا أمسية نروي فيها القصص، بدلًا من سماعها من «جيري» Jerry أو «أوبرا» Oprah أو «روزي» Rosie. لا يمكننا تحديد ثلاثة أنواع من الأشجار، لكننا نعرف كيف أن «مايك تايسون» Mike Tyson تعرض كثيرًا للإصابة في مباراته الأخيرة. لا يمكننا شرح سبب زرقة السماء، لكننا نعرف كم مرة تم تجاهل «سوزان لوسي» Susan Lucci في جوائز «إيمي أوورد» Emmy Award.**
>
> (لاسن 2000: 4)

وينظر «لاسن» إلى هذا «الانفصال عن الطبيعة» الناتج عن ثقافة الاستهلاك على أنه «القلق» الذي يجعل المجتمع فارغًا روحانيًا وضحلًا ثقافيًا. وما يحاول كل من موقع Adbusters ومجلة «أدبوسترز» فعله هو الكشف عن مكمن الفراغ الروحاني والثقافي - في الثقافة الاستهلاكية التي تتغلغل في الحياة اليومية. وكما قلت، تمثل السخرية سلاحًا يلجأون إليه كثيرًا. ومن هنا أقدم مثالًا

على «مناهضة العلامة التجارية» وهو اتخاذ العلامة التجارية «أديداس» Adidas، واللفظ المركب «أحلم طوال اليوم بالانتحار» All Day I Dream About Suicide. وهذا يعبر عن الضغط الهائل الذي يقع على كاهل الشباب من خلال العلامة التجارية اللامعة للشراء وليبدون في الشكل الذي يراه «مروجو» «أديداس» ما هو «ملائم» لهذا الصيف أو الشتاء، أو لهذه الرياضة، أو وقت الفراغ، وما إلى ذلك. ويتمتع عمل النشطاء مثل موقع Adbusters و«ناعومي كلاين» Naomi Klein، من بين آخرين، بتأثير سياسي وثقافي - على الأقل من ناحية إدراكهم المتزايد بشأن قضايا معينة - والذي لا يدرك اليوم حتى بشكل ضعيف حقيقة أن «نايك» Nike أو «جاب» Gap، على سبيل المثال، بصرف النظر عن «ملاءمتها» لديهما أيضًا «تحديات» تتعلق بالعلاقات العامة المؤثرة التي تركز على استغلال العمالة في الدول النامية، أو أن «ماكدونالدز» McDonalds أو «كنتاكي» KFC لديهما مشكلات متشابهة تركز على القيمة الغذائية (والأخلاقية) لمنتجها وكذلك التكاليف البيئية المتعلقة بجلبه إليك لكي تتناوله؟ يتمثل معيار نجاحهم في أن هذه الرموز العالمية ورموز أخرى كثيرة يمكن الآن أن تتم الإشارة إليها - ودون تعارض - في آن واحد كمصنعين للسيجارة التي تسبب الموت أو أكثر شركات البترول جشعًا.

مشفر الرموز

بينما تصبح الشبكة أكثر لاسلكية وتصبح أطرافها أكثر حركة وأكثر تواجدًا في كل مكان بشكل متزايد، تقدم فرص الإعلام التكتيكي نفسها بشكل مستمر. وانبثق «مشفر الرموز» في عام 2002 عندما بدأت جماعات صغيرة من الناس والأفراد في إدراك أنه يمكنهم الاشتراك مجانًا في نقاط توصيل الدقة اللاسلكية wi-fi الخاصة بالأعمال أو المؤسسات. وقد تم اكتشاف أن نقاط التوصيل تقوم بإطلاق إشارة إنترنت لاسلكية يمكن أن تنتشر عبر المجالات العامة. وبالتالي فإن الشخص الذي لديه الحاسب المحمول أو جهاز PDA والرابطة المخصصة وبطاقة شبكية يمكنه أن يدخل شبكة مفتوحة كنظير للشبكة المحلية المصممة من خلال أسلاك Local Area Network (LAN) حيث إنه من المتوقع أن تصمم عن طريق أصحابها. ومن الممكن أن تكون «الرابطة المخصصة» شيئًا أساسيًا (أو بارعًا) مثل رقيقة «برينجلز» Pringles التي يمكن أن تلحق بحزمة أسلاك، حيث إنها في الواقع تعمل هوائيًا لتستقبل إشارة الشبكة.

يعتبر مصطلح «مشفر الرموز» جديدًا، لكنه يشير إلى لغة الصور التي طورها المتشردون خلال الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين في «الولايات المتحدة». نظام إشارات رديء يعمل كشكل من الاتصال بين المتشردين الذين يرسمون رموزهم المشفرة على الجدران، والأرصفة، وما إلى ذلك، وذلك إذا أساءت الشرطة مثلًا معاملة المتشردين في مدينة معينة، أو إذا كان هناك طبيب يطلب أجرًا كبيرًا في منزل معين، إلخ... وقد تمت صياغة المصطلح من قِبل مصمم المواقع في «لندن» «مات جونز» Matt Jones، الذي أنشأ موقعًا متخصصًا (www.warchalking.org). بالإضافة إلى الرسم على مبانٍ وما إلى ذلك للإشارة إلى نقطة توصيل مفتوحة، ويمكن للناس أيضًا استخدام مواقع مثل www.warchalk.org لإرسال رسائل تُعلِم بمكان النقطة المجانية التي يمكنك الوصول إليها لتصفح الإنترنت. إحداها التي تم إرسالها من قِبل «فليتش» Fletch، تقول:

> لديّ مكان جديد مفضل. «ستارباكس» **Starbucks** في «بـوردرز» **Borders**، في شارع «أوكسفورد» ويعد مكانًا مزدحمًا للغاية ومصممًا لتلبية احتياجات السياحة. وما أردته هو شيء أكثر برودة إلى حد ما ـ مكان أفضل لكي يتم التواجد فيه! والآن أنا أعترف بأن «ستارباكس» ليس في الواقع مكانًا باردًا، لكن هذه الأرائك مريحة للغاية ... لذلك فإن مكاني المفضل الجديد هو «ستارباكس نوتينج هيل جيت» **Starbucks Notting Hill Gate** (بجانب «أوكسفام» **Oxfam**). وتتخذ نقطة التوصيل الاسم المستبعد «فوتون» **futon** (كما ورد بالضبط) الذي قمت باستنباطه من واجهة متجر البطانيات القطنية المجاور، إنك تحتاج إلى الجلوس في الشطر الأمامي من المتجر لنيل استقبال جيد (على الأقل إنك تفعل ذلك مع الهوائي الداخلي الخاص بي). والأفضل من كل هذا، عندما يصبح الطقس أفضل يمكنك الجلوس خارجًا في الشارع وتتم سرقة حاسبك المحمول في طريق مجاور!
>
> (25 أبريل 2003)

وغير معروف ما إذا كان «فليتش» كان يسجل دخوله بشكل غير مقصود إلى خدمة «الدقة اللاسلكية» wi-fi التي تقدمها «ستارباكس» (برسوم) في بعض مؤسساتها، أو كان هو/ هي

يستخدم «واي فاي» المجانية في «ستارباكس» ويستقبل الإشارة من مكان ما آخر. وبطريقة ما، يبدو متجر البطانيات القطنية أقل ملاءمة من «ستارباكس» ليكون نقطة توصيل للإنترنت. ولا أفترض أن ذلك يمثل أهمية. والشيء المدهش هو ظاهرة التسلل المستمر في الفضاء الإلكتروني ذاته. ورغم ذلك، يبقى ذلك ليبدو كيف أن مشفر الرموز سوف يصبح أمرًا مبسطًا. ولا يعد ذلك ثوريًا تمامًا، ويوحي بأكثر من مجرد أنانية ونزعة ساخرة: «مكان أفضل لكي يُرى» حتى «يُسرق حاسبك المحمول». وأيضًا، فإن ذلك يشبه ركوب المواصلات العامة مجانًا ـ يمكنك أن تخلق حالة جيدة من أجل ذلك إذا كنت فقيرًا، لكن لو فعل كل شخص ذلك فإن الرسوم سوف تصعد، أو سوف تتزايد الضرائب، وإذا لم يعمل هذا فقد تنخفض إتاحة المواصلات العامة. إن التنقل عبر «لندن»، أو «نيويورك»، أو «سيدني» بآلاف قليلة من الدولارات قيمة المكونات المادية للحاسب الآلي الذي يحتاج إلى تركيب مجاني لنقطة التوصيل لا يجعل كل ذلك بأي حال شيئًا عمليًا للغاية. وفي مواقف كثيرة واضحة يثبت أن مثل هذه التكتيكات قد تكون غير عملية، أو بطيئة للغاية مقارنة بالهواتف المحمولة وإرسال الرسائل النصية. علاوة على ذلك، تعد الجماعات المجتمعية التي تدافع عن الشبكات المعتمدة على المجتمع الحر غير متحمسة لذلك. وقد أورد أحدهما مثالًا في موقع ZnetUK technology، عندما كان التساؤل عما إذا كان مشفر الرموز شيئًا جيدًا، فقال: «أنا أعد واحدًا من هؤلاء الناس الذين يحاولون تشجيع الشبكات المجتمعية بشكل جاد وإذا بدا هذا النشاط نوعًا من المؤامرة فإنه سوف يتحطم» (لوني Loney 2002).

ومثل التهرب من الأجرة، ربما يكون مشفر الرموز مقدمة لعنصر «ديفيد» مقابل «جولياث» التي ربما تحجب ما تقوم أنت به بالفعل. علاوة على ذلك، وبالاتصال به مرة أخرى، وبشكل خيالي إلى حد ما، فإنه لكي يتم التحكم في الأحوال الاقتصادية، عندما لا يقترب «المتشرد» من بعد من واضعي مشفر الرموز المجهزين اليوم بالحواسب المحمولة وأجهزة PDA، ربما يعمل على مد التشابه الجزئي الخاسر لمسافة بعيدة بعض الشيء. وذلك يفرض أيضًا على الخيال إيجاد مكان له داخل تصنيف الإعلام التكتيكي لـ «لوفينك» و«شنايدر». وربما يتحول مشفر الرموز لكي يصبح ولعًا بالاصطدام والاحتراق، أو قد يمثل بدايات لشيء ما ضخم. لكن السفر تطفلًا على خادم Server مشترك في «ستارباكس» أو في ركن محجوب في منطقة أعمال مركزية

بمدينة كبيرة يبدو وكأنه مشروع فردي بشكل أساسي يخدم الطبقة الرقمية الكادحة المنبوذة اجتماعيًّا. وأعتقد أن ما يجري بسببها هو أنها توضح أن الأفراد ـ بغض النظر عن كيف أنها تحولت إلى سلعة وتم استغلالها من قِبل منطق رابطة الليبرالية الجديدة / تكنولوچيا المعلومات والاتصال ـ سوف يبتكرون دائمًا مجالات على الأقل عند استقلال جزئي من أجل أنفسهم. علاوة على ذلك، هناك على الأقل سعي التدمير والخلق هنا، بغض النظر عن الدافع. إذن ربما لا يكون مشفر الرموز هو بدايات الثورة الرقمية، لكنه يعد مجرد بعد للحياة في اقتصاد الشبكات الذي يبدي فهمًا تكنولوچيًّا وثقافيًّا والذي ربما يساعد في تشكيل الأساس لخبرة أكثر ثراءً وأكثر توجهًا للاتصالات أو منافسة ثقافية في صراعات الإعلام التكتيكي المستقبلي.

الأداء الرقمي المباشر

وبينما يوجد مزيج المستويات الثلاثة لمذهب الفاعلية لتكنولوچيا المعلومات والاتصال الخاص بكل من «لوڤينك» و«شنايدر»، يقدم مجتمع «راكيس» Ruckus إصدارًا لأداء أكثر جوهرية ومباشرة فيما يحاول أصحاب موقع Adbusters تحقيقه، وفي حين تكون حركة مشفر الرموز في شكلها الناشئ والمؤثر. ولدى هذا المجتمع نزعات مختلفة بيئية وغير حكومية، لكن هذه المنظمة المستقرة في «أووكلاند» Oakland بـ «كاليفورنيا» تورط نفسها في صراعات المجتمع المدني الذي يشمل كافة القطاعات. وباستخدام تكنولوچيات المعلومات والاتصال كأداة لتماسكها التنظيمي، تقوم بجذب الناس جميعًا من أنحاء «الولايات المتحدة» وباقي العالم ليتعلموا التكتيكات السلمية لحركة الفعالية المجتمع المدني العالمي. ومن خلال الإنترنت، وقوائم البريد الإلكتروني، ولوحات النشرات يعلن عن «معسكرات التدريب التقني» الدورية حيث يجتمع النشطاء لاكتساب مهارات المقاومة من خلال تكنولوچيات المعلومات والاتصال. وفيما يسمى بالمحاولة الأساسية لخلق مجتمع مدني جديد، فإن متطوعي «مجتمع راكيس» يمكنهم حضور هذه «المعسكرات» لتعلم مهارات مذهب الفعالية الإعلامية. وفي حركة انفصالية كان من المتوقع أن يعودوا إلى وطنهم وإلى منظماتهم المجتمعية الخاصة بهم لنقل ما تعلموه. إن التأكيد الذي وضعوه على تكنولوچيات المعلومات والاتصال كسلاح للعدالة الاجتماعية والتغير الاجتماعي يعتبر لافتًا للنظر. ويؤخذ في الاعتبار «معسكر أداء صندوق

الأدوات التقني» الذي واصل انعقاده في «أوكسيدينتال» Occidental بـ «كاليفورنيا» من 26 يونيو حتى 2 يوليو 2002. وفيما يتعلق بهذا الحدث صرحت ملاحظة لوحة النشرات بأن «المعسكر سوف يعرض مكانًا للنشطاء لتقييم وتعلم كيف أنهم ربما يستخدمون التكنولوچيا في عملهم وحملاتهم، جنبًا إلى جنب مع هؤلاء الذين يقومون بنفس الأنشطة» (راكيس 2002a). وكان من بين الموضوعات التي قام المشاركون بتغطيتها:

- تنظيم الإنترنت.
- الإعلام المستقل.
- الاتصالات التكتيكية من أجل أداء مباشر وسلمي.
- التعاون الآمن.
- المراقبة الإلكترونية والمراقبة المضادة.
- المعامل القانونية من أجل النشطاء التقنيين.
- التشوش الثقافي وتقديم الرسائل الإبداعية.

وكما ذكر من قبل، بعد تدريبهم، يتم تشجيع المشاركين على «العودة للوطن وترجمة ما [تعلموه] إلى فعل على المستوى المحلي» (راكيس 2002b).

وبوعي أو بدون وعي، يبدو أن العدد المتنامي من المجموعات مثل «مجتمع راكيس» وموقع Adbusters قد تم إدراكه، ويعبر ما يعرضه واضعو مشفر الرموز بغض النظر عن دافعهم، عن أهمية الجدل الذي يدور حول «فهم الإعلام» و«فهم التكنولوچيا» في الفصل الثاني. وكما ذكرت بعد ذلك، فإن ذلك لا يكفي للحصول على المهارة التكنولوچية داخل مجتمع الشبكات. وللحصول على أية فرصة للتمكين الشخصي والجماعي، لا بد للشخص أيضًا أن يقوم بتطوير وشحذ الفهم الإعلامي. ويمثل الفهم الإعلامي القدرة على استيعاب الأطر الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية التي من خلالها تم تصور، وتطوير، وتطبيق تكنولوچيات المعلومات والاتصال، تحت حماية الليبرالية الجديدة. إنه يفسح المجال للقيام بـ «خطوة للخلف»، والتقييم، والتفسير، والنقد. وسوف يكونوا قادرين على فهم تكنولوچيات

الإعلام والاتصال واستخداماتها الفعلية والممكنة في المجتمع. علاوة على ذلك، فإن فهم الإعلام المشحوذ يغذي فهم التقنية عكسيًّا، ليسمح للنقد بأن يقوم بعمله اعتمادًا على الطرق التي يمكننا من خلالها استخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصال ذاتها، بطرق يمكن أن تكون مبتكرة، وخلاقة، ومهيأة للاستخدامات البديلة و«غير المتوقعة». ويعبر ربط الفهم الإعلامي بالفهم التكنولوجي عن الكفاءات الثقافية التي تشمل الأدوات الضرورية الرئيسية لموقع Life.com، وكذلك الأسلحة والتكتيكات التي يمكن أن تساعد في تغييره. ويعكس هذا الجدل التكنولوجي الثقافي ضرورة «رغبة وقدرة» التكتيكي الإعلامي الذي وصفه من قبل كل من «لوفين» و«جارسيا» في كتابهما «أب إعلام تكتيكي» (1996). وقد ذكرا أن الرغبة والقدرة» تمثلان إضعافًا للتكتيكي الإعلامي، والقدرة على خلق «إمداد متواصل للتقلبات والامتزاجات ... لعبور الحدود، والاتصال، وإعادة إنشاء شبكة أسلاك ...» لتخريب شبكة الليبرالية الجديدة. ويعبر مثل هذا المصطلح «الرغبة والقدرة» عن خيال يصف البدائل والسعة التي تجعلهم سعداء ـ والذي يشكل الشيء الضروري لفرد حرب عصابات الشبكات.

ومن السهل فهم كيف أن الجماعات الافتراضية مثل موقع Adbusters والجماعات التي تعتبر مادية وكذلك افتراضية مثل «مجتمع راكيس» يمكن أن تكمل بعضها البعض، ويكون لديها الكثير من التغييرات في الأنظمة الثقافية والسياسية االمختلفة. ويعمل الناس من خلالهما، وكذلك بالنسبة للجماعات الأخرى مثل «جرينبيس» Greenpeace، و«فريندز أوف إيرث» Friends of Earth ومنظمات أخرى سياسية ومجتمعية متنوعة. وتعد اتصالاتها المتبادلة كثيرة، ومتنوعة، ومتنامية. فهي تشكل شبكة الشبكات التي تمتد من المحلي إلى العالمي وتأسست على التوتر الذي يتخلل الهدف المشترك بمعارضة هيمنة العولمة الليبرالية الجديدة. وتتخذ هذه الجماعات أيضًا، في اعتقادي ـ الخطوات الأولى نحو التغلب على المأزق السياسي المركزي الذي يحدده «هاردت»: ذلك التوتر بين نشطاء «الاستقلالية القومية» ونشطاء «العولمة البديلة». والنقطة هنا، كما يبدو لي، تتمثل في تكنولوجيات المعلومات والاتصال ذاتها وقدرتها على تسوية هذه المواقع باعتبارها قادرة على أن تكون محلية وعالمية في نفس الوقت. وتؤكد كل المواقع على الحاجة إلى العمل محليًّا في البداية، وسوف يساعد هذا على تدعيم الهوية المحلية والقومية. وسوف يقوم دائمًا هذا الشكل من «السياسة الجذرية» بتقديم المحلي على العالمي وتكوين

أساس لـ «الاستقلالية القومية» الديمقراطية. ورغم ذلك، لا بد أيضًا أن تدرك كل المواقع أنه لا يمكن التخطيط بهدف تفكك وانهيار «العولمة». وليس من الممكن العودة إلى النماذج الإقليمية والعزلة الثقافية، والاقتصادية، والسياسية النسبية التي كانت موجودة قبل سبعينيات القرن العشرين. بالإضافة إلى أن الليبرالية الجديدة جعلتنا مجددين. تعتبر المناقشة أكثر دقة فيما يتعلق بالأشكال التي قد تتخذها العولمة، مع التأكيد على الجماعية. وتعد «السياسة الجذرية» المتعلقة بعامة الشعب والتي تستند إلى شبكات تكنولوجيا المعلومات والاتصال وإمكاناتها بشأن التغيير الاجتماعي هي المكان المثالي لأداء هذا العمل. ويمكن أن يقوم كل من مذهب الفعالية الديمقراطية والسياسة المرتبطة بالمحلية، من خلال «شبكات الشبكات» بالعمل والتنظيم بشأن ما هو عالمي عن طريق اتصال متبادل عميق ومستمر بين الأفراد، والجماعات، والحركات عبر أنحاء العالم. ولدى مثل هذه «القوة عبر الشبكات» تأثيرًا على الطريقة التي من خلالها تتصور الليبرالية الجديدة حاليًا أن كوكب الأرض هو المكان النموذجي الخاص بها ليكون مجالًا للتسويق والتعامل بالمبدأ السلعي. وإذا كان يمكن تطبيق هذا كـ «خطوة تالية للأمام»، أو على الأقل كبداية للإجابة عن السؤال: «من هنا إلى أين؟»، وسوف يجبر أباطرة الليبرالية الجديدة في «وول ستريت» وفي «منظمة التجارة العالمية» WTO و«صندوق النقد الدولي» IMF إلخ... على الاستماع إلى أصوات هؤلاء الذين يبدأون بالكاد في التوصل إليهم.

قراءات أخرى

Lovink, G. and Garcia, D. (1996) *The ABC of Tactical Media.* http://www.timesup.org/Times.UP/ABC.html

Jordan, T. (1999) *Cyberpower: The Culture and Politics of Cyberspace and the Internet.* New York, NY: Routledge.

Manovich, L. (2001) New media: a user's guide, Sarai Reader: http://www.sarai.net/journal/pdf/100–108%20(user%27s).pdf

www.adbusters.org (Website devoted to network-based activism influenced by Situationism).

www.ruckus.org (US-based Internet activism influenced by a blend of non-violent direct actions, anarchism and environmentalism).

الفصل السابع مجتمع مدني شبكي؟

> اليوم لم يعد هناك متشائمون ومتفائلون. هناك فقط مقرون بالحقائق وكاذبون.
>
> (فيريليو Virilio 2001: 221)

أين نحن اليوم؟ ناقشت الفصول السابقة تأثيرات الثورتين، ثورة العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوجيا المعلومات على الإعلام وعلى القوى المحركة للإنتاج الثقافي. وكما رأينا، تأثر كل من الصناعات الإعلامية والإنتاج الثقافي بالرقمية والعولمة إلى درجة وجود مجالات قليلة أو عدم وجود مجالات «خارج» نظام المعلومات حيث توجد القوى المحركة للقوة من أجل تشكيل العالم. ولقد رأينا أيضًا تأثير هذه الرابطة على عمليات السياسة وعمل المجتمع المدني. وشهدنا أن مجتمعًا مدنيًّا عالميًّا جديدًا هو محاولة لبزوغه وتحرير نفسه من قيود مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة. وذلك يمثل محاولة لفعل هذا مع أدوات مجتمع الشبكات ذاته، ومع تكنولوجيات المعلومات والإعلام بشكل عام وشبكة الشبكات التي تضم الإنترنت. وأخيرًا، يكون ذلك من خلال سياسات تقنية جديدة وإعادة تنشيطها، وما أحاول إيضاحه، أننا ربما نقابل أفضل فرصة لتغيير سيطرة نظام الليبرالية الجديدة الحالي.

ومن ثم إلى أين نحن ذاهبون؟ بشكل لافت للنظر، فإن المستقبل غير متوقع. ونحن نحصل فقط على معرفة طفيفة، ربما يصبح بعضها مرشدًا مهمًّا في ضوء الأحداث اللاحقة. علاوة على ذلك، فإن الاعتماد على الاتجاهات والمسارات من أجل تخمين ما قد يحدث، كما يفعل الكثير من سماسرة الأسهم، والاقتصاديين، وآخرين تعتمد أعمالهم على التنبؤ

وأعمال المخاطرة. وكما كتب «والتر لاكويور» Walter Laqueur (2002) بشأن علم التنبؤ في السياسة،

> **أحد أكثر الأخطاء شيوعًا التي ارتكبت بواسطة المفكرين في السياسة هو افتراض أن اتجاهات مدركة معينة المطورة سوف تبلغ المستقبل القريب. لا يقدِّر هؤلاء المفكرون العقبات الضخمة ويتجاهلون العوامل المعرقلة التي تمتد عبر تلك التطورات بشكل حتمي.**

لقد حددنا بالفعل بعض الأهداف في حركة المجتمع المدني المنبثق، لكن، وباتباع نصيحة «لاكويور»، لن أذهب لوضع أية افتراضات أو تصور أية استنتاجات متعجلة فيما يتعلق بما قد يدل عليه كل هذا. وما أريد القيام به في هذا الفصل الأخير هو النظر بشكل واقعي ومحايد تجاه «ما يحدث» في هذه السنوات الأولى للقرن الحادي والعشرين. نحن ننظر بشكل أساسي إلى قوتين متنافستين في تطوير مجتمع مدني جديد. يرتبط كل منهما جدليًّا بتأثير كل منهما على الآخر بطريقة إما إيجابية أو سلبية. وما أود أن أركز فيه هنا هو كيف أن الجدل متوازن.

والقوة الأولى، بالطبع، هي أن العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات، والقوة الثانية ـ نقيض رابطة الليبرالية الجديدة/ ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال ـ هي حركة المجتمع المدني العالمي. وبعد وصف العوامل البارزة للقوى المحركة الثنائية، سوف أنتهي ببعض المناقشة في محاولة لإضفاء بعض المعاني عليها. وفي هذا الصدد، سوف يستفيد القارئ ببعض الفهم لـ «ما يحدث» وكمٍ كافٍ من المعرفة الطفيفة بشأن ما هو مطلوب للحصول على مجتمع مدني عالمي شامل، ومتنوع، ومتعدد الثقافة، المجتمع الذي ينمو من الداخل ويساعد في تطوير مجتمع الشبكات بالطرق المستندة إلى الديمقراطية وكذلك العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

العولمة الليبرالية الجديدة اليوم

وبتكرار تحذير «لاكويور» مرة أخرى، أرى أن «الاتجاهات التطويرية» لليبرالية الجديدة التي ركز عليها هذا الكتاب كثيرًا ليست حول «بلوغ المستقبل القريب». وتعد الإشاعات التي تركز

على انتهاء الليبرالية الجديدة سابقة لأوانها إلى حد ما. وتستمر الخطة الأيديولوجية التي بدأت في بداية الثمانينيات من القرن العشرين لتحويل العالم إلى اقتصاد السوق لتعمل قدمًا. ورغم ذلك فقد سببت كوارث اقتصادية، واجتماعية، وثقافية، ولقد انتهت في يقظتها الشاملة بشكل متزايد. وهي تفعل ذلك، طبقًا لقول «پيير بوردو» Pierre Bourdieu السابق، بسبب:

> **يستمد برنامج الليبرالية الجديدة قوته الاجتماعية من القوة السياسية والاقتصادية لهؤلاء الذين لديهم مصالح: أصحاب الأسهم، ومديرو المؤسسات التجارية، وأصحاب المصانع، والسياسيون المحافظون أو الاجتماعيون الديمقراطيون الذين آمنوا من جديد باجتناب التدخل الحكومي، وتحمس كبار الموظفين الماليين لفرض سياسات تدافع عن قضية تجاهلهم، خلاف مديري المزارع، حيث إنهم لا يتعرضون في النهاية لمخاطرة تحمل العواقب.**
>
> (بوردو 1998)

عندما يكون هؤلاء الذين في وضع القوة هم الذين يديرون أقل نسبة مخاطرة، فإن الدروس العامة إذن في الاستقامة المالية والاجتماعية لا تتجه نحو الانحدار. وطبقًا لذلك، فإن الكوارث الاقتصادية والاجتماعية في «المكسيك» عامي 1994-1995، وفي «أندونيسيا» و«تايلاند» عامي 1997-1998، أو «روسيا» عام 1998، وفي «الأرجنتين» عامي 2002-2003 بدت مجرد مشكلات. حتى عندما تكون الكوارث قريبة من الوطن، بعيدًا عن التعاسة الصامتة وغير المرئية بشكل كبير في العالم النامي، فإن الدروس يتم تجاهلها أو استبعادها. وكان انبثاق ثورة شركات التجارة الإلكترونية في عام 2001 يعني ـ بالنسبة للملايين في العالم المتقدم ـ فقدان الوظائف، وحسابات التوفير، ودخل المعاشات. وفي خلال نفس الفترة، تراجع إلى حد ما التكتم المشترك ليتم الكشف عن فضائح «إنرون» Enron، و«وورلد كوم» WorldCom وآخرين. وهنا، كان الاعوجاج في قسم المديرين التنفيذيين ممزوجًا بحقيقة أنهم سرقوا أو أساءوا استغلال صناديق أموال الملايين من الناس العاديين، هؤلاء نفس الناس الذين أخبرهم نفس المديرين التنفيذيين وخبراء «وول ستريت» Wall Street بأن سوق الأوراق المالية والشركات مثل «إنرون»، أو «وورلد كوم» كانت أكثر الطرق ضمانًا لـ «تنمية» أموالك. وباستبعاد بعض حالات السجن، فإن هؤلاء الذين أحسنوا استخدام «القوة السياسية والاقتصادية» يعيشون على صفقة أخرى

مضمونة، ويحققون حتى الآن مكاسب أخرى، ويسلبون حتى الآن الأصول. وفي نفس الوقت فإنهم يمثلون قوة ضاغطة على «منظمة التجارة العالمية» WTO، أو «البنك الدولي»، أو «صندوق النقد الدولي» IMF لإعطائهم الحرية (المالية أو القانونية) لنشر مذهب الليبرالية الجديدة بشكل أعمق وأوسع.

تعد «منظمة التجارة العالمية» منظمة غير مسؤولة وغير محدودة ومتعددة الأطراف بشكل أساسي، وقد أصبحت في مقدمة عملية تحول العالم إلى الليبرالية الجديدة. وهي تعمل كهيئة «شرعية» للشركات متعددة الجنسية واقتصاديات السوق الحرة. ومنذ عام 2000 على الأقل تم بذل مجهود ضخم فيما يطلق عليه موقع «منظمة التجارة العالمية» «الليبرالية الإضافية» لسوق الخدمات العالمية» (منظمة التجارة العالمية 2003). ويعد هذا في الواقع حصدًا لأية أموال متبقية من مقاومة الليبرالية الجديدة حول العالم وتصفية باقي المرافق المملوكة للدولة (عادة في أفقر الدول الفقيرة) مثل المياه، والاتصالات عن بعد، والكهرباء. وفي تبرير ذلك، تردد «منظمة التجارة العالمية» عبارة سياسة التدخل الحكومي المتنبأ بها حاليًا، حيث سوف تقدم عملية تصفية البنية الأساسية العامة في الدول النامية «خدمة أفضل»، و«أسعار أقل، وجودة أعلى» (منظمة التجارة العالمية 2003). رغم ذلك، في يونيو 2000، تم إطلاق النار، والضرب بالهراوات، وإطلاق الغازات المسيلة للدموع على المتظاهرين «البوليفيين» الذين كانوا يطالبون بالتغيير وذلك من قِبل شرطة مكافحة الشغب بسبب تهورهم في الاحتجاج على قيام الملاك الجدد لمرفق المياه برفع رسوم المياه بنسبة 200 في المائة، «المياه العالمية في لندن». لم يسألهم أحد ما إذا كان بيع مياههم إلى شركة بريطانية متعددة الجنسية ـ التي سوف تبيعها مرة أخرى إليهم بفائدة ـ تعد فكرة جيدة. ويرى القائمون بالحملات من «حركة التطوير العالمية» World Development Movement أنه رغم انتهاك مبدأ «خدمات أفضل»، فإنه يتم دفع الاتجاه لـ «تحرير» كل ما تبقى من الملكية العامة في العالم بشكل أقوى وأقوى من قِبل «منظمة التجارة العالمية». وتمثل النتيجة الحتمية لكوكب مخصخص بالكامل في أن الشركات متعددة الجنسية سوف تكون حرة «في تحديد ثمن الإمداد [بالخدمات الأساسية] لجزء من 1.2 فوج من الأشخاص يعيشون على أقل من دولار واحد يوميًا» (إليوت Elliot 2003).

وتضمن أيضًا هذا الاستيلاء المستمر على المجالات العامة والاجتماعية من قِبل الهيئات

الخاصة، كما رأينا، الشؤون الثقافية. وقد تم إضفاء الطابع التجاري و/ أو الطابع الغربي على الثقافات وأساليب الحياة المحلية، في كل دولة وعبر كل قارة. وربما تكون «أفريقيا» هي أكثر أقاليم العالم تهميشًا بالنسبة للعولمة الليبرالية الجديدة، وبالرغم من أن الثقافات المتعددة في القارة تم استعمارها بشكل قاسٍ بنفس الطريقة التي اتخذت في أي إقليم آخر. وكما يقول الصحفي النيجيري «وولي أكاندي» Wole Akande (2002)، «أصبحت ثقافتـ[نا] ـ سواء كانت موسيقى، أو طعام، أو ملابس، أو فن، أو رياضة، أوصورة الكبار والشباب، أو الذكورة والأنوثة ـ منتجًا [معدًا] للبيع في السوق». إذا لم تكن الثقافة للبيع، أو كانت غير قابلة للبيع، يتم تهميشها أو طمسها. وهذا الاستعمار الثقافي المستمر يعني حتمًا أننا في طريقنا إلى المشاركة في نفس القيم الثقافية، ونستخلص معانٍ ثقافية متشابهة، ونفكر ونختار داخل حدود مشابهة (ضيقة ثقافيًا): «كوكا» أو «بيبسي»، «ماكدونالدز» أو «برجر كينج»، «فريندز» أو «سيكس أند ذا سيتي»، «نايك» أو «أديداس»، «فورد» أو «تويوتا»، وما إلى ذلك في كل مكان. وفي نفس المقال يستشهد «أكاندي» بقول رئيس مجلس إدارة شركة «كوكا كولا» الذي، بلا شك وبشكل غير مقصود، يعرض القضية بشكل دقيق للغاية عندما قال إن «الناس اليوم في أنحاء العالم يتعاملون مع المنتجات الاستهلاكية ذات العلامة التجارية مثل تعاملهم مع أي شيء آخر».

رغم كل هذا، فمن الخطأ ـ في رأيي ـ تخيل أن السيطرة والتوسع المستمرين لـ «برنامج الليبرالية الجديدة»، كما يطلق عليه «بورديو»، تعد دليلًا على قوة اجتماعية وثقافية واقتصادية إيجابية وحيوية ونشطة. ويخص كل من الخوف وعدم التأكد عمل الليبرالية الجديدة. وقد ناقشنا في الفصل الثالث مفهوم «بيك» Beck حول مجتمع الخطر، حيث يخلق التعقيد المتزايد للعلم الصناعي والتكنولوجيا ـ والذي يمثل الآن «علمًا تقنيًا» للسوق الموجه ـ المخاطر والمجازفات التي لدينا قدرة قليلة على التنبؤ بها ومعالجتها بشكل فعال. وفي هذا السياق، يؤخذ في الاعتبار الفزع من (مرض جنون البقر) BSE خلال التسعينيات من القرن العشرين في «بريطانيا» وفي كل مكان، ويؤخذ في الاعتبار محرقة الحمى القلاعية في نفس الدولة خلال عام 2001 عندما أطلق النار على ملايين من الماشية والخراف، ثم دفنت و/ أو جرفت في حفر شاسعة، ويؤخذ في الاعتبار العلم المبهم والفهم البسيط وغير الواضح للاحتباس الحراري المتعدد الأوجه والتأثيرات الخطيرة المسببة للدمار الهائل على البيئات والمجتمعات في كل مكان، ويؤخذ في

الاعتبار أيضًا ـ إذا كان يمكن لأحدهم اتخاذ كل هذا مرة واحدة ـ المناقشات المشوشة حول الأغذية المعدلة وراثيًا وما إذا كنا نقوم (بالفعل) بزرع قنبلة موقوتة في السلسلة الغذائية للإنسان. ويعني منطق المنافسة والتسريع داخل مجتمع الشبكات أن ما أطلق عليه «بيك» «الأعضاء الحسية للعلم»، التي تساعد المجتمع في التنبؤ بالخطر والتخطيط لمواجهته قد أصبحت خامدة النشاط لتتركنا عُميًا عما هو أمامنا، وبالتالي تزرع القنابل الموقوتة بيننا (بيك 1992: 162). وعدم رؤية الخطر لا تعني أننا غير مدركين له بشدة ـ بعيدين عنه. وقد جعل عدم ظهور الخطر العالم مكانًا أكثر امتلاءً بالشك (بُعدٌ آخر لقول «إريكسن» Eriksen (2002: 1) «مرحلة الشك في العولمة») وهذا يغذي الشك بشكل مباشر مما يضعف المنافسة في السوق.

ويؤخذ في الاعتبار أيضًا ڤيروس «سارس» SARS (الأعراض التنفسية الحادة الخطيرة) الذي يسبب الفزع من الخطر الشخصي والخطر الاقتصادي من منظور واحد موحش. ويعتقد أن ڤيروس «سارس» قد نشأ جنوب «الصين» عام 2003 من «أزمة المواد الكيميائية والڤيروسات» القوية التي توجد في السوق الحرة الخاصة بالأعمال الزراعية في الدول النامية (ماكدونالد McDonald 2003). وتعد هذه الكلمة المركبة قاتلة بلا شك، وإن أصبحت إحداها غير مهمة عند مقارنتها بأعداد ضحايا مرض السل، أو حتى الأنفلونزا المألوفة. ومن المحتمل أن يكمن الڤيروس ويصبح ساكنًا. ورغم ذلك، فقد تم أكسجته من قِبل الإعلام، وقد ازدهر ونما الڤيروس وأصبح فتاكًا بشكل مؤثر ليسبب حالة من الخوف وعدم التأكد في الاقتصاد العالمي. واستحوذ الخوف على الاقتصاديين وعلماء الاجتماع خاصة في الإقليم الآسيوي بشكل غير منطقي. وفي عالم مليء بالاتصالات المتبادلة بشكل محكم، يتزايد علم الاجتماع الطبي سريعًا على الاقتصاد. وفي حركة سرعة وذعر غير عاديين، صرفت الحكومة الصينية عمدة «بكين» من الخدمة في أبريل عام 2003 لعدم تفاعله مع الجمهور، والإعلام، والأسواق التجارية بالشكل الكافي. إلى جانب إنشاء «معسكر حجر صحي» ضخم أغلق أسواق الغذاء، ومقاهي الإنترنت، ودور السينما، وأماكن التجمع الأخرى في محاولة لوقف انتشار العدوى. وعند إعداد هذا الكتاب، مات بالفعل ثمانية وأربعون شخصًا في «الصين» (أرميتاج Armitage 2003). وقد أصدرت «منظمة الصحة العالمية» WHO تحذيرات في رحلات الطيران عند استضافة رعايا دول جنوب شرق آسيا ـ وحتى مدينة «تورنتو» في «كندا»، حيث حالات

الوفاة المتعددة المسجلة، وأغلقت «تايوان» حدودها مع «الصين»، و«هونج كونج»، و«كندا» فيما كان يعتقد أنها طريقة «عنيفة» لوقف انتشار العدوى (لورانس Laurance 2003). ويمكن اعتبار أن هذه الطرق، في حد ذاتها، قادرة على أن تكون متدبرة للعواقب، وربما تحد من انتشار الفيروس. ولكن في عصر العولمة لا يمكن لأي شيء أن يكون في عزلة. وكان لمرض «سارس» تأثير شديد واقتصادي وقوي. وفي نظام عالمي لـ «التدفقات» يدور حول الاتصال المتبادل للناس، والأسواق، ورأس المال، والتكنولوجيا، وبشكل غير منطقي، تعد مثل هذه الطرق الصحية العامة الرصينة أخبارًا سيئة. وفي «سنغافورة» تلك الدولة الهادئة والمتزنة، كمثال، أثار «چوه تشوك تونج» Goh Chok Tong الموضوع في مقابلة بمحطة «بي بي سي» BBC، تمامًا مثلما كان الذعر الإعلامي يبدأ في الرسوخ:

> **يمكنني القول [إنه] إذا كان يمكننا احتواء الفيروس، إذن يمكننا أيضًا احتواء الذعر، والخوف من هذا الانتشار. وإذا لم نتمكن من احتواء هذا وخروج ذاك عن سيطرتنا، فإنك،بالطبع، في طريقك لمقابلة مشكلة ضخمة للغاية، ليس فقط حول سلوك الناس وطريقة معيشتهم، لكن حول الاقتصاد ككل.**
>
> (بوتوملي Bottomley 2003)

إذن فمن الواضح، أن هياكل الليبرالية الجديدة، وقانون السوق، يعتمد على تغيير الأنظمة بشكل مستمر. ولا يوجد شيء مؤكد وتوجد أشياء كثيرة غير معروفة. إن مرض «سارس» سوف يأتي ويذهب، حيث ستبدأ «الأرجنتين» عند مرحلة ما ـ لكن ماذا بعد ذلك، وأين؟ إن الصرح بالكامل يتصدع ويتشقق ويهدد بالانهيار في أي وقت، كليًا أو جزئيًا.

إن النظام الاجتماعي المنتشر عالميًا المعتمد على المنافسة الشرسة، والفساد المستشري، وسوق الأوراق المالية المضطرب، والأنظمة السريعة وذات الأجل القصير لا يمكن لكل ذلك أن يوفر الأمان والقدرة على التنبؤ. وتستمد الليبرالية الجديدة قوتها الخاصة من «السوق»، التي يفترض أنها تجعل كل شيء متوازنًا. وبشكل متوقع، لم يعد «التوازن»، أوالجوانب الاجتماعية، أوالاقتصادية، أوالثقافية، أو أي شيء غير ذلك سمات ملحوظة خلال الأعوام العشرين الأخيرة من قانون الليبرالية الجديدة. فما الذي يجعلها إذن تبقى في مكانها؟ وتعد الأيديولوچية هي العنصر الرئيسي في وجودها المزيل المستمر، كما تم التوضيح في الفصل الأول. فهي تمثل

المبدأ الرئيسي للسوق الحرة، والتي يتم الحفاظ عليها من قِبل هؤلاء الذين في مواقع النفوذ والتأثير والذين لديهم الكثير جدًا مما يجعلهم يربحون عن طريق تدعيم نظام يعمل (أولًا وقبل أي شيء) من أجلهم. وتتم مناقشة مذهبهم بكثرة (الذي يمكنه بالكاد تدعيم التفحص والنقد) من خلال مناقشات تنقصها الفعالية والقوة والتوازن من أجل نظام بديل للمنظمة الاقتصادية والاجتماعية. وباختصار، بالنسبة للبشرية التي تناضل يوميًّا داخل نظام غير عادل، وتعلمت ضمنًا وصراحة أن ما تقوم به عائد عليك ولا بد أن «تغرق أو تعوم»، ولا تبدو هناك طريقة أخرى يمكن تخيلها. وهكذا، يعلمنا النظام الحالي ببساطة أنه حقيقة قاسية في الحياة.

الاتجاهات المتعارضة المنبثقة من المجتمع المدني الشبكي

وإذا قمت باسترجاع الكلمات المنقولة عن «وليامز» Williams في الفصل الأول حيث يقول إنه سوف يكون هناك دائمًا ناس يتقبلون النظام المسيطر أو الأيديولوچية المهيمنة. وتبدأ الأعداد المتزايدة من الناس في فهم الليبرالية الجديدة حيث تعني: النظام المدمر للاقتصاديات، والأقاليم، والثقافات، والأعمال، والبيئات الطبيعية، والأفراد. وكان «كارل ماركس» Karl Marx يرى أن الطبقة الرأسمالية هي التي تزرع بذور تدميرها، وتصنع «حفارين قبورها» متمثلًا ذلك، كما قال، في (طبقة العمال). وما أراد «ماركس» توضيحه هو عملية الجدل، حيث تسبب طبيعة الرأسمالية جعلها تولد نقيضها بشكل لا يمكن تجنبه. والسؤال الجوهري الذي يواجهنا هو كيف سينمو تدريجيًّا هذا النقيض داخل مجتمع الشبكات. والمثال الرئيسي لنقيض مجتمع الشبكات، أو الخلاف الجدلي يعبر بالطبع عن حركة المجتمع المدني العالمي ذاته. ومن تنوع الأقاليم والظروف، يتضمن «حفارون القبور» هؤلاء مرحلة أكثر اتساعًا بكثير من الطبقة العاملة الماركسية التقليدية. ويثار الآن جميع أنواع القضايا وجميع أنواع الناس من كافة مسارات الحياة بسبب حالات خراب ناتجة عن قانون السوق غير المقيد بشكل متزايد.

وبالتركيز على حركة مناهضة التعديل الوراثي (GM)، الحركة التي يمتد نشطاؤها عبر الكرة الأرضية والتي ترتبط مجالات اهتمامها بحركات بيئية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية أخرى تتضمن المجتمع المدني العالمي المنبثق. وخلال فترة التسعينيات من القرن العشرين، اتحد كل من مذهب ليبرالية السوق الحرة والتقدم في البيولوچيا الجزيئية، وتكنولوچيات المعلومات

لإنتاج حفنة من الشركات المتعددة الجنسية التي أقرت بأنها يمكنها تغيير التركيب الوراثي للمحاصيل الغذائية الرئيسية في العالم - مع عدم التفكير في كيف أن الناس العاديين والمستهلكين ربما يشعرون بذلك. عرض الأغذية المعدلة وراثيًّا مثل فول الصويا على سبيل المثال، حيث إن الآثار طويلة الأجل على البيئة وعلى هؤلاء الذين يتناولون مواد غير معروفة أصبحت إحدى القضايا الساخنة التي أثارت الناس في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. كشفت أعمال منشآت الهندسة الحيوية المتعددة الجنسية مثل «مونسانتو» Monsanto، و«دو پونت» Du Pont، و«نوڤارتيس» Novartis ما كان يشعر به الكثيرون بشأن العولمة لكنها كانت غير قادرة على التوضيح حتى تخطت هذا «الخط» الخاص. إن المعالجة غير المُلِحة لإنتاجنا من الغذاء بمنظور الفائدة قد ساعدت على الكشف عن مفاجآت غير سارة بشأن قضايا تتراوح ما بين العلم والتكنولوچيا، إلى التطور المستمر، إلى عملية السوق ذاتها. كما عبرت مجلة «ريد هيرينج» Red Herring ببلاغة،

> وإذا لفتت المخاوف الصحية بشأن الاقتران بين المزارع والصيدلية معظم الأنظار، فتعد القضية الفعلية أكثر عمقًا، وأكثر جدية. إنها مناقشة تاريخية بشأن المدى الذي عنده تسيطر القليل من الشركات المتعددة الجنسية على الإمداد بالغذاء عبر العالم. ولطرح تلك القضية الفلسفية للمناقشة - التي تعد في جوهرها نقدًا لمذهب العولمة، والاعتماد الحديث على العلم - وكان يهدف معارضو التعديل الوراثي في هجومهم حيث يعرفون أنهم يمكنهم الحصول على التدعيم السهل: طاولة المطبخ. ونتيجة ذلك، تعطلت التكنولوچيا المرجوة.
>
> (كوكير Cukier 2000)

تعد التكنولوچيا الهادفة إلى تحرير العالم من الجوع في مشكلة لأن هؤلاء الذين كانوا يمتلكون التكنولوچيا تصرفوا كأنهم ناس غير مهمين، أو مهمين فقط كمستهلكين سلبيين. وكما كتب «چون برجر» John Berger (2003)، تدعي:

> الشركات أنها المنقذ للعالم، وتقدم لسكانه الفرصة ليكونوا عملاءها. يعتبر المستهلك العالمي عنصرًا مقدسًا. والذي لا يضيفونه هو أن المستهلكين هم الذين يهمون فقط لأنهم يدرون الأرباح، وهي الشيء الوحيد الذي يعد مقدسًا.

يجبر منطق السوق الشركات على العمل بهذه الطريقة. ورغم ذلك، لم يتأثر المهتمون خلال الحملات العالمية المنظمة في جزء كبير عبر الإنترنت، والبريد الإلكتروني، ووحدات خدمة القوائم إلخ، التي نجحت في التأثير الهائل على الطموحات العالمية بشأن التعديل الوراثي لعدد قليل من الشركات. وشهدت سلاسل المتاجر الكبرى، وأصحاب البقالات، والفلاحون، ومنتجو الأغذية مثل «هاينز» Heinz، و«جربر» Gerber ما كان مراهنًا عليه مع مثل تلك الموجة العارمة من الغضب وبدأوا يحاربون «حرية التعديل الوراثي» في منتجاتهم من الفاصوليا المطبوخة والتفاح المهروس. ورغم ذلك، فلم تنته بعد المعركة بشأن «التحكم في الإمداد بالغذاء العالمي»، وستظل اختبارًا مهمًّا عن كيف أن حركة المجتمع المدني العالمي سوف تتطور في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين.

وفي كثير من الأحوال يتجه الغذاء نحو جوهر العولمة الليبرالية الجديدة. هذا لأنه يشكل جزءًا مهمًّا منا ماذا نكون؟ ومن نحن؟ ونبدأ في الشعور العميق بالقلق حول كيفية قيام «قوى السوق» بإنتاجه وتوزيعه. ومع الأخذ في الاعتبار كابوس جنون البقر ومرض الحمى القلاعية في «بريطانيا»، أو قراءة الحقائق المروعة حول صناعات الهامبورجر التي تم تصويرها في كتاب «إيريك شلوسر» Eric Schlosser «مجتمع الوجبات السريعة» Fast Food Nation (2001). ويثير رد الفعل السلبي، النتيجة التي أثيرت طويلًا من خلال مجموعة متنوعة من النشطاء التقنيين الذين يقومون بالحملات ضد التكاليف البيئية، والاجتماعية، والصحية، والثقافية، لإطعام الـ 45 مليونًا الذين يتجهون أو يُقادون نحو «ماكدونالد» (و«مالكدونالد» فقط!) يوميًّا (انظر على سبيل المثال www.mcspotlight.org). وفي النهاية يتشبع المستهلكون بذلك الطعام المحمل بالسعرات الحرارية، والممتلئ بالملح، والمشَرَّب بالدهون، ليس بالضرورة من ناحية مذاقه، لكن من ناحية كيفية وصوله إليك، وماذا يمكن أن يحدثه لك. وفي ديسمبر عام 2002 حققت «ماكدونالد» خسارة مالية للمرة الأولى. ونتيجة ذلك، قالت الشركة إنه لا بد من إغلاق 175 منفذًا عبر العالم وتسريح مئات من العاملين. وفيما يتعلق بالانخفاض الطفيف في «جولدن أرشيز» Golden Arches يلقي محللو الأعمال اللوم على المنافسة المتزايدة من الخصوم مثل «برجر كينج» Burger King، و«ويندي» Wendy والبدائل التي يُزعم أنها «أكثر صحة» مثل «سابواي» Subway (Hospitalitysite.com.au 2003). وبلا شك، فإنه لا بد من عمل شيء بخصوص

ذلك. لكن أيضًا، هل يعد الانصراف عن البرجر والمقليات نتيجة استياء أكثر عمقًا، وإحداث للمرض (واقعيًا ومجازيًا) مع الاتجاه إلى تصنيع، وتقنية، وتجانس، وعولمة الغذاء؟ وهل يعد ذلك أيضًا - كما يقول «شلوسر» مع الأخذ في الاعتبار شعبية كتابه «مجتمع الوجبات السريعة» - إن الناس كانوا يدركون بشكل تدريجي «التناقض بين بيان السوق الحرة الذي يقدمه مدعمو المشروعات الحرة في مناقشة عامة والحقيقة حول كيفية سير الأعمال» (ويلش 2002 Welch).

ولم يحدث هذا «الوعي المتصاعد» العالمي مع الأخذ في الاعتبار قضايا العلم، والتكنولوجيا، والعولمة الليبرالية الجديدة من خلال الكشف المثير أو حملات «المصلحة العامة» المدعَمة في الإعلام الضخم السائد. ويعمل الإعلام كـ «سلطة رابعة»، وأصبح حراس الديمقراطية والمصلحة العامة جزءًا من مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة (آينجر 2001 Ainger). وبالنسبة لجميع الأهداف والأغراض، فهي تعمل الآن كأسلحة دعاية للسوق الحرة والأعمال الكبرى التي من خلالها يعدون جزءًا مكملًا. ويعرض «إيجانسيو رامونيت» Ignacio Ramonet، محرر صحيفة «لي موند دبيلوماتيك» Le Monde Diplomatique وأستاذ الاتصالات في جامعة «باريس»، القضية بوضوح. يكتب:

> كان الإعلام لفترة طويلة مصدرًا للمواطنة، وعُرف بالسلطة الرابعة، القوة التي تعارض قرارات الحكومة التي قد يكون لها آثار ضارة على الشعب. ولم تعد لهذه السلطة الرابعة هذه القوة.
>
> (نقلًا عن سينيڤيراتن 2003 Seneviratne)

يستمر «رامونيت» ليقول إنه بدلًا من لعب دور حارس حقوق الشعب داخل المجتمع المدني، «فإن القوة الرابعة الآن تقوم باستغلالها وقمعها». والأزمة التي يطرحها أمامنا هي: «كيف يمكننا معالجة هذا عندما تحول المدافع عن الشعب إلى عدو لهم؟» (سينيڤيراتن 2003). ولمدة عقد تقريبًا، أصبح الملايين ممن ينضمون إلى المجتمع المدني العالمي يخلقون، غالبًا بسبب التقصير، «السلطة الخامسة» من خلال شبكات الشبكات. وهي هنا حيث إن «العدو» لا بد من مواجهته. ولم تجد الكلمات والأفكار الاستفهامية والتقدمية مكانًا في السلطة الرابعة المشغولة، وبالتالي كانت النصوص والآراء البديلة ملزمة بأن تقوم بإيجاد - أو بخلق - منافذ أخرى. ولم تفعل ذلك كتب «كروسيال» التي أصبحت رائجة مثل كتاب «بدون شعار» No Logo

(كلاين 2000)، وكتاب «مجتمع الوجبات السريعة» (شلوسر 2001)، وكتاب «سوق واحدة تحت سيطرة الرب» One Market Under God «توماس فرانك» Thomas Frank (2000) بسبب التسويق البارع وحملة إعلانية ضخمة، أو من خلال اختيارها مبكرًا من قِبل الإعلام السائد والمؤيد الذي يريد نشر وجهات نظر معارضة. وقد بيعت بكميات ضخمة لأنها كانت تنسجم بعمق مع كل من النشطاء التقنيين وهؤلاء الذين كان لديهم قدر كافٍ من العلامة التجارية اللامعة، وشركات البترول الجشعة، ومطاعم الهامبورجر التي لا تحصى، والحكومات الضعيفة الإرادة، وأسواق الأوراق المالية المضطربة، والشركات المساهمة المتعجرفة، والمديرون التنفيذيون الذين يمارسون السرقة وذلك عبر أنحاء العالم. إن الشبكات التي يتعامل معها الناس تقرأ وتنشر الكلمات والأفكار التي تحتويها هذه الكتب وكتب أخرى، إلى جانب قيام الإعلام السائد بانتقائها فيما بعد، راغبًا في معرفة فيماذا تكون كل هذه الضجة.

ربما تكون «الضجة» مفسرة بسهولة ووضوح. ويعد ذلك بشأن الأحلام، والرؤى، والمصطلحات اللغوية البديلة التي تنتقل الآن خلال دوائر مختلفة. ولا يتدفق كل هذا عبر الإعلام السائد، أو عبر الاجتماعات الفرعية لـ «حزب العمال»، أو عبر اجتماعات دار البلدية التي تحولت إلى أساطير من خلال الديمقراطيين والجمهوريين، أو عبر المجالس المحلية، أو الحكومات الإقليمية، أو البرلمانات الوطنية. تتدفق «الضجة» عبر شبكات غير متبلورة ومنظمة ذاتيًا. وتتذبذب هذه القنوات الافتراضية وتضج خلال أربع وعشرين ساعة يوميًا مع نقد للنظام الحالي، والأفكار المتعلقة بطرق تشكيل مجتمع مختلف. وتقوم بمزج النظرية بالتطبيق لإنتاج الإستراتيجيات والتكتيكات الجديدة، والفن والأدب، والعلم والتكنولوجيات التي يمكن أن تساعد في إحداث هذا. وبشكل ثابت، يقوم هذا المجتمع المدني العالمي المتطور بتجربة، وتهيئة، ورفض، وقبول طرق ووسائل أداء شيء ما مبتكرًا وخلاقًا ـ شيء ما، أي شيء، مختلف. ولا يعرف أحد بالفعل إلى أين يؤدي كل هذا. إنه بالفعل شيء مخيف؟

خاتمة

يعد عدم التأكد شيئًا يدعو إلى الدهشة.

(وولرستين Wallerstein 1997)

إذا لم تكن مرتبطًا بشبكة الإنترنت لمدة ستة شهور قبل منتصف فبراير عام 2003، أو إذا لم تقم مطلقًا بإرسال أو قراءة بريد إلكتروني، أو لم تقم بتصفح الإنترنت في حياتك، إذن فهناك فرصة جيدة للأعداد الضخمة من معارضي الحرب الوشيكة في «العراق» عبر العالم لخلق أعمال رائعة من لا شيء. ولم يصرح الإعلام السائد بشيء عن ذلك تقريبًا. ورغم ذلك، تم تقدير ما بين عشرة ملايين إلى عشرين مليون شخص يسيرون في المدن عبر العالم خلال نهاية الأسبوع من 14 إلى 16 فبراير. وأيًا كان الرقم الحقيقي، فقد حثت ضخامته الواضحة «ناعوم تشومسكي» Noam Chomsky ليقول إنه «لا يوجد وقت مطلقًا ... عندما لا يكون هناك مثل هذه المعارضة الضخمة للحرب قبل حتى أن تبدأ» (بيرون Perrone 2003). يقول آخرون إنه كان أكبر حشد ضخم في التاريخ. وفي «لندن»، سار أكثر من مليوني شخص، وكان هناك الكثير من المظاهرات الأقل حجمًا (ولو كانت كبيرة نوعًا ما) عبر «بريطانيا». وسارت مظاهرات في مدن عبر «الولايات المتحدة»، مع بعض من أربعمائة ألف مشارك في احتجاج «نيويورك» وتجمع ربع مليون بقوة في «سان فرانسيسكو». وبعمل مسح للمشهد العالمي، كتبت مجلة «زد نت» Z Net:

> **تخبر صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» Los Angeles Times بأن مليون شخص على الأقل ساروا في أكبر مظاهرة في «لندن»، واحتشد مليونا شخص في «أسبانيا»، و000 500 في «برلين»، و000 200 في «دمشق» بـ «سوريا». وتظاهر مليونان آخران في «روما»، وتظاهر أكثر من 000 150 في «ميلبورن» بـ «أستراليا» طبقًا لبيان «أسوشياتيد بريس» Associated Press.**
>
> (إنجلر Engler 2003)

وقد تم تنظيم كل هذا عمليًا على الإنترنت. وبدأ الإعلام السائد بشكل أساسي لتغطية الحدث واستخدامه في «مقدمة» أخبار المساء وأغلفة صحيفة الصباح الملونة. أصبحت مئات الجماعات تهتم، وتشارك في المعلومات، وتنقل الأفكار المفيدة، وتخطط، وتعقد اجتماعات فعلية وافتراضية لمدة أسابيع قبل أسبوع من الاحتجاج. وتعمل مواقع الشبكة مثل Indymedia. org كعُقَد توصيل في شبكات المعلومات، لتقديم شكل، وحجم، ورأي للمعامِلات المتغيرة الواسعة للرأي الذي تضمنته الحركة المضادة للحرب. النصيحة المقدمة حول كيفية الوصول

إلى أقرب مظاهرة، وكيفية المشاركة فيها، وكيفية الإعداد للحديث، وكيفية تحميل النشرات الإعلانية، وطباعة منشوراتك المضادة للحرب. أوضح أحد نشطاء «اتحاد إيقاف الحرب» Stop the War Coalition لصحيفة الإعلام الجماهيري «جارديان» Guardian كيف حدث هذا:

> باستخدام قوائم البريد وموقعها الإلكتروني، اتصل المكتب الرئيسي بشبكة متنامية بشكل سريع للجماعات المحلية التي قدمت الكثير جدًّا من تنظيم الحركة. اتصلت هذه الجماعات المحلية بأعضائها والحركة الأكثر اتساعًا من خلال كل من قوائم البريد، والرسائل النصية للجماعة، والمواقع الإلكترونية المحلية التي تخصها.
>
> (ألكسندر Alexander 2003)

ازداد هذا الضجيج المتواصل للنشاط الرقمي من خلال سجلات أداء الشبكة. وهي تمثل المبتكرين والمشاركين في آلاف من المواقع الشخصية في الشبكة والتي ساعدت على الاتصال بين الناس بشكل أكثر إحكامًا. وفي سلسلة سجلات أداء الشبكة التي ظهرت فجأة كان الناس قادرين على نشر أفكارهم، فيتم نقدها، أو تشويهها، أو تدعيمها. وبشكل عام قام المعارضون للحرب بتكوين مثال مدهش بشأن ما يكون المجتمع المدني العالمي الشبكي قادرًا على: التنظيم عبر الإنترنت المؤدي إلى أداء مباشر ضخم خارج الاتصال بالإنترنت. وكانت تعد هذه المظاهرات أول دليل ملموس حول إمكانية معرفة الكثيرين للإنترنت (وتكنولوچيات المعلومات والاتصال بشكل أكثر عمومية) عندما وضع للاستخدام السلبي. وكان الناس في أنحاء كوكب الأرض قادرين على التغلب على عقبات اللغة، والمسافة، والأيديولوچيا لتنسيق أنفسهم لكي يكونوا عند مكان مرتب مسبقًا وزمان مرتب مسبقًا للمشاركة في خبرة جماعية، ومادية، وسياسية. وذلك لم يحدث بمثل هذا التوازن من قبل.

ومع الازدهار، بشكل ضحل إلى حد ما، كان هناك شيء مفقود. والذي كان مفقودًا هو الاستجابة «الملائمة» للحكومة والإعلام. وفي السينيات والسبعينيات من القرن العشرين قادت مظاهرات ضخمة ضد حرب «ڤيتنام» كلًّا من الرئيسين «چونسون» Johnson، و«نيكسون» Nixon (خاصة الأخير) إلى الجنون. ففي عام 1989، كان امتلاء الشوارع قد جعل من الممكن القضاء على الأنظمة، والأيديولوچيات، والأنظمة بأكملها، مرورًا بأوروبا الشرقية. ورغم

ذلك، في فبراير عام 2003، أعرب الكثير من وسائل الإعلام السائد عن أن المظاهرات إما أنها محايدة أو عدائية. وبشكل أكثر أهمية، وخلافًا للعادة، لم تشعر الحكومات بالقلق من مشهد ملايين المواطنين المحتجين الواقفين في وجهها. فقد تجاهلهم «جورج دبليو بوش» George W. Bush، وعاملهم «توني بلير» Tony Blair بغطرسة، ولم يكترث بهم «جوزيه ماريا أزنار» José María Aznar رئيس الوزراء الأسباني، وأساء معاملتهم «جون هاوارد» John Haward رئيس وزراء «أستراليا»، وأطلق عليهم «الغوغاء». سار الملايين في الشوارع ولم تلق الحكومات حتى نظرة عليهم. ماذا يحدث؟

سوف يصبح جوهر الثقة المؤسسية المتعلقة بالمعارضة السياسية الضخمة أكثر وضوحًا في السنوات القادمة. لكن ما أعتقده أن ما شهدناه كان يمثل الكتلة الحرجة للمجتمع المدني العالمي التي تلائم، بشكل مباشر تقريبًا، مرحلته الحاسمة والجوهرية. هذا لأن عصر الليبرالية الجديدة وبزوغ مجتمع الشبكات وضعنا عند نقطة تاريخية، نقطة لم تعد عندها الطرق «القديمة» لأداء الأشياء ملائمة للطرق «الجديدة» التي لم تتبلور بعد إلى أنماط واضحة ومؤثرة. بمعنى آخر، فإن في هذه المرحلة من الانقطاع، والتاريخ، والقوة، لا يزال شكل المستقبل عشوائيًا. وهكذا فقد ظهر الانفصال في العملية السياسية بشكل تصوري من خلال ردود الفعل الحكومية للمظاهرات المضادة للحرب في بداية عام 2003. وأشار «جورج دبليو. بوش» إلى أن الملايين عبر العالم الذين تظاهروا في ذلك اليوم في فبراير في نهاية الأسبوع لا يمثلون شيئًا. وقد فشل هؤلاء الذين زلزلوا شوارع «نيويورك» أو ناضلوا في الشوارع الكبرى في «ميلبورن» بسبب الذين لم يصوتوا، أو لو أنهم فعلوا ذلك للأحزاب الهامشية مثل «الخضر» Greens أو «رالف نادير» Ralph Nader، حيث قدر لهم الاتصال فقط بقضية واحدة أو مزيج من الأفكار والسياسات لا يمكن أن يتحدى المبدأ الذي يشمل القيم الليبرالية الجديدة وسياسات السوق الحرة.

وفي هذه المرحلة من التغير التاريخي المهم فإنه يمكن أن ينبثق نظام عالمي جديد وأكثر ديمقراطية فقط من خلال ذلك النضال. ومن الواضح أن أشكال النضال سوف تتغير. وقد أثبت المجتمع المدني العالمي أنه يمكن أن تمتلئ الشوارع بملايين من الناس والمواطنين المهتمين والغاضبين الذين يطالبون بشيء ما عدا ما تم إخبارهم به بأنه ينبغي أن يحصلوا عليه. ورغم ذلك، فإن المظاهرات الضخمة، التي تحولت من الافتراضية إلى المادية لا تعد كافية الآن.

وتتطلب علاقاتنا الجديدة مع الزمان والمكان ومع التكنولوجيا أن نقوم بتطوير لغات جديدة وطرق جديدة لإدراك مكاننا في هذه البيئة الرقمية. نحن في حاجة إلى خلق روايات جديدة، وقصص جديدة لإطلاعنا على ماضينا ومساعدتنا على فهم حاضرنا. وهذا سوف يقدم لنا رؤى جديدة بشأن الاحتياجات الواجب توافرها لتحقيق ذلك. ويتحد كل من النظرية والتطبيق في مجتمع الشبكات. ولحسن الحظ أن أعدادًا ضخمة في المجتمع المدني المنبثق تدرك هذا. إنها تقوم بتطوير كل من الفهم الإعلامي والفهم التقني (النظرية والتطبيق) التي يحتاجها «القائم بالتكتيك» أو «المشارك في حرب العصابات». تعني مثل هذه المرونة أن الناس يمكنهم تعلم تكتيكات جديدة لأشكال النضال السياسي المحلي وتعلم إستراتيجيات جديدة لأشكال النضال السياسي العالمي. ويمكن أن تخبو السلوكيات القديمة (مثل التظاهر في الشوارع) بسرعة كأولوية، ومحاولة القيام بشيء جديد. وإذا فشل ذلك، تتم المحاولة في شيء آخر.

تتمثل الميزة التي لا تقدر بثمن بالنسبة للمجتمع المدني العالمي في أن لدى الليبرالية الجديدة رؤية عادية ومتوقعة للإعلام، والثقافة، والمجتمع في «لايف دوت كوم»، والتجارة الإلكترونية، والتعليم الإلكتروني، والتسلية الإلكترونية، والتسويق الإلكتروني فيما يتعلق فقط بتكوين رأي عنهم. ولم يتم أبدًا الإعداد لمجتمع الشبكات، رغم كل الإفراط في نظرية الأعمال، كي يكون مبتكرًا وخلاقًا. لقد تكوّن وتشكل بفائدة وفعالية عن طريق القيام بمهام مساعدة. وعندما توقفت الليبرالية الجديدة عن توجيه المجتمع نحو السوق وإدخال الحواسب في كل المجالات، تم تهميش التجديد والإبداع وأصبحا زائدين على الوظيفة الحالية. وتعد تكنولوجيات المعلومات والاتصال قادرة بشكل بارز على تشغيل وتوزيع المعلومات، والنسخ، والمحاكاة، والجدولة، أما الإنسان فيمكنه تقديم الإبداع فقط. ولكي نكون مبدعين بطرق ذات قيمة وتساعد في تغيير عوالم مختلفة، فإننا في حاجة إلى إعادة السيطرة على كل من السوق وتكنولوجيات المعلومات والاتصال.

كان للاستثمار الضخم الذي تم توجيهه لبناء مجتمع شبكات خلال سنوات الحماس الشديد 1995-2001 نتائج مفيدة ومربحة بغض النظر عن الهدف الرئيسي. وتدفقت ثورة شركات التجارة الإلكترونية، بالطبع، لكن النشاط الاقتصادي المحموم قد بنى طاقة هائلة في الاتصالات العالمية. وتعد هذه أيضًا مقدرة ضخمة لإعادة بناء المجتمعات المشتتة، والاقتصاديات المنهارة،

والحياة الفاسدة التي خلفها «برنامج الليبرالية الجديدة». وقام الاقتصادي «روبرت برينر» Robert Brenner بتحليل طبيعة ثورة شركات التجارة الإلكترونية في «الولايات المتحدة»، ومع أي ازدهار في التاريخ الرأسمالي، يصبح الإنتاج الزائد في النهاية عاملًا مؤديًا إلى أزمة اقتصادية حتمية. لم تكن ثورة شركات التجارة الإلكترونية مختلفة. وقد كتب «برينر» (2003: 54) يقول:

> **وبفضل المنتج الجديد والأسواق المالية، كان كل شخص [يشعر بالرضا]. وفي عام 2000 كان ما لا يقل عن ست شركات تقوم بإنشاء شبكات ألياف بصرية جديدة بينها منافسة متبادلة، ومنتشرة في أنحاء العالم. ويتم إنشاء ما يزيد على المئات من الخطوط المحلية وكان العديد أيضًا يتنافس حول الروابط الفرعية المتسعة المدى. وأصبح الآن 39 مليون ميل من خطوط الألياف البصرية المتقاطعة عبر «الولايات المتحدة»، كافية لكي تدور حول الكرة الأرضية 1566 مرة. وأصبح المنتج الثانوي الذي لا يمكن تجنبه في حالة إغراق هائل: يتأرجح اليوم معدل استخدام شبكات الاتصال عن بعد عند انخفاض خطير 2.5–3 في المائة، حيث توجد مجموعة أسلاك تحت البحر عند 13 في المائة. وهناك بالكاد دليل أكثر وضوحًا بأن السوق لا يعرف ـ وخاصة سوق المال ـ الأفضل. وكانت النتيجة تكدس رأس المال المتراكم الذي قلل من قيمة معدل العائد في المستقبل القريب، بنفس الطريقة التي اتبعها سوق السكة الحديد الذي أنشئ خلال فترات الازدهار من القرن التاسع عشر.**

وفي لغة هندسة الكمبيوتر، تسمى الطاقة غير المستخدمة «الألياف المظلمة». وهي مجموعة الأسلاك والألياف الضوئية التي توجد في موضعها، لكنها غير مستخدمة، وتسمى «مظلمة» لأن الألياف الضوئية تقوم بإرسال المعلومات عن طريق نبضات ضوئية لذلك ففي حالة عدم استخدامها، تكون «مظلمة». وكما يعرض «برينر» الاقتباس السابق، هناك الكثير من ذلك. لكن هذا يعد مجالًا خاصًا وغير مستخدم، لذلك فكن حذرًا من الكلاب من الآن. ويتحول الإنترنت المفتوح ذاته بشكل متزايد إلى الخصوصية واتخاذ الطابع التجاري، بالإضافة إلى «رؤية مؤيدي الحرية الوهمية التي كانت تستخدم لبيعه في السنوات الأولى للتجارة الإلكترونية، والتعليم

الإلكتروني، والتسلية الإلكترونية، والتسوق الإلكتروني في العالم الوسيط الذي أشرت إليه من قبل. لذلك، فإذا كنت لا تشتري فاذهب من فضلك، وهي الرسالة غير المعلنة. ورغم ذلك، فإن التنبؤ بالنمو الهائل في حركة المجتمع المدني العالمي، إلى جانب نشطائه، وفنانيه، ومصمميه، ومهندسيه، وناقديه، يرى «جيرت لوڤينك» Geert Lovink، في كتابه «الألياف المظلمة» Dark Fiber (2002)، أن هذا:

> ... أدى إلى المطالبة ببنية أساسية عامة تستخدم طاقة الإنترنت غير المستخدمة غالبًا (المسماة بـ «الألياف المظلمة») من أجل الأغراض التعليمية والإبداعية المتعددة. وفي الفراغ التصوري الذي خلفه وراءه عهد دوت. كوم، توجد ثقافة إنترنت ثرية وناقدة تلبي الاحتياجات، وتقدم بدائل قوية وتخيلية لكل من المحاولات المشتركة والحكومية لتضمين الإنترنت.

ولا تسير القصة في هذا المجرى. ولا تصل إلى «نهاية» مثلما قال «فرانسيس فاكوياما» Francis Fukuyama (1992). إنها دائمة مفتوحة النهاية وقابلة لتوازن القوى الاجتماعية التي تساعد في تشكيلها عند أية مرحلة معينة.

بمعنى آخر، فإن كل من انتهاز الفرص التي تتوافر بصعوبة ، وفهم عملية الجدل المتواجدة دائمًا يرجع إلينا ويعتمد علينا. وتعمل السعة الفعلية غير المستخدمة في الشبكة، أي الفائض الضخم من الألياف المظلمة الخامدة كاستعارة مبتكرة للمستقبل المتوقع غير المعلن الذي تمثله شبكة الشبكات. وتعبر الألياف المظلمة عن التغيير الممكن للبشرية. وتمثل مجال تولد الأفكار والثقافات الجديدة التي تتدفق ليقدم إليها حيزًا أكبر. ويمكن أن تكون «بيانات مجانية للجميع!» هي الشعار البراق. إنها يمكن أن تكون بيئة غنية إعلاميًّا يتم خلالها الاختبار، ووضع النظريات، والنقد، ووضع الأطر لجداول الأعمال وصياغة التكتيكات والإستراتيجيات من أجل عوالم جديدة. إن تغلب مجتمع الشبكات على سيطرة السوق الحرة المقيدة والمحكمة دائمًا وتحويله إلى مجال عام (ألياف مضيئة؟) سيكون الخطوة الأولى في المسيرة الطويلة عبر هذا التحول التاريخي. ولا تكون السيطرة على مجتمع الشبكات (بشكل ضروري) من خلال إلغاء الرأسمالية. وتكون من خلال التحكم الشخصي والإرادة الحرة (وهي من المبادئ الرئيسية لليبرالية)، إنها القدرة على إدراك كل من المجتمعات، والأمم، والثقافات للتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

الأساسية، إنها تعبر عن استيعاب الشبكة ومصير شبكتنا، ومصيرنا الرقمي، كما يطلق «سكوت لاش» Scott Lash على ذلك بعد «نيتشه» Nietzsche (2002: 10)، وتعبر عن الثقة في أنفسنا، وكفاءتنا الثقافية للمساعدة في صياغة شيء أفضل، وأي شيء آخر. وقد عبر «تيري إيجليتون» Terry Eagleton (2003: 17) عن هذه العملية بشكل رائع. كتب:

تعتبر رحلات الخيال التي تنضم إلى طريقة رؤية الموقف مباشرة ضرورية لتخيل بديل له. وإذا قام الخياليون بجعل العالم يجاري رغبته، وإذا قام الواقعيون بجعل عقله يجاري العالم، فإن الثوريين مطالبون بتحقيق الاثنين في وقت واحد.

نحن لا نعرف ما قد تجلبه «رحلات الخيال» لثقافاتنا ومجتمعاتنا، لكنها إذا تم تنظيمها ديمقراطيًا فإنها ستكون مرنة ذاتيًا، وإذا كان مجتمعًا قادرًا على نقد ذاته بشكل مفتوح وفعال، إذن فيمكنه التغير. شيء مخيف؟

يمكننا الختام هنا بالاستشهاد بقول «إيمانويل وولرستين» Immanuel Wallerstein (1997: 3)، المؤرخ والاقتصادي الذي يرى الإثارة والدهشة لحالة عدم التأكد ـ وللإمكانيات البشرية غير المحدودة.

في النظم الاجتماعية الإنسانية، أكثر النظم تعقيدًا في الكون، وبالتالي أكثرها صعوبة في التحليل، يظل الصراع من أجل المجتمع الفاضل مستمرًا. علاوة على ذلك، ففي فترات التحول، من نظام تاريخي إلى آخر (لا نعرف طبيعته) يحمل الصراع الإنساني هذا الهدف الكبير. أو بمعنى آخر، فإنه في مثل هذه الفترات فقط من التحول، فإن ما نسميه بالإرادة الحرة يفوق التوازن أهمية. وهكذا، فإن التغيير الجذري يعد ممكنًا، ولو لم يكن مؤكدًا بشكل مطلق وهذه الحقيقة تخلق المطالبة الأخلاقية في مسؤوليتنا حول العمل بشكل عقلاني، وبإخلاص، وبقوة من أجل البحث عن نظام تاريخي أفضل.

لا يعبر التغيير الجذري، أو الثورة، كما يصرح «وولستين»، عن تمزق جوهري أو تحطم كارثي. وكما ذكرت في نهاية مقدمة هذا الكتاب، أنه يتم تحديد الأنظمة الاجتماعية الإنسانية من خلال حالات الاستمرارية، حيث لا يكون أساس المستقبل الأفضل، والأكثر ديمقراطية

مثالًا بعيدًا، لكنه دائمًا يكون متأصلًا في الوقت الحاضر. فهم القوى المحركة المكونة مؤخرًا بين الإعلام، والإنتاج الثقافي، ومذهب الفعالية السياسية داخل مجتمع الشبكات، وكيف حالات الاستمرارية هذه المنبثقة عبر تلك الأشكال من الجدل، تعد خطوة نحو لعب دور فعال في تطورها المستقبلي.

قراءات أخرى

Langman, L., Douglas M. and Zalewski, J. (2002) Cyberactivism and alternative globalization movements, in Wilma A. Dunaway (ed.) *Emerging Issues in the 21st Century World-System*, pp. 218–35. Westport, CT: Greenwood Press.

Lovink, G. (2002) *Dark Fiber: Tracking Critical Internet Culture*. Cambridge, MA: MIT Press.

www.indymedia.org (Global network of regional net-based organizations devoted to local–global direct action campaigns.

www.zmag.org (Internet-based outlet for radical journalism giving opinion and analyses not usually available in mainstream media. Includes writers such as Robert Fisk, Noam Chomsky, Edward Said and John Pilger.)

مسرد المصطلحات

أربانت ARPANET

لفظة أوائلية تعني «شبكة وكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة». وهي شبكة أمريكية تعد أساس شبكة الإنترنت. وقد تأسست بداية من قِبل المصادر العسكرية في «الولايات المتحدة» وكانت مكونة من عدد من الحواسب الآلية الشخصية تتصل بخطوط مؤجرة وتستخدم برنامج توزيع الحزم.

مدرسة برمنجهام Birmingham School

تألفت من مجموعة من الباحثين في «مركز الدراسات الثقافية المعاصرة» Centre for Contemporary Cultural Studies في «جامعة برمنجهام»، بإنجلترا. كان «المركز» يتبنى فكر المدرسة «الماركسية الجديدة»، بالتعاون مع «ستيوارت هول» Stuart Hall. وأُجريّ البحث في «المركز» من سبعينيات القرن العشرين واستمر في تقليد ما بعد «الفكر الماركسي لأنتونيو جرامشي» Gramscian في دراسات الهيمنة والأيديولوچية.

نطاق تردد واسع Broadband

يشير إلى الاتصال عن بعد الذي تتاح من خلاله حزمة واسعة من الترددات لنقل المعلومات. وبسبب توافر حزمة واسعة من الترددات، يمكن تتضاعف وترسل الكثير من الترددات المختلفة أو القنوات داخل الحزمة بصورة متداخلة، مما يوفر المزيد من المعلومات التي تنقل في مساحة محددة من الوقت.

المجتمع المدني Civil society

بالمعنى الحديث، يشير هذا المصطلح ضمنًا إلى مجالات، الثقافة، والسياسة، والحياة الخاصة، والاقتصاد، والإعلام، إلخ التي تكون خارج أو بعيدة عن نفوذ الدولة وبيروقراطيتها.

ملف تتبع المسار Cookies

رسالة تُعطى لبرنامج تصفح الإنترنت في شبكة الويب العالمية عن طريق خادم شبكة الويب العالمية. يقوم برنامج تصفح الإنترنت بتخزين الرسالة في ملف المعلومات. بعد ذلك يتم إرجاع الرسالة إلى الخادم في كل مرة يطلب برنامج تصفح الإنترنت صفحة من الخادم.

ويمثل الغرض الأساسي من ملف تتبع المسار تعريف المستخدمين وإعداد صفحات شبكة الويب العالمية وفقًا لرغباتهم.

الكفاءة الثقافية Cultural competence

في علم الاجتماع استخدم «بيير بوردو» Pierre Bourdieu المصطلح للمرة الأولى في كتابه العلامة الفارقة Distinction (1986). حيث عرَّفها بأنها وظيفة اجتماعية من أجل جعل الاختلافات الاجتماعية شرعية، «صقل الثقافة» لهؤلاء الذين «يعرفون القواعد» لتقرير ما هو «غير مهذب» في الفن أو في الأدب. وفي الإعلام والدراسات الثقافية يستخدم «جون فيسك» John Fiske (1987) المصطلح لوصف اتجاه نقدي يدفع إلى القراءة عن أشكال الإعلام وبخاصة التليفزيون في هذه الحالة. ويرتبط بشكل كبير بمصطلحي الكفاءات ـ تقني وفهم الإعلام ويستخدم لنقل مستوى من الاستقلال والمسافة النقدية داخل العالم الوسيط لمجتمع الشبكات.

تشوش الثقافة Culturejamming

تدمير ناتج ومسبب لأزمة المذهب السلعي للثقافة عن طريق الرأسمالية المشتركة. انظر www.adbusters.org ومجلة «أدبوسترز» Adbusters.

الفضاء المعلوماتي Cyberspace

مصطلح صاغه كاتب الخيال العلمي «ويليام جيبسون» William Gibson ليصف حاسبه الذي يقوم بإنتاج الواقع الخيالي الذي تقدم من خلاله ثروة المعلومات عن مجتمع المستقبل

المشترك كمجال غير ملموس. وأصبحت الكلمة تستخدم كمصطلح عام للتعبير عن أي معنى يخلق «مجالًا» بصورة رقمية، من الإنترنت إلى الواقع الخيالي.

الإنسان الميكانيكي أو كهربائي الوظائف Cyborg

يصف التشابك المتبادل المتزايد والمعقد بين جسم الإنسان والتكنولوچيا. ويمكن أن يتراوح هذا من التكنولوچيا المنخفضة للمساعد السمعي، إلى التكنولوچيا العالية للهندسة الوراثية من خلال التدخل في الحامض النووي DNA، إلى الخيال العلمي في «روبوكوب» Robocop أو «أرني شوارزينجر» Arnie Schwarzengger في أفلام «المدمر» Terminator.

الألياف المظلمة Dark fibre

هو البنية الأساسية للألياف البصرية (مجموعة الأسلاك والمكررات) التي تعد في مكانها بالفعل لكنها لا تستعمل. ويشار إلى ذلك بـ «مظلمة» لأن الألياف البصرية تقوم بنقل المعلومات في شكل نبضات ضوئية لذلك فعند عدم استخدامها تكون «مظلمة».

وكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة DARPA

كانت تقوم بتمويل ومراقبة مشروع يهدف إلى الاتصال المتبادل بين الحواسب الآلية في أربع مواقع بحث جامعي في «الولايات المتحدة». وبحلول عام 1972، ازدادت هذه الشبكة الأولية، تسمى الآن «أربانيت» AEPANET، إلى 37 حاسبًا آليًا. وقد أدت كل من «أربانيت» والتكنولوچيات التي دخلت إليها، متضمنًا ذلك تطوير «بروتوكول الإنترنت» (IP)، و«بروتوكول التحكم في النقل» (TCP) إلى الإنترنت الذي نعرفه اليوم.

الجدل Dialects

تستخدم أحيانًا كلمة تفاعل كمرادف لكلمة جدل وهي التي تحدد فعالية الجدل ـ لكن هناك المزيد. وتشتق كلمة الجدل من الكلمة اليونانية الحوار أو النقاش المفتوح. ويبدأ النقاش باقتراح

أو (فرضية)، ثم اختبار وجهة النظر المضادة (النقيضة)، ثم التوصل إلى وجهة نظر جديدة تندمج مع عناصر كلا الجانبين (الجَمعية). وتم تطوير هذا الإطار الفلسفي الأساسي في المذهب الماركسي، مرورًا برأي «هيجل» Hegel الأكثر روحانية، ثم إلى ما كان يسمى «مذهب المادية الجدلية» (تطبيق هذا التفكير الخاص بمعايير العالم الواقعي). وكان هذا بالنسبة لرأي «ماركس» في جدل التاريخ الذي ضعف من الصراع بين الطبقات الرأسمالية وطبقة العمال والذي تم إيجاد حل له في «جَمعية» الشيوعية. وفي الدراسات الثقافية، أضفي على الجدل عنصر نقدي، أو تم التوصل إلى ترابط عبر التفكير النقدي، أو ما أسماه «فريدريك چيمسون» Jameson Fredric «التفكير ثلاثي الأبعاد» ـ القدرة على التفكير من خلال جميع جوانب المناقشة (1992-28).

الفجوة الرقمية Digital divide

تنشأ من نقد الرابطة بين الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال، وترى أن توزيع تكنولوچيات المعلومات المتنوعة المعتمدة على السوق الحرة سوف تخلف وراءها دائمًا كل هذا مع عدم القدرة على الدفع. وبينما تنتشر تكنولوچيات المعلومات عبر معظم المجتمع، فإن هؤلاء الذين لا يستطيعون تحمل شرائها يتعرضون للمزيد من الحرمان.

شركة التجارة الإلكترونية Dotcom

الأعمال، أو خطط العمل في الكثير من الحالات، التي انبثقت في التسعينيات من القرن العشرين مستخدمة الإنترنت كقاعدة للإنتاج، والتوزيع، والكمية. وقد انبثق المصلح من الاستخدام المنتشر لاسم ميدان إنترنت الأعمال، مثل Salon.com (يطلق عليه أيضًا «Salon dot com») كاسم لتجارتها أيضًا.

ثورة شركات التجارة الإلكترونية Dotcom bubble

الاستثمار المحموم في الأعمال المعتمدة على الإنترنت من منتصف إلى نهاية التسعينيات من القرن العشرين مسببًا لارتفاع هائل في أسعار سوق الأوراق المالية حتى بالنسبة للأعمال التي لم

تحقق سنتًا واحدًا كربح، وبناء على الفحص الدقيق، كان من المستبعد أن يحدث ذلك. وبالنظر إلى ثورة المضاربة قفزت «الجمعية الوطنية للتسعير الآلي للأوراق المالية» NASDAQ من 751 في يناير عام 1995 إلى 5048 في مارس عام 2000. وبعد شهر من ذلك، عندما تحولت الثورة إلى «انفجار»، فقدت NASDAQ 35 في المائة من قيمتها وتلاشت آلاف من شركات التجارة الإلكترونية.

الأيديولوجيا المدمجة Embedded ideology

من «بوستمان» (1993) الذي يرى أن التكنولوجيات تأتي مع اتجاه أيديولوجي وتكون مشفرة من قبل. ومن هنا يمكننا القول، بأنها تعكس القيم المسيطرة لنظام اجتماعي معين. بمعنى آخر، فإن التكنولوجيات لا تعد «محايدة».

الفوردية Fordism

مرحلة في تطوير رأسمالية القرن العشرين التي اتسمت بالإنتاج المعتمد على المصانع الضخمة مقابل استهلاك ضخم في سوق ضخم. وتتسم أيضًا في مرحلة بزوغ الفوردية (1945-1973) مثل عملية «العقد الاجتماعي» بين رأس المال، والعمال، والحكومة في تنظيم «القمم الإستراتيجية» للاقتصاد مثل بناء السفن، والحديد الصلب، والصناعات الهندسية الثقيلة، إلخ...

مدرسة فرانكفورت Frankfurt School

مجموعة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الألمان الذين زحفوا إلى «الولايات المتحدة» هربًا من القمع النازي في الثلاثينيات من القرن العشرين. وقد وضع رائدوها من المُنظِرين، أمثال «تيودور أدورنو» Theodor Adorno، و«ماكس هوركهيمر» Max Horkheimer، والأكثر «والتر بنجامين» Walter Benjamin، نظريات حول طبيعة الإنتاج الثقافي في المجتمع الصناعي.

حركة المجتمع المدني العالمي Global civil society movement

اتحاد حر يمتد عبر العالم مكون من جماعات متنوعة، متضمنًا المنظمات غير الحكومية، والحركات

الحكومية، ونقابات العمال، والأحزاب السياسية، والجماعات الدينية، إلخ... والتي نشأت لمواجهة العولمة الليبرالية الجديدة والتأثيرات التي أحدثتها على دوائرهم الانتخابية المحلية.

العولمة **Globalization**

في إطارها الاقتصادي ترتبط بشدة بفكرة الاقتصاد الجديد. تتسم العولمة بفتح الأسواق والحدود أمام المنافسة الاقتصادية، والاقتصاديات القوية في تحرير التجارة بشكل أكثر عمومية، مما يجعلها معرضة لـ «قوى السوق».

واجهة المستخدم الرسومية (الجرافيكية) **GUI**

برنامج إلكتروني يقوم بإنتاج تمثيل جرافيكي لنظام تشغيل بالحاسب الآلي. وتتمثل أكثر واجهات التطبيق الجرافيكي شيوعًا في Microsoft Windows وApple Mac OS X.

الهيمنة **Hegemony**

تصف عملية سيطرة الطبقات والجماعات الدنيا من خلال فهم وإدراك الأيديولوجية (الأفكار والافتراضات) من المنظور العقلاني والممارسة اليومية لتلك الطبقات والجماعات الدنيا (انظر «جيتلين» Gitlin 1981: 253).

تكنولوجيات المعلومات والاتصالات **ICTs**

تعبر بدقة عن أي جهاز أو تطبيق، والمكونات المادية أو البرامج الإلكترونية، مثل الحاسب الآلي الشخصي، أو الهاتف المحمول، أو الماسح الضوئي، أو المساعد الرقمي الشخصي (PDA)، يمكن أن يرتبط بالنظرية أو التطبيق في شبكة الشبكات التي تضم مجتمع المعلومات المعاصر عالي التقنية.

بيئة المعلومات **Information ecology**

إنشاء إطار يعتمد على المعلومات، من خلال الاستخدام الفردي والجماعي للأجهزة

والتطبيقات المعتمدة على تكنولوچيا المعلومات والاتصال في مجالات متزايدة من الثقافة، والمجتمع، والاقتصاد.

المعلوماتية Informationization

عمليات تغلغل المجالات المتزايدة من الثقافة، والمجتمع، والاقتصاد مع منطق عمليات الحاسب الآلي. وفي هذا الكتاب يستخدم المصطلح في سياق اتجاه تاريخي منبثق من الرابطة بين العولمة الليبرالية الجديدة وثورة تكنولوچيات المعلومات والاتصال.

الإنترنت Internet

قالب من الشبكات الذي يربط الحواسب الآلية ووحدات الخدمة معًا.

فهم الإعلام Media Savvy

انظر فهم التكنولوچيا.

الموقع العاكس Mirror-site

نسخة مطابقة لموقع إلكتروني أصلي تحتويه وحدة خدمة مختلفة. ويمكن للمواقع العاكسة أن تقلل من الحمولة التي على المواقع الفردية عندما تكون حركة المرور ثقيلة، مما يسمح بدخول أسرع وأكثر سهولة.

معهد الإعلام ماساتشوسيتس للمعلومات والتكنولوچيا MIT Media Lab

معهد أسسه «نيكولاس نيجروبونتي» Nicholas Negroponte و«چيرومي ويزنر» Jerome Wiesner عام 1985. وقد تم تمويله برعاية مشتركة، ويقوم معمل الإعلام» بإجراء أبحاث تهدف إلى دمج تكنولوچيات المعلومات والاتصال في مجالات كثيرة من الثقافة، والاقتصاد، والمجتمع.

(إم بي ثري) مجموعة ملفات صوتية MP3

تصميم رقمي لترميز الصوت، ويستخدم بشكل واسع في توزيع ملفات الموسيقى عبر الإنترنت.

الجمعية الوطنية للتسعير الآلي للأوراق المالية «ناسداك» NASDAQ

نظام عملي لتجارة الأوراق المالية يدار من خلال الحواسب الآلية عبر 3600 شركة اتصالات، وتكنولوجيا حيوية، وخدمات مالية، وإعلام. وقد بدأت نشاطها في «الولايات المتحدة» عام 1971.

الليبرالية الجديدة Neoliberalism

أيديولوجيا ترى أن التفوق المتأصل لـ «السوق الحرة» وسيلة رئيسية لتنظيم الحياة الاقتصادية. وقد نشأت مع إعادة قراءة (أو خطأ فهم قراءة) كتاب «آدم سميث» Adam Smith «ثروات الأمم» Wealth of Nations، الذي يرى أن اليد الخفية لقوى السوق سوف تجلب للاقتصاد «التوازن» بين العرض والطلب. ومن جهة أخرى، وخلافًا لرأي «سميث»، يهدف المتعصبون ضد الليبرالية الجديدة إلى إعادة المنطق للسوق في كل مجال من مجالات المجتمع. وتقوم الليبرالية الجديدة بتدعيم كل من العولمة والاقتصاد الجديد.

مجتمع الشبكات Network Society

اتجاه تاريخي تتم من خلاله الوظائف السائدة في المجتمع، ويمكن القول بأن عملياته الاقتصادية، والثقافية، والإعلامية تنتظم بشكل متزايد حول الشبكات. وقد أصبحت الشبكات المعتمدة على تكنولوجيا المعلومات والاتصال، كما يصرح «كاستيلز» Castells، هي «المورفولوجيا (علم التشكل) الاجتماعي الجديد [الهياكل التنظيمية] لمجتمعاتنا» (1996: 469).

الاقتصاد الجديد New Economy

مصطلح ظهر في التسعينيات من القرن العشرين استخدم هنا لوصف نمط الإنتاج الذي

ازداد من إعادة هيكلة السوق الضخم. وتتمثل سمات الاقتصاد الجديد في أن قواه المحركة تعتمد على شبكات تكنولوچيا المعلومات والاتصال، والإنتاج المرن، والعمالة المرنة، والعولمة، ومبادئ الليبرالية الجديدة في السوق.

المنظمات غير الحكومية Non-governmental organizations NGOs

المساعد الرقمي الشخصي PDA

جهاز يتبع تكنولوچيا المعلومات والاتصال يعمل كمنظم رقمي شخصي ويمكن اتصاله بالإنترنت لنقل المعلومات من نظم التخزين الكبيرة إلى نظيرتها الصغيرة والعكس.

مجتمع الخطر Risk society

مصطلح صاغه «أولريش بيك» Ulrich Beck (1992) ليقول، لأن المجتمع الصناعي يتحول إلى التعقيد والشمول الكلي بشكل متزايد، فقد اتسم بالابتكار المتزايد وتوزيع المخاطر مثل التلوث الكيميائي، ومرض «جنون البقر»، إلخ...، وظل ذلك غير ظاهر حتى حدث الضرر.

رأس المال الاجتماعي Social capital

أصبح المصطلح متداولًا منذ كتابات «بورديو» Bourdieu على الأقل لكن أعاد «روبرت بوتنام» Robert Putnam (2000) ظهوره. وهو يشير إلى سمات المنظمة الاجتماعية مثل الشبكات، والنماذج، والرعاية الاجتماعية التي تسهل التنسيق والتعاون من أجل المنفعة المتبادلة.

الإعلام التكتيكي Tactical Media

مصطلح قام كل من «لوڤينك» Lovink و«جارسيا» Garcia (1996) بصياغته، ويشير إلى استخدام تكنولوچيات المعلومات والاتصال بطرق مدعمة، ومجددة، وخلاقة، ومدمرة ثقافيًا تتعلق بالمنطق السائد لتكنولوچيات المعلومات والاتصال تحت سيطرة مجتمع شبكات الليبرالية الجديدة ويتصل بشكل وثيق بالكفاءة الثقافية، والفهم الإعلامي، والفهم التكنولوچي.

مذهب الحتمية التكنولوچية Technological determinism

نظرية ترى أن التكنولوچيا هي محرك التاريخ الإنساني، وأن الأفراد والجماعات والمجتمع بشكل عام يتشكلون مباشرة عن طريق التطورات التكنولوچية. وترى تفسيرات أخرى أكثر دقة أن العلاقة أصبحت أكثر تعقيدًا، وأنه عند مراحل معينة في التاريخ (مثل الثورة الصناعية وثورة تكنولوچيات المعلومات والاتصال ـ كما يصفها هذا الكتاب ـ ورابطة العولمة الليبرالية الجديدة) يمكن أن تصبح التكنولوچيا حتمية قوية.

السياسة التقنية Technopolitics

يستخدم هنا للإشارة إلى سياسة حركة المجتمع المدني العالمي، التي يعتمد تنظيمها واتصالاتها على تكنولوچيات المعلومات والاتصال.

فهم التكنولوچيا Techno savvy

مستوى من الخبرة حول تكنولوچيات المعلومات والاتصال. وقد استخدم في هذا الكتاب لوصف العناصر (إلى جانب فهم الإعلام) التي تتضمن شكلًا من الكفاءة الثقافية في مواجهة تكنولوچيات المعلومات. ولا يكفي مجرد فهمنا للتكنولوچيا، لكن من الضروري أيضًا فهم الأطر الثقافية، والتاريخية، والأيديولوچية، والاقتصادية لتكنولوچيات المعلومات المستخدمة. ويؤدي فهم التكنولوچيا وفهم الإعلام والكفاءة الثقافية إلى مستوى من الفعالية والاستقلالية (الحرية الخلاقة) إلى جانب أدوات نظام المعلومات.

محدد المصادر الموحد URL

عنوان الموقع الإلكتروني على الإنترنت، مثل www.amazon.com.

تشفير الرموز Warchalking

تقوم بتشفير الرموز للإفادة بوجود نقطة توصيل لاسلكية في مكان عام، حيث يستطيع

الذين لديهم حاسب محمول وبطاقة لاسلكية أن يدخلوا إلى الإنترنت عن طريق شبكة خاصة أو حساب «موفر خدمة الإنترنت» ISP.

مدوّنات الإنترنت Weblogging/blogging

تسمى أيضًا «Web log». ويشير إلى صفحة الويب التي تعمل كصحيفة شخصية متاحة بشكل علني للفرد. ويتم تحديثها يوميًا بشكل نموذجي، وغالبًا تعكس المدوّنات شخصية المؤلف. وتنضم عادة إلى روابط مع مدوّنات إنترنت متشابهة معها في الموضوع.

الاقتصاد عديم الوزن Weightless economy

مصطلح صاغه «جيريمي ريفكين» Jeremy Rifkin لوصف الرأسمالية في الاقتصاد الجديد. ويرى «ريفكين» أن المعلومات والمدخل إليها تتضمن جوهر الرأسمالية اليوم في «الفضاء المعلوماتي» (2000: 35).

الدقة اللاسلكية Wi-fi (Wireless fidelity)

مدى قدرة الجهاز الإلكتروني اللاسلكي في استقبال الأصوات المرسلة ونقلها.

ويندوز (النوافذ) Windows

واجهة المستخدم الرسومية (الجرافيكية) الخاصة بأنظمة التشغيل المعتمدة على الحاسب الشخصي.

ثري جي 3G

«الجيل الثالث» للهواتف المحمولة التي يمكن أن تتصل بالإنترنت لإرسال واستقبال البيانات، والرسومات، والصوت.

المراجع

ABCNew.com (2001) Protestor killed in Genoa, http://abcnews.go.com/sections/world/DailyNews/genoa010720_protests.html

Adam, B. (1995) *Timewatch*. Cambridge: Polity Press.

Adam, B. (2004) *Time*. Cambridge: Polity Press.

Adorno, T.W. and Horkheimer, M. ([1944] 1986) The culture industry, in *Dialectic of Enlightenment*. London: Verso.

Ainger, K. (2001) Empires of the senseless, *New Internationalist*, 333, April, www.progressive.org/mccl.199.htm

Akande, W. (2002) The cultural drawbacks of globalization, *The Yellow Press*, http://www.globalpolicy.org/globaliz/cultural/2002/1110cult.htm

Alexander, A. (2003) A revolution for revolt, *Guardian Online*, http://www.guardian.co.uk/online/story/0,3605,898666,00.html

Anderson, K. (2000) United States of apathy?, BBC online news, http://news.bbc.co.uk/1/hi/in_depth/americas/2000/us_elections/vote_usa_2000/597444.stm

Ang, I. (1996) *Living Room Wars: Rethinking Media Audiences for a Postmodern World*. London: Routledge.

Annan, K. (1999) Opening ceremony address: ITU Telecom, http://www.itu.int/telecom-wt99/press_service/information_for_the_press/press_kit/speeches/annan_ceremony.html

Appadurai, A. (1990) Disjuncture and difference in the global cultural economy, in M. Featherstone (ed.) *Global Culture: Nationalism, Globalization and Modernity*. London: Sage Publications.

Armitage, C. (2003) The shadow of death in a ghost city, *The Australian*, 28 April.

Arnold, M. ([1869] 1960) *Culture and Anarchy*. London: Cambridge University Press.

Aron, R. (1968) *Progress and Disillusion*. London: Pelican.

Augustine, Saint (1950) *The City of God*, trans. Markus Dods, New York, NY: Modern Library.

Barber, B. (1996) *Jihad vs McWorld*, New York, NY: Ballantine Books.

Baudrillard, J. (1988) *The Ecstasy of Communication*. New York, NY: Semiotexte.

Baudrillard, J. (1995) *The Gulf War Did Not Happen*. Sydney: Power Publications.

Baudrillard, J. (2003) *The violence of the global*, ctheory, http://www.CTHEORY.NET/TEXT_file.asp?pick=385

Bauman, Z. (1992) *Intimations of Postmodernity*. London: Routledge.

Bauman, Z. (1998) *Globalization*. Cambridge: Polity Press.

BBCWorld.com (2002) *Technology Leapfrog*, http://www.bbcworld.com/content/template_clickonline.asp?pageid=666&co_pageid=2

Beck, U. (1992) *Risk Society. Towards a New Modernity*. London: Sage Publications.

Beck, U. (1998) The politics of the risk society, in J. Franklin (ed.) *The Politics of Risk Society*. Cambridge: Polity Press.

Beck, U. (1999) *World Risk Society*. London: Polity Press.

Berger, J. (2003) Written in the night: the pain of living in the present world, *Le Monde Diplomatique*, February.

Bottomley, D. (2003) Interview with Mr. Goh Chok Tong, 23 April: http://app.sprinter.gov.sg/data/pr/2003042201.htm

Bourdieu, P. (1983) Forms of capital, in J.C. Richards (ed.) *Handbook of Theory and Research for the Sociology of Education*. New York, NY: Greenwood Press.

Bourdieu, P. (1986) *Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste*. London: Routledge.

Bourdieu, P. (1998) The essence of neoliberalism, *Le Monde Diplomatique*, http://mondediplo-.com/1998/12/08bourdieu

Brenner, R. (2003) Towards the precipice, *London Review of Books*, 25(3), February.

Burchill, S. (2003) Public amnesia and hypocrisy needed to justify war on Iraq, *Sydney Morning Herald*, 10 October.

Campbell-Kelly, M. (2003) *From Airline Reservations to Sonic the Hedgehog: A History of the Software Industry*. Cambridge, MA: MIT Press.

Caparini, M. (2002) Civil society and democratic oversight of the security sector, paper to the Fifth International Security Forum, Zurich: http://www.isn.ethz.ch/5isf/5/Papers/Caparini_paper_V-2.pdf

Carey, J. (1992) *The Intellectuals and the Masses*. London: Faber and Faber.

Carothers, T. (2000) Think again: civil society, *Foreign Policy Magazine*, Winter edition.

Castells, M. (1996) *The Rise of the Network Society*. Oxford: Blackwell.

Castells, M. (1997) *The Power of Identity: The Information Age – Economy, Society and Culture*. Oxford: Blackwell.

Castells, M. (2000) Information technology and global capitalism, in A. Giddens and W. Hutton, (eds) *On the Edge: Living with Global Capitalism*. London: Verso.

Castells, M. (2001) *The Internet Galaxy*. New York, NY: Oxford University Press.

Cavanagh, J., Mander, J., Anderson, S. *et al.* (2002) *Alternatives to Economic Globalization*, San Francisco, CA Berrett-Koehler.

Charney, H.S. (2000) Building a competitive advantage in the Internet economy, *Telexpo 2000*: http://newsroom.cisco.com/dlls/tln/exec_team/charney/ppt/pres_032800.pdf

Chomsky, N. (1997) What makes mainstream media mainstream, http://www.zmag.org/chomsky/articles/z9710-mainstream-media.html

Chomsky, N. (2001) *September 11*. New York, NY: Seven Stories Press.

Chomsky, N. and Herman, E.S. (1994) *Manufacturing Consent*. London: Vintage.

Cochrane, N. (2002) Managing the store, *The Age* (Australia), 5 November.

Computer Industry Almanac (2002) http://www.c-i-a.com/pr032102.htm (accessed 24 July 2002).

Cukier, K. (2000) Seeds of doubt, *Red Herring Magazine*, http://www.redherring.com/mag/issue77/mag-seeds-77.html

de Certeau, M. (1984) *The Practice of Everyday Life*. Berkeley: University of California Press.

Diamond, J. (1999) *Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies*. New York, NY: W.W. Norton and Co.

Digerati (2002) http://www.edge.org/digerati/index.html

Ditton, J. and Short, E. (1999) Yes, it works – no, it doesn't: comparing the effects of open-street CCTV in two adjacent town centres, *Crime Prevention Studies*, 10: 201–23.

Dumett, S. (1998) Evolution of a wired world, *Pretext Magazine*, March, www.pretext.com/mar98/story3.htm

Eagleton, T. (1991) *Ideology*. London: Verso.

Eagleton, T. (2003) Kettles boil, classes struggle, *London Review of Books*, 20 February.

Elliot, L. (2003) EU's secret plans hold poor countries to ransom, *Guardian Online*, http://www.guardian.co.uk/business/story/0,3604,902296,00.html

Ellul, J. *The Technological Bluff* (1990) Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans Publishing Company.

Engler, M. (2003) New York against the war, *ZNet* www.zmag.org/content/showarticle.cfm?SectionID=51&ItemID=3102

Eriksen, T.H. (2001) *Tyranny of the Moment: Fast and Slow Time in the Information Age*. London: Pluto Press.

Eriksen, T.H. (2002) The paranoid phase of globalization, *Open Democracy*, 25 October, http://www.opendemocracy.net/debates/article-6-27-279.jsp

Falk, R. (1999) *Predatory Globalization: A Critique*. Cambridge: Polity Press.

Featherstone, M. and Lash, C. (eds) (1999) *Spaces of Culture*. London: Sage Publications.

Fiske, J. (1987) *Television Culture*. London: Methuen.

Flood, A. (1996) Report on the first intercontinental gathering for humanity against neo-liberalism, http://flag.blackened.net/revolt/andrew/encounter1_report.html

Foster, W. and Goodman, S.E. (2000) The diffusion of the Internet in China, *Center for International Security and Cooperation* (CISAC), Stanford University, November. http://mosaic.unomaha.edu/china_2000.pdf

Frank, T. (2000) *One Market Under God*. London: Secker and Warburg.

Fukuyama, F. (1992) *The End of History and the Last Man*. Harmondsworth: Penguin.

Garnham, N. (1990) Contribution to a political economy of mass communication, in F. Inglis (ed.) *Capitalism and Communication: Global Culture and the Economic of Information*. London: Sage Publications.

Gates, B. (1995) *The Road Ahead*. New York, NY: Viking.

Gates, B. (1999) *Business @ the Speed of Thought*, New York, NY: Warner.

Gauntlett, D. *et al.* (2000) *WebStudies*, New York, NY: Oxford University Press.

Gergen, K. (1999) Self-death by technology, *The Hedgehog Review*, Autumn, 1.

Giddens, A. (1997) Excepts from a keynote address at the UNRISD Conference on globalization and citizenship, *UNRISD News*, 15: 4–5.

Giddens, A. (1999a) *Runaway World: How Globalisation is Reshaping Our Lives*. London: Profile Books.

Giddens, A. (1999b) *The Third Way: A Renewal of Social Democracy*. Malden, MA: Polity Press.

Gitlin, T. (1981) *The Whole World Is Watching*. Berkeley, CA: University of California Press.

Given, J. (2001) *Media Ownership in Australia*, http://www.ccm.ulaval.ca/CONCAustralie.pdf

Gleick, J. (1999) *Faster: The Acceleration of Just About Everything*. New York, NY: Abacus.

Golding, P. and Murdock, G. (2000) Culture, communications and political economy, in J. Curran and M. Gurevitch (eds) *Mass Media and Society*. London: Arnold.

Gramsci, A. (1971) *Selections from the Prison Notebooks*. London: Lawrence and Wishart.

Haahr, M. (2001) Dreams of an accelerated culture, *Crossings*, 1(1), http://crossings.tcd.ie/issues/1.1/Haahr/

Hall, S. (1997) The centrality of culture, in K. Thompson (ed.) *Media and Cultural Regulation*. London: Sage Publications.

Hall, S., Hobson, D., Lowe, A. and Willis, P. (1981) *Culture, Media, Language*. London: Hutchinson and Co.

Haraway, D. (1991) A cyborg manifesto: science, technology and socialist-feminism in the late twentieth century, in *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature*. New York, NY: Routledge.

Haraway, D. (1992) *Primate Visions*. London: Verso.

Hardt, M. (2002) Porto Alegre: today's Bandung?, *New Left Review*, 14, March–April: 114.

Harvey, D. (1989) *The Condition of Postmodernity*. Oxford: Blackwell.

Hassan, R. (2000a) The space economy of convergence, *Convergence*, 6(4): 18–36.

Hassan, R. (2000b) Globalization: politics, culture and society in the space-economy of late-capitalism. Unpublished PhD thesis, Swinburne University.

Hassan, R. (2003a) *The Chronoscopic Society: Globalization, Time and Knowledge in the Network Economy*. New York, NY: Lang.

Hassan, R. (2003b) Network time and the new knowledge epoch, *Time and Society*, 12(2), September.

Heffernan, R. (2002) New developments in British politics, http://www.palgrave.com/politics/dunleavy/explanations.htm

Held, D. (1987) *Models of Democracy*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Herman, E.S. and McChesney, R.W. (1997) *The Global Media: The New Missionaries of Corporate Capitalism*. London: Cassell.

Hewlett Packard (2002) HP's linux strategy, http://www.hp.com/wwsolutions/linux/about-_linux_hp/strategy.html

Hospitalitysite.com.au (2003) Golden arches sag, www.thehospitalitysite.com.au/articles/d6/0c0134d6.asp

Huntingdon, S. (1993) The clash of civilizations, *Foreign Affairs*, 72(3): 22–69.

IDA Singapore (2001) *Survey on Broadband Usage in Singapore*, http://www.ida.gov.sg/Website/IDAhome.nsf/Home?OpenForm

Iyer, P. (1996) Postmodern tourism: an interview with Pico Iyer, *Insight and Outlook*, www.scottlondon.com/insight/scripts/iyer.html

Jameson, F. (1992) *Late Marxism: Adorno, or, the Persistence of the Dialectic*. London: Verso.

Jameson, F. (1996) Five theses on actually existing marxism, *Monthly Review*, 47(11): 9.

Kellner, D. (2002) Cultural studies, multiculturalism and media culture, www.gseis.ucla.edu/faculty/kellner/papers/SAGEcs.htm

Kellner, D. (2003) Preface, *Media Spectacle*. London: Routledge.

Klein, N. (2000) *No Logo*. London: Flamingo.

Klein, N. (2002) *Fences and Windows*. London: Flamingo.

Kundera, M. (1996) *Slowness*. New York, NY: Harper Perennial.

Kunzru, H. (1997) You are Cyborg, *Wired*, 5.02.

Laqueur, W. (2002) A failure of intelligence, *The Atlantic Online*, www.theatlantic.com/issues/2002/03/laqueur.htm

Lash, S. (2002) *Critique of Information*. London: Sage Publications.

Lasn, K. (2000) *Culture Jam: How to Reverse America's Suicidal Consumer Binge – And Why We Must*. New York, NY: HarperCollins.

Laurance, J. (2003) Taiwan closes border to curb spread of infection, *Independent*, http://news.independent.co.uk/world/asia_china/story.jsp?story=401067

Leal, P. (2000) Participation, communication and technology in the age of the global market, *Forest, Tree and People* (Newsletter) Number 40/41, http://www-trees.slu.se/newsl/40/40leal.pdf

Lee, L. (2000) Boo hoo!, *Salon*.com, http://dir.salon.com/tech/log/2000/05/18/boo/index.html

Leer, A. (2000) *Welcome to the Wired World*. Edinburgh: Pearson Education.

Loader, B. (2002) A paper for community and information technology: the big questions, 16 October, Monash University, Melbourne, Australia, http://ccnr.net/searchconf/loader.htm

Loney, M. (2002) Warchalking: London wi-fi guerrillas take tips from hobos, *ZnetUK*, http://news.zdnet.co.uk/story/0%2C%2Ct269-s2118000%2C00.html

Lovink, G. (2002) *Dark Fiber: Tracking Critical Internet Culture*. Cambridge, MA: MIT Press.

Lovink, G. and Garcia, D. (1996) *The ABC of Tactical Media*, http://www.timesup.org/Times.UP/ABC.html

Lovink, G. and Schneider, F. (2002) The cities of everyday life, in *Sarai Reader 2002*, http://www.sarai.net/journal/02PDF/07cybermohalla/cybermohalla.pdf

Lunenfeld, P. (2000) Introduction, in P. Lunenfeld (ed.) *The Digital Dialectic*. Cambridge, MA: MIT Press.

Lyon, D. (2002) *The Surveillance Society*, Buckingham: Open University Press.

McChesney, R. (1993) *Telecommunications, Mass Media and Democracy: The Battle for the Control of U.S. Broadcasting*, 1928–1935. Oxford: Oxford University Press.

McChesney, R.W. and Herman, E.S. (1997) *The Global Media: The New Missionaries of Corporate Capitalism*. London; Washington, DC: Cassell.

McChesney, R. (1997) The global media giants, *Extra!* November/December Issue, www.fair.org/extra/9711/gmg.html

McChesney, R. (1999) The big media game has fewer and fewer players, *The Progressive* 63(11), www.progressive.org/mcc1199.htm

McDonald, H. (2003) China's unsafe farming practices may be breeding more than pigs, *Sydney Morning Herald*, 7 April, http://www.smh.com.au/articles/2003/04/06/1049567564240.html

McKenzie, D. and Wajcman, J. (eds) (1999) *The Social Shaping of Technology*. Buckingham: Open University Press.

McLuhan, M. (1964) *Understanding Media*. Aylesbury: Abacus.

McLuhan, M. (1995) *Essential McLuhan*. London: Routledge.

Madlin, N. (1999) MIT Media Lab: the birthplace of ideas, *Photo District News*, 19(2): 53.

Marr, M. (2003) Iraq war takes toll on journalists (Reuters report), Globalaware.org, http://www.globalaware.org/noticeboard/journalists.html

Marshall, S. (2003) Accuracy of battlefield news often hazy, *USToday* online, http://www.usatoday.com/news/world/iraq/2003-04-07-fogofwar-usat_x.htm

Martin, H.P. (1998) *Global Trap: Globalisation and the Assault on Democracy and Prosperity*. Sydney: Pluto Press.

Marx, K. and Engels, F. (1975) The manifesto of the Communist Party, in *Selected Works*. Moscow: Progress Publishers.

Mattelart, A. (1979) *Multinational Corporations and the Control of Culture*. New Jersey, NJ: Humanities Press.

Mazzocco, D.W. (1994) *Networks of Power*. Boston, MA: The Free Press.

MDA (Mobile Data Association) (2002) http://www.mda-mobiledata.org/resource/hottopics/sms.asp

Media Lab Research (2002) http://www.media.mit.edu/research/

Media Lab Research Consortia (2002) http://www.media.mit.edu/research/group.php?id=14

Meiksins-Wood, E. (1998) Work, new technology and capitalism, in R. McChesney, E. Meiksins-Wood and J. Bellamy Foster (eds) *Capitalism and the Information Age*. New York, NY: Monthly Review Press.

MIT News (2001) NSF awards $13.75M to MIT Media Lab to create Center for Bits and Atoms, http://web.mit.edu/newsoffice/nr/2001/bitsandatoms.html

Monbiot, G. (2000) *The Captive State*. London: Macmillan.

Moody, G. (1997) The greatest OS that never was, *Wired*, 5.08, http://www.wired.com/wired/archive/5.08/linux.html?topic=&topic_set=

Nairn, T. (2002) *Pariah: The Misfortunes of the British Kingdom*. London: Verso.

Naughton, J. (2003) Germany 1–Microsoft 0, *London Observer Online*, 22 June, http://www.observer.co.uk/business/story/0,6903,982275,00.html

Negroponte, N. (1995) *Being Digital*. Rydalmere, NSW: Hodder and Stoughton.

Negroponte, N. (1998) Beyond digital, *Wired*, 6.12, http://web.media.mit.edu/~nicholas/Wired/WIRED6-12.html

Nguyen, D. and Alexander, J. (1996) The coming cyberspacetime and the end of polity, in R. Shields (ed.) *Cultures of Internet*. London: Sage Publications.

Nielsen Net Ratings (2002) Half a billion people now have domestic Internet access, http://www.eratings.com/news/2002/20020306.htm

Noam, E. (1996) Media concentration in the US, www.vii.org/papers/medconc.htm

NTIA (1995) Falling through the Net, http://www.ntia.doc.gov/ntiahome/fallingthru.html

Omahe, K. (1990) *The Borderless World*. New York, NY: Harper Perennial.

Ong, W. (1982) *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*. New York, NY: Methuen.

Penenberg, A. (2002) The surveillance society, *Wired*, 9.12.

People's Daily Online (2002) http://english.peopledaily.com.cn/200210/17/eng20021017_105229.shtml

Perrone, J. (2003) Working the web: anti-war coverage, *Guardian Online*, www.guardian.co.uk/online/story/0,3605,898664,00.html

Postman, N. (1993) *Technopoly*, New York, NY: Vintage.

Preston, S. (1994) The Rio Earth Summit and beyond, *A Chronicle of International Affairs*, 3(2), http://www.fiu.edu/~mizrachs/Nets-n-NGOs.html

Public Broadcasting Service (2001) Microsoft proposes deal to settle private cases, http://www.pbs.org/newshour/updates/november01/microsoft_11-21.html

Putnam, Robert D. (2000) *Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community*. New York, NY: Simon and Schuster.

Quarterman, J.S. (2002) Monoculture considered harmful, *First Monday*, 2, February, http://firstmonday.org/issues/issue7_2/quarterman/index.html

Raab, C. (1998) Privacy, democracy, information, in B. Loader (ed.) *The Governance of Cyberspace*. London: Routledge.

Reich, R. (2002) *The Future of Success*. London: Vintage.

Rheingold, H. (2000) *The Virtual Community: Homesteading on the Electronic Frontier*. Cambridge, MA: MIT Press.

Rifkin, J. (2000) *The Age of Access*. London: Penguin.

Robins, K. and Webster, F. (1999) *Times of the Technoculture*. London: Routledge.

Rossetto, L. (1998) Change is good, *Wired*, 6.01.

Ruckus (2002a) Tech toolbox action camp, Bulletin Board posting, www.ruckus.org/techcamp.html

Ruckus (2002b) Media information, http://ruckus.org/training/media.html

Sader, E. (2002) Beyond civil society: the Left after Porto Alegre, *New Left Review*, 17, September–October.

Schiller, D. (1999) *Digital Capitalism*: Cambridge, MA: MIT Press.

Schlosser, E. (2001) *Fast Food Nation*. London: Allen Lane.

Seneviratne, K. (2003) Global media: it's time to create a fifth power, http://www.ipsnews.net/fsm2003/27.01.2003/nota26.shtml

Sennett, R. (1999) *The Corrosion of Character*. New York, NY: Norton.

Servon, L. (2002) *Bridging the Digital Divide*. Oxford: Blackwell.

Shenk, D. (1997) *Data Smog*. London: Abacus.

Silverstone, R. (1999) *Why Study Media?* London: Sage Publications.

Slevin, J. (2001) *The Internet and Society*. Malden, MA: Blackwell.

Sloan, W. (2002) Great firewall of China does more harm than good, *Bangkok Post*, 24 September, http://www.bangkokpost.net/News/24Sep2002_news38.html

Stallabrass, J. (1996) *Gargantua: Manufactured Mass Culture*. London: Verso.

Steger, M.B. (2002) Putnam, social capital and globalization, in S. McLean and D. Schultz (eds) *Social Capital*. New York, NY: New York University Press.

Stewart, F. (2001) Meeting the online challenge, *Australian Financial Review*, 21 March: 11.

Sulston, J. (2002) Heritage of humanity, *Le Monde Diplomatique*, November.

Taylor, P.A. (2001) Informational intimacy and futuristic flu: love and confusion in the matrix, *Information, Communication and Society*, 4(1): 74–94.

Thompson, E.P. (1968) *The Making of the English Working Class*. Harmondsworth: Penguin.

Tofts, D. (1997) *Memory Trade: A Prehistory of Cyberculture*. Sydney: Interface Publishing.

Tomlinson, J. (1999) *Globalization and Culture*. Cambridge: Polity Press.

US Government (2002) *The National Strategy to Secure Cyberspace*, http://www.whitehouse.gov/pcipb/cyberstrategy-draft.pdf

Virilio, P. (1995a) *The Art of the Motor*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Virilio, P. (1995b) Speed and information: cyberspace alarm!, CTHEORY.NET, http://www.ctheory.net/text_file.asp?pick=72

Virilio, P. (1997) *Open Sky*. London: Verso.

Virilio, P. (2000) *Information Bomb*. London: Verso.

Virilio, P. (2001) The one who really scares me, interview with Dorothea Hahn, 'The Cities of Everyday Life', Sarai Reader 2001, http://www.sarai.net/journal/02PDF/9-11/06virilio_interview.pdf

Wallerstein, I. (1997) Uncertainty and creativity, http://fbc.binghamton.edu/iwuncer.htm

Wallerstein, I. (2002) New revolts against the system, *New Left Review*, November–December.

Wark, M. (2001) Abstraction, in H. Brown *et al.* (eds) *Fibreculture*. Melbourne: Arena Publishing.

Weber, J. (2002) The ever-expanding, profit-maximizing, cultural-imperialist, wonderful world of disney, *Wired*, 10.02, February.

Webster, W. (1999) Closed circuit television and information age policy processes, in B. Hague and B. Loader (eds) *Digital Democracy*. London: Routledge.

Weiser, M. and Seely Brown, J. (1997) The coming age of calm technology, in P.J. Denning and R.M. Metcalfe (eds) *Beyond Calculation: The Next Fifty Years of Computing*, pp. 75–87. NewYork, NY: Copernicus.

Welch, D. (2002) Interview with Erich Schlosser, *Powell's.com Interviews*, www.powells.com/authors/schlosser.html

Welsh, I. (2001) *Glue*. New York, NY: Random House.

Whitehouse, D. (2002) Internet to reach South Pole, http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/2211507.stm

Williams, R. (1958a) Culture is ordinary, in A. Gray and J. McGuigan (eds) *Studies in Culture: An Introductory Reader*. London: Arnold, 1997.

Williams, R. (1958b) *Culture and Society*. New York, NY: Harper Torch Books.

Williams, R. (1974) *Television: Technology and Cultural Form*. London: Fontana.

Williams, R. (1979) *Politics and Letters*. London: Verso.

Wilson, D. and Sutton, A. (2002) *Open-Street CCTV Surveillance in Australia: A Comparative Study of Establishment and Operation*. Melbourne: Criminal Research Council Report.

Winner, L. (1997) Mythinformation, in G. E. Hawisher and C. L. Selfe (eds) *Literacy, Technology and Society*, Upper Saddle River, NJ: Prentice-Hall.

Winston, B. (1998) *Media, Technology and Society*. London: Routledge.

Wired (2002) *Encyclopaedia for the New Economy*, http://hotwired.lycos.com/special/ene/index.html?word=intro_one

World Trade Organization (WTO) (2003) http://www.wto.org/english/tratop_e/serv_e/gats_factfiction3_e.htm

Wrolstad, J. (2002) Tech giants announce national Wi-Fi network, http://www.newsfactor.com/perl/story/20176.html

Young, J. (1993) *Global Network: Computers in a Sustainable Society*. Washington, DC: Worldwatch Institute.

Žižek, S. (2002) Revolution must strike twice, *London Review of Books*, 25 July: 13.

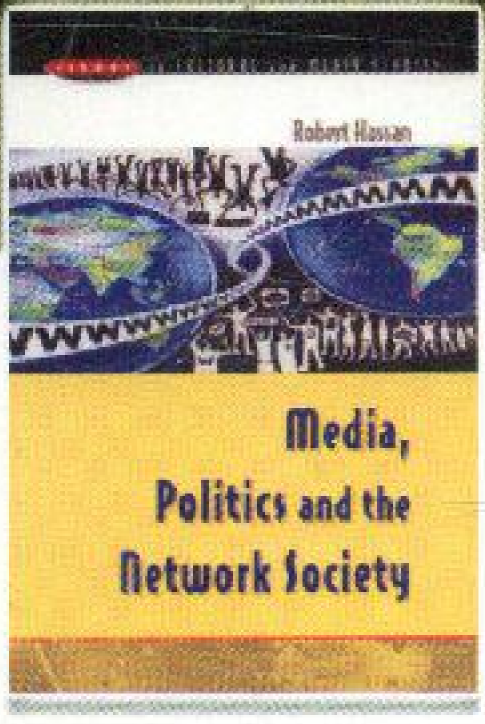

- ما هو **مجتمع الشبكات**؟
- ما تأثيراته على الإعلام، والثقافة، والسياسة؟
- ما هي القوى المتنافسة في **مجتمع الشبكات**، وكيف تعيد تشكيل العالم؟

يعد ظهور **مجتمع الشبكات** - أي: نشر الكثير من محتويات الاقتصاد، والثقافة، والمجتمع من خلال روابط ووصلات رقمية - تطورًا بالغ الأهمية والدلالة. وفي هذا الكتاب التجديدي، يكشف لنا مؤلفه **روبرت حسن** عن القوى المحرّكة لهذا النظام الجديد للمعلومات، ويبيّن كيفية تأثير هذه القوى على الأسلوب الذي ينتهجه كل من الإعلام والسياسة، وكيف تم تكريس كل هذه القوى من أجل إعادة تشكيل وإعادة تنظيم عالمنا. ومن خلال الاستعانة بالكثير من الأفكار الجارية حاليًا في نظرية الإعلام، والسياسة، والدراسات الثقافية حول **المجتمع المدني الشبكي** الذي تطوّر حديثًا، يرى حسن أن مجتمع الشبكات غارق في التناقضات، ويعيش حالة من الانصهار العميق.

يعتبر هذا الكتاب مرجعًا رئيسيًا لا غنى عنه لطلاب الجامعة في كليات الإعلام، والسياسة، والاجتماع، والدراسات الثقافية بوجه عام. بالإضافة إلى كل المهتمين الذين يحرصون على فهم ماهية **مجتمع الشبكات**، ويرغبون في القيام بأي دور في تشكيله.

روبرت حسن زميل المجلس الأسترالي للبحوث في قسم الإعلام والاتصالات بمعهد البحوث الاجتماعية في جامعة سواينبيرن Swinburne بأستراليا. كما كتب عددًا كبيرًا من المقالات عن طبيعة **مجتمع الشبكات** من المنظور الزمني، ومنظور الاقتصاد السياسي، ونظرية الإعلام. وهو مؤلف كتاب -**المجتمع الكرونوسكوبي**- Chronoscopic Society (2003)

Bibliotheca Alexandrina
1126917

Arab Nile Group
P.O. Box: 4051, 7th District
Nasr City 11727 Cairo / Egypt
Tel.: 00202/26717135 – 26717134
Fax: 00202/26717135
info@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com
www.arabnilegroup.com

ISBN: 978 – 977- 377- 121 - 6
6 222012 900565